مواد لتاريخ الوهابيين

للرحالة
جوهان لودفيج بوركهارت

ترجمة
الدكتور عبدالله الصالح العثيمين
جامعة الملك سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

بدأت الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى البلاد العربية في القرون الأخيرة منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وكان في طليعتها رحلة لودفيكو دي فارتيما التي بدأها سنة ١٥٠٣ م. وكانت دوافع من قام بتلك الرحلات مختلفة. فمن الرحالة من قام برحلته بترتيب من جهة أوروبية مسؤولة؛ سواء كانت أهدافها علمية أم استعمارية أم مزيجاً من هذه وتلك. ومن الرحّالة من قام برحلته بدافع ذاتي أملته عليه الرغبة الملحّة لديه في الاكتشاف والطموح إلى الشهرة.

ولقد جاءت كتابات أولئك الرحّالة مختلفة من حيث الجودة والضعف، ومن حيث الدقة وعدمها، ومن حيث الحياد والتحيّز، وذلك وفقاً لمؤهلات الكاتب الذاتية ودوافع كتابته. على أنه مهما وجد في تلك الكتابات من نقاط ضعف واضحة فإن فيها الكثير من المعلومات المفيدة للباحثين في أمور البلاد التي كتبوا عنها وأحوال سكانها.

وكان جوهان لودفيج بوركهارت من أبرز الرحّالة الأوربيين إلى البلاد العربية وأكثرهم دقة وإنصافاً. وقد ولد في بلدة لوزان السويسرية سنة ١٧٨٤ م. وكان أبوه عقيداً في الجيش، فاضطر إلى مغادرة بلاده حينما احتلتها القوات الفرنسية، واستقر في ألمانيا. وقد درس جوهان في لايبزك

ثم في جامعة جوتنجن . وتكونت لديه رغبة عظيمة في أن يصبح رائداً من الرواد المشهورين . فانتقل إلى بريطانيا ، واتصل بالسير جوزيف بانكز ، عضو الجمعية الأفريقية التي كانت قد أرسلت عدة بعثات إلى منطقة النيجر انتهت كلها بهلاك أفرادها . وعرض بوركهارت على الجمعية المذكورة خدماته للقيام برحلة إلى تمبكتو مع قافلة الحج العائدة إلى هذه البلدة من مكة . فرحّبت الجمعية بطلبه . وكان مما قام به في بريطانيا أن عكف على دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي والطب والكيمياء ، كما درّب نفسه على الحياة الشاقة التي يمكن أن يتعرض لها كل رائد .

وفي شهر مارس من عام ١٨٠٩ م غادر بوركهارت بريطانيا متوجهاً إلى جزيرة مالطا حيث ادّعى أنه طبيب هندي وتسمّى بإبراهيم . ومن هناك اتجه إلى سوريا ، واستقر في حلب عامين واصل خلالهما دراسته للغة العربية حتى أتقنها ، كما واصل دراسته للدين الإسلامي حتى أصبح ذا معرفة جيدة به . على أنه لم يقتصر خلال هذين العامين على دراسة اللغة والدين ، بل تجوّل بين قبائل المنطقة الرحّل ، خاصة قبيلة عنزة المشهورة . وكتب عن تلك القبائل ، فيما بعد ، كل ما لاحظه في تجواله . وكان مما حققه من نجاح في بلاد الشام أن وصل إلى البتراء التي كان الأوربيون تواقين إلى معرفتها والوصول إليها .

وفي شهر فبراير من عام ١٨١٢ م شعر بوركهارت أنه قد أصبح مهيأ ليقوم برحلته إلى جهات النيجر . فسافر من سوريا على مهل حتى وصل إلى القاهرة في شهر سبتمبر من ذلك العام . لكنه وجد أنه من غير المتوقع أن تنطلق قافلة من هناك إلى غرب أفريقيا إلا في شهر يونيو من

العام الذي يليه . فقرر أن يسافر بمحاذاة نهر النيل لعلّه يجد طريقاً من بلاد النوبة إلى هدفه . فإن لم يجد عاد إلى القاهرة في الوقت المناسب لمرافقة القافلة .

وتوغل بوركهارت في جنوبي مصر حتى وجد تمثال أبي سنبل . وحين أدرك في أسيوط أنه غير قادر على الذهاب من هناك إلى غربي أفريقيا رأى أن مما قد يسهّل مهمته في تحقيق هدفه الحصول على لقب « الحاج » . ولذلك رافق قافلة الحجاج النوبيين والسودانيين إلى مكة . واحتياطاً لأيّة طوارئ أو مفاجآت حمل معه رسائل من محمد علي ، حاكم مصر ، تظهره على أنه الشيخ إبراهيم بن عبد الله الشامي .

وفي أوائل شهر يوليو من عام ١٨١٤ م أبحر بوركهارت مع مملوكه من ميناء سواكن في السودان ، فوصل إلى جدة في منتصف ذلك الشهر . وما أن وصل إلى هذه البلدة حتى حلّ به المرض . ثم اضطر إلى بيع مملوكه لنفاد ما كان معه من مال . على أنه اتصل بمحمد علي ، الذي كان حينذاك قد وصل إلى الحجاز لمواصلة الحرب ضد الدولة السعودية الأولى ، فأمدّه ببعض المال ، وطلب منه أن يأتي لمقابلته في الطائف . ويبدو أن ذلك الحاكم كان يخامره بعض الشك في أن بوركهارت كان جاسوساً لبريطانيا مما جعله يراقبه بحذر . لكن وساطة طبيبه الأرمني ، بوساري ، أدّت إلى سماحه له بمغادرة تلك البلدة .

وفي الثامن من سبتمبر عام ١٨١٤ م دخل بوركهارت مكة . ثم غادرها أياماً قليلة إلى جدة حيث اشترى مملوكاً وأدوات كان في حاجة إليها . وعاد إلى مكة ، فأدّى الحج واستقر فيها حتى مطلع السنة

الميلادية التالية. وسافر من هذه البلدة المقدّسة إلى المدينة المنوّرة حيث بقي ثلاثة شهور عانى في كثير من أيامها مرضاً شديداً. ثم سافر منها إلى ينبع التي كان قد حلّ بها وباء مات بسببه كثير من سكانها. وبعد ثلاثة أسابيع من وصوله إليها استقلّ سفينة متجهة إلى مصر. فوصل إلى القاهرة في الرابع والعشرين من شهر يونيو عام ١٨١٥ م.

ومع أن الأمراض التي تعرّض لها بوركهارت خلال رحلته إلى الحجاز قد أضرّت بصحته كثيراً إلا أنه كان توّاقاً إلى الحصول على قافلة يسافر معها إلى تمبكتو. لكنه لم يدرك ما كان توّاقاً إليه. ولأن وباء الطاعون قد انتشر في القاهرة غادرها إلى صحراء سيناء حيث بقي شهرين بين قبائلها الرُّحّل. ثم عاد إلى العاصمة المصرية ليكمل تدوين ملاحظاته في رحلاته. وفي الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨١٧ م وافته الأجل في العاصمة المذكورة، ودفن في مقبرة المسلمين[1].

وكانت جزيرة العرب قبل وصول بوركهارت إليها بحوالي سبعين عاماً قد شهدت مولد الدولة السعودية الأولى، التي قامت على أسس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية. ومع أن بوادر نجاح تلك الدولة التوحيدية قد بدت في الأفق منذ البداية إلا أن الظروف المحيطة بها لم تمكنها من توحيد كل أقاليم نجد إلا بعد أربعين سنة من قيامها. على أنها ما أن وحّدت تلك الأقاليم النجدية حتى أصبح يسيراً عليها توحيد

---

(١) لعلّ أوفى ترجمة لبوركهارت تلك التي أوردها Robin Bidwell في كتابه Travelers in Arabia، الذي طبع في لندن سنة ١٩٧٦ م. ولذلك كان الاعتماد عليه أكثر من أي مصدر آخر في الحديث عنه هنا.

مناطق أخرى من جزيرة العرب . ولذلك فإنه لم يمض ربع قرن على توحيدها لنجد حتى أصبحت حدودها تمتد من الخليج العربي شرقاً حتى البحر الأحمر غرباً ، ومن أعماق اليمن جنوباً حتى تخوم العراق والشام شمالاً . وكان استيلاؤها على الحجاز أعنف ضربة موجهة منها إلى الحكومة العثمانية . ولهذا ضاعفت تلك الحكومة جهودها ضدها . وكان حاكم مصر ، محمد علي ، الأداة العثمانية للقضاء على الدولة السعودية . وحين وصل بوركهارت إلى الحجاز كان محمد علي قد استولى على مدنه الكبيرة . بل كان يوشك أن يحقق نجاحاً كبيراً في جهات عسير التي تصدّى سكانها لقواته بشجاعة فائقة .

ولقد جاء ما دوّنه بوركهارت بالانجليزية عن الجزيرة العربية والبلاد المتاخمة لها شمالاً في كتابين . أولهما رحلات في جزيرة العرب[1] . وثانيهما ملاحظات على البدو والوهابيين[2] . وقد وصف في الكتاب الأول جدة ومكة والمدينة وينبع من الناحية العمرانية وصفاً مفصلاً ، وتحدث عن الأوضاع السائدة فيها والظروف المحيطة بها من جميع النواحي . أما كتابه الثاني ـ الذي ترجم هنا قسم منه ـ فيتألف من جزأين ؛ تحدّث في الأول منهما عن القبائل التي تقطن الصحراء السورية وتقسيماتها مركزاً حديثه ، بصفة خاصة ، على قبيلة عنزة المشهورة . وتحدث في هذا الجزء ، أيضاً ، عن حياة البدو من حيث أسلوب المعيشة والعادات والتقاليد التي جعلت كاتب هذه السطور يكتفي ـ مؤقتاً على الأقل ـ

1 — *Travels in Arabia* , London , 1829

2 — *Notes on the Bedouins and Wahabys* , London , 1831

بترجمته إلى اللغة العربية . وذلك لأنه أكثر التصاقاً بتاريخ الدولة السعودية .

ولقد اعتمد بوركهارت فيما كتبه عن الدولة السعودية على قليل من المصادر المكتوبة وكثير من الروايات الشفهية . ومن المعروف أن خصوم أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هم أول من أطلق عليهم اسم « الوهابيين » تشويهاً لسمعتهم وتنفيراً عنهم . لكن هذا الاسم أصبح شائعاً لدى كثير من الكتّاب ؛ خاصة الأوربيين . أما أتباع تلك الدعوة فيسمّون أنفسهم المسلمين أو الموحدين . وفي الفترة الأخيرة بدأ بعض الكتّاب يسمّونهم السلفيين.

وكان بوركهارت ممن استعمل اسم « الوهابيين » في كتابته عن أنصار دعوة الشيخ محمد لأن ذلك الاسم هو الشائع في محيطه. وقد أبقي هذا الاسم في الترجمة العربية تمشياً مع النص الأصلي لا استحساناً له أو موافقة على صحة إطلاقه . على أن بوركهارت كان محايداً بدرجة كبيرة في حديثه عن أنصار الدعوة . وفيما أورده عنهم الكثير من المعلومات المفيدة للمهتمين بتاريخهم . ولعلّ في ترجمة ذلك إلى العربية والتعليق على ما هو في حاجة إلى التعليق منه إسهاماً متواضعاً في خدمة تاريخ هذه البلاد .

والله وليّ التوفيق .

عبد الله الصالح العثيمين

مقدمة

وردت في التقارير القليلة التي سبق أن نشرت عن الوهابيين أقوال متناقضة وغير صحيحة . والمعلومات التي جمعتها من أوثق ما توصلت إليه من مصادر في الشرق عن هذه الفرقة الرائعة ستكون ممتعة لكثير من القراء . على أنه من المؤسف أن أبواب الحجاز ، خلال إقامتي فيها ، كانت موصدة أمام النجديين بسبب حربهم مع محمد علي . وهؤلاء أقدر من غيرهم على أعطاء تفصيلات دقيقة وصادقة عن الوهابيين . ذلك أن البدو من الطبقة العامة الذين اتّبعوا العقيدة الجديدة كانوا ، في الغالب ، جاهلين جهلاً تاما بمبادئها ومضمونها الحقيقي .

ويمكن أن يقال باختصار شديد : إن ديانة الوهابيين ديانة محمدية متزمّتة[1] ، وإن حكومتهم حكومة بدوية رئيسها الأكبر هو قائد الأمة السياسي والديني الذي يمارس سلطته بنفس الأسلوب الذي مارسها به خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) تجاه أتباعهم المسلمين . وكان مؤسس تلك الفرقة من المعروفين ؛ إذ هو عالم عربي اسمه عبد الوهاب[2]. زار عدة مدارس في مدن الشرق الرئيسية ، كما هي عادة أهل

---

(١) كثيراً ما عبّر الغربيون عن الدين الإسلامي بالمحمدية . ومعروف أن هذا التعبير غير صحيح .

(٢) الصحيح أن اسمه محمد بن عبد الوهاب . وكان نيبور أول أوربي تكلم عن الشيخ وسمّاه خطأ عبد الوهاب . انظر كتابه

Travels through Arabia and other countries in the East, translated into English by R. Heron , Edinburgh, 1792, vol. II , p . 131 .

ولعل بوركهارت نقل اسم الشيخ عن نيبور . وبما أن اسم الشيخ محمد فقد أورد صحيحاً في الترجمة أينما ذكر.

بلده حتى الآن[1] . وقد قام بدعوته لاقتناعه بما لاحظه خلال أسفاره من أن عقيدة الإسلام[2] الأصيلة قد فسدت وغمرتها المساوىء ، وأن معظم الناس في الشرق ، خاصة الأتراك ، قد أصبحوا ضالين .

على أن الآراء والمبادىء الجديدة أقل قبولاً في الشرق منها في الغرب . ولم يلتفت أحد إلى ابن عبد الوهاب حتى استقرّ ـ بعد كثير من التجوال في جزيرة العرب[3] ـ مع أسرته في الدرعية التي كان الرجل الأوّل فيها محمد بن سعود . وأصبح هذا الأخير أول من آمن به[4] . ثم تزوج ابنته بعد ذلك بقليل[5] . ويجب ألّا يخلط بين هاتين الأسرتين . فمحمد ابن عبد الوهاب ، مؤسس الفرقة الوهابية ، من آل وُهْبة من قبيلة تميم .

---

(١) أول من أشار إلى سفر الشيخ إلى عدة بلدان مهمة في الشرق ، خاصة إلى بلاد فارس ، هو نيبور . انظر كتابه المذكور سابقاً ، ج ٢ ، ص ١٣٢ . والمرجح أن الشيخ لم يسافر إلا إلى الجهات التي ذكرها أقاربه وتلاميذه وهي الحجاز والأحساء والبصرة.

(٢) الأفضل أن يقال : « عقيدة المسلمين » بدلاً من « عقيدة الإسلام ».

(٣) لم يتجوّل الشيخ محمد في جزيرة العرب بين انتقاله من العيينة وبين استقراره في الدرعية ؛ بل اتجه مباشرة من الأولى إلى الثانية .

(٤) من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد لقيت قبولاً لدى بعض النجديين وهو في بلدة حريملاء ، وكان أول من أيّده من أمراء نجد عثمان بن معمّر ، أمير العيينة . لكن زعيم بني خالد ، حاكم الأحساء الذي كان له نفوذ على عثمان ضغط عليه ، فاضطر الشيخ إلى الانتقال من العيينة إلى الدرعية حيث قام معه الأمير محمد بن سعود وأيّده . انظر تفاصيل ذلك في كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب : حياته وفكره** ، لعبد الله العثيمين ، دار العلوم بالرياض ، ١٣٩٩ هـ ، ص ص ٤١ ـ ٥٠ .

(٥) لم تذكر المصادر المقرّبة من الشيخ زواج محمد بن سعود بابنة الشيخ محمد . ومن المعروف أن الشيخ قد تزوج عمة الأمير عثمان بن معمّر ، وأن عبد العزيز بن محمد بن سعود قد تزوج ابنة الأمير عثمان .

ومعظم بني تميم مزارعون في نجد . ومسكنهم الأساسي الحوطة[1] . وهي قرية تبعد عن الدرعية خمسة أيام جنوباً باتجاه وادي الدواسر . وهي مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب[2] . وقسم من بني تميم يسكنون بلدة قفار في منطقة جبلي شمّر . وهم من نسل أسر هربت من الحوطة خوفاً من الثأر . وهناك قسم ثالث من بني تميم يعملون بالزراعة تحت حكم باشا بغداد في القرى الواقعة بين الحلّة ومشهد علي . وبنو تميم معروفون بقاماتهم الشامخة وهاماتهم العريضة ولحاهم الكثّة ؛ وهي صفات تميّزهم عن غيرهم من البدو .

لكن أسرة سعود ، المؤسس السياسي للحكومة الوهابية ، من المصاليخ ، أحد فروع ولد علي . ولذلك فهي من قبيلة عنزة . وعشيرة المصاليخ المسمّاة بمقرن ــ أو مجرن كما ينطقها البدو ــ والتي ينتسب

---

(١) الحوطة ، أو حوطة بني تميم ، ليست المسكن الأساسي للقبيلة ، ولكنها أصبحت موطناً من مواطنها الهامة . وقد لعب أهلها دوراً كبيراً في مقاومة جيش محمد علي الذي كانت قيادته الاسمية لخالد بن سعود ، وذلك سنة ١٢٥٣ هـ.

(٢) لم يولد الشيخ محمد في الحوطة ، وإنما ولد في العيينة . انظر كتاب **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام** ، لحسين بن غنّام ، طبعة أبي بطين ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، ج ١ ص ٢١.

إبيها سعود قد استقرت في الدرعية ، وبسطت نفوذها هناك[1] وقد عرض محمد بن عبد الوهاب نفسه عليها . وكان محمد بن سعود أول من تلقب بالأمير[2] . لكن جيشه كان قليلا حينذاك لدرجة أنه في أول اشتباك له مع عدوه ـ كما يقال ـ لم يكن معه إلا سبعة رجال على ظهور الإبل[3]

وتتبع تاريخ الوهابية ما هو إلا تسجيل لوقائع مشابهة لتلك التي تحدث يومياً في الصحراء ، قبيلة ذات حظ تصل إلى السلطة ، فتحصل

---

(١) المصابيح فخذ من عنزة ، لكنهم لا ينتسبون إليها [illegible] حظ المؤلف [illegible] سعود قبل [illegible] لأنهم كانوا ينتسبون [illegible] مقرن [illegible] سعود ، مقرن بن مرخان [illegible] أمر على هذا [illegible] ، ومنهم المصابيح [illegible] سعود [illegible] سعود القديم .

وكان [illegible] سعود ، مانع المريدي ، قد انتقل سنة ٨٥٠ هـ من [illegible] شرقي جزيرة العرب إلى العارض حيث منحه قريبه ابن درع [illegible] ـ على الأرجح ـ [illegible] مانع وقومه [illegible] تفاصيل ذلك في كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** [illegible] المذكور سابقاً ، ص ٥١ .

(٢) [illegible] محمد بن سعود [illegible] الأمير [illegible] . فقد أشار ابن بشر إلى [illegible] الأمير سنة ١٣٩ هـ ، أي قبل تولي محمد [illegible] عنوان **المجد في تاريخ نجد** ، [illegible] ١٣٥٠ هـ ، ج ٢ ، ص ١٩٩ . [illegible] لم يشر إلى ما يخالف ذلك .

على أن مجد الأسرة السعودية الحقيقي لم يبدأ إلا في عهد الأمير محمد بن سعود إثر [illegible] مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

(٣) [illegible] ابن بشر (المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ص ٢٣ ـ ٢٧) [illegible] في كتاب **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب** ، تحقيق عبد الله العثيمين ، [illegible] الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣ هـ ، ص ص ٤٧ ـ ٤٨ . [illegible] انظر [illegible] هذا الموضوع في كتاب **بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية** لعبد الله العثيمين ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ ، ص ص ٨٦ ـ ٨٨ .

على عمائم، وتبسط نفوذها على جيرانها(١). وبجهود لا تكلّ ولا تني نجح عبد العزيز وابنه سعود، ثم حفيد القائد الأول محمد، في حمل سلاحهم إلى أقصى أركان الجزيرة العربية. وبينما هم يدعون إلى مبادئهم الدينية بسط سيادة حكم مشيختهم مع تثبيت المبادئ التي علّمت العرب أن يعترفوا بقائد روحي وسياسي واحد كما سبق أن فعل أسلافهم عند دعوة الإسلام الأولى. وسأسرد تاريخهم مع أي غير قادر على عصره قبل من التوسع بدقة قبل حملة محمد علي. لكن يبدو من الضروري أن أبدأ بشرح المبادئ التي قامت عليها ديانتهم وحكومتهم.

لم تكن مبادئ محمد بن عبد الوهاب مبادئ ديانة جديدة، بل كانت جهوده موجهة فقط لإصلاح المفاسد التي تفشت بين المسلمين ونشر العقيدة الصافية بين البدو الذين كانوا مسلمين اسماً، لكنهم جهلاء بالدين وغير مبالين بكل فروضه التي أوجبها(٢). وكما هي الحال بالنسبة لكل المصلحين لم يفهم محمد بن عبد الوهاب من قبل أصدقائه ولا من قبل أعدائه(٣). فأعداؤه حينما سمعوا بفرقته الجديدة التي تهاجم انحراف الأتراك وتنصر إلى نبيهم محمد (صلى الله عليه وسلم) بغير

---

(١) مع أن الأسلوب الذي اتبعه قادة الدرعية في غاراتهم لأعدائهم مشابه لأسلوب البدو في الغزو فإنه كان هناك فرق كبير بين الدرعيين من حيث الهدف. لقد كان الغزو بين البدو قبلياً في حين أنه لدى قادة الدرعية قائم على أساس ديني.

(٢) ورد في بعض رسائل الشيخ محمد ما يؤيد ما ذكره المؤلف من أنه كان بين البدو من لا يؤمن بالبعث بعد الموت. انظر روضة الأفكار، ج ١، ص ص ٨١ و ١٤٤.

(٣) أكثر أصدقاء الشيخ محمد قد فهموه فهماً جيداً. لكن من عامة أتباعه من جهل مبادئه بوعي أو... أما أعداؤه فمنهم من فهمه، لكنه حاربه عناداً. ومنهم من جهله فعارضه بناءً على ما أشيع عنه خطأً.

نظرتهم التقديسية اقتنعوا بسهولة أن عقيدة جديدة قد اعتنقت ، وأن الوهابيين لذلك ليسوا مجرد ضالين بل كافرين[1] . وقد تأكد لديهم هذا الاعتقاد أولاً بخداع شريف مكة غالب ، وثانياً بدير الحظر الذي حل بكل الباشوات المحاورين[2] . فقد كان شريف مكة ، أبعدو الـلدود لحكومة الوهابيين ، حريصاً على توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء وبين الامبراطورية التركية . ولذلك نشر بمهارة متواصلة تقرير عن الوهابيين بأنهم كفار ليحبط كل محاولة للتفاوض معهم[3] . ولم يكن باشوات بغداد ودمشق والقاهرة القريبون من البدو المصريين أقل حرصاً منه على إظهار مخططات أعداء المفاسد التركية ، وبالتالي العقيدة التركية ، بأحلك الألوان[4] . وكان على الباشوات أن يقودوا قوافل الحجاج إلى البلاد المقدسة أو يرسلوا معها جيشاً لحمايتها . وقد أصبح من مصلحتهم أن يعظموا الأخطار المحيطة بطريق الحج ليبرئوا ساحتهم من أية كارثة قد

---

(١) ينظر الوهابيون إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، نظرة شرعية تحترمه وتعظمه، ولكنهم لا يصرفون إليه أي نوع من أنواع العبادة

(٢) كانت مبادئ دعوة الشيخ محمد قد وصلت إلى الحجاز قبل أكثر من أربعين سنة من تولي الشريف غالب الحكم . وكانت قد وصلت إلى هناك مشوّهة عن طريق معارضيها في نجد ووقف أشراف الحجاز منها موقفاً عدائياً منذ البداية ، إذ سجنوا أتباعها . ومنعوهم من الحج سنين عديدة . ثم بدأوا يحاربونها عسكرياً منذ سنة ١٢٠٥ هـ . نظر تفاصيل ذلك في كتاب الشيخ **محمد بن عبد الوهاب** ، ص ص ٦٦ – ٦٩

(٣) في عهد الشريف مسعود بن سعيد ، أي قبل تولي الشريف غالب الحكم بأكثر من أربعين سنة أصدر قاضي الشرع بمكة حكماً كفّر فيه الشيخ محمداً وأتباعه . فمنعوا من أداء الحج سنين طويلة

(٤) من الواضح كره المؤلف للأتراك . على أن عقيدة الأتراك لا تختلف عن عقيدة غيرهم من المسلمين . فقد كانت البدع والخرافات منتشرة لديهم ولدى غيرهم على حد سواء

تحدث للقوافل أو يبرروا إيقافهم لها . وهذا ما كانوا يتمنّونه سرّاً ؛ إذ أن معاودة تلك القوافل تكلّف كل الباشوات نفقات ضخمة . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك تقارير كثير من الحجاج الذي ذهبوا عن طريق البحر إلى جدة ومكة ، وعانوا من عطرسة الجنود الوهابيين ، ولم يسمح لهم بأداء الحج أحيانا . وبعد عودتهم إلى بلادهم بالغوا في تصوير ما عانوه . ومن المؤكد أن وصفهم للوهابيين لا يمكن أن يكون محايدا . ولذلك لم يكن غريباً أن أصبح من المعتقد في الشرق عامة أن الوهابيين كانوا يحاولون أن يوجدوا ديانة جديدة تماما ، وأنهم يعاملون الأتراك بقسوة متناهية لأنهم مسلمون ؛ وهو اعتقاد لا ينفيه تصرّف كثير من الوهابيين[1] على أن أصحاب هذا التصرّف من البدو الذين كانوا جهلاء تماماً بالإسلام قبل أن يعرفوا الوهابية ، والذين لا تزال معرفتهم به غير صحيحة . ولذلك فإن المبادئ الجديدة بدت لهم ديانة جديدة ؛ خاصة بعد أن عرفوا عادات الحجاج الأتراك وسكان المدن العرب ومبادئهم المختلفة ، وقارنوها بمبادئهم الخاصة . ولم تسمح لهم روح التعصب ، التي غذّاها رئيسهم بكل ما وسعه ، أن يفرّقوا بين أمور لا يعرفون عنها إلا معرفة غير صحيحة . وهذا يفسر بوضوح كيف حدث أنهم كانوا يتّهمون الأتراك بالكفر ، وأن الأتراك بدورهم كانوا يتّهمونهم بذلك . على أن قليلاً من السوريين الأذكياء الذين قاموا بأداء

---

(1) الدعايات المغرضة ضد هؤلاء ، وبكثيرهم من قِبَل الأشراف وغيرهم من الأمور التي حدثت قبل استيلائهم على الحجاز بأكثر من نصف قرن . لكن هذا الاستيلاء وما ترتّب عليه من أحداث زادا من تصميم الدولة العثمانية على القضاء عليهم.

الحج وجدوا فرصاً للتحدث مع المطعين من الوهابيين ، واقتنعوا – على الأرجح – أن عقيدة البدو كانت هي عقيدة الإسلام[1] . ومع أن آراءهم قد لا تتفق مع آراء الوهابيين في كل النقاط فقد شعروا أنه من غير الإنصاف تسميتهم كفاراً . لكن شهادة مثل هؤلاء ، إن حسروا على أدائها دون تعريض أنفسهم لتهمة سوء إسلامهم ، كانت غير مجدية أمام الصيحة العامة ؛ خاصة بعد سنة ١٨٠٣م حين ردّت قوافل الحج ، وتكوّن رأي عام بأن الوهابيين كانوا أعداء لدودين للديانة الإسلامية[2] .

وقد كتب روسو عن الوهابيين رسالتين قصيرتين في بغداد وحلب حوالى سنة ١٨٠٨م[3] ، وأكد أنهم أتوا بديانة جديدة، وأنهم مع اعترافهم بالقرآن قد أبطلوا الحج إلى مكة كلية . ومن المؤكد أن ذلك كان هو الرأي السائد حينذاك في حلب لكن بما كان من السهل

---

(١) يظهر المؤلف ، أحياناً ، الوهابيين وكأنهم بدو فقط ويتجاهل أن عماد دعوة الشيخ محمد كان حاضرة نجد ؛ خاصة في مرحلة الأولى من قيام الدولة التي قامت على دعوته
(٢) كان منع سعود بن عبد العزيز قوافل الحج من الذهاب إلى مكة موجهاً فقط ضد ما شاهده من بدع محملة بما كان يراه من لحن ديني وسياسي ، كما سيتضح فيما بعد
(٣) ذكر المؤلف في الهامش أن رسالتين بهذا الصدد هما

A – The Description of the Pashalik of Baghdad.

B – A memoire in the «Mines de l'Orient»

وقد نشر الأول، وهو وصف باشوية بغداد، في باريس سنة ١٨٠٩ م
أما الثاني فعنه

Memoire sur les trois plus fameuse sects du Musulmanisme · Les Wahabis, les Nosairis et les Ismaelis.

أي ما ترجمته مذكرات عن أشهر الفرق الإسلامية الثلاث الوهابيين والنصيريين والإسماعيليين بعد طبع في باريس سنة ١٨٠٨ م .

الحصول على معلومات أكثر صحة من الحجاج الأذكياء ومن البدو في تلك المدينة ذاتها . ومن المدهش حقاً أن ذلك لم يحدث . وقد اعترف رومو أنه يعطي وصف للوهابيين استقى جزءاً من مادته من إمام مسجد قصر سعود سمحت إلى وجود رجل كهذا الرجل في بلاط الدرعية ؛ وهو أمر ليس في مقدوري تكوين فكرة دقيقة عنه .

وبعد أن وطّد جيش محمد علي مكانته في الحجاز ، وبعد مكائد الشريف غالب ذات جدوى . وبدأت الاتصالات المباشرة مع زعماء الوهابيين وقادتهم الصغار . وعادت قوافل الحج تسير في طرقها القديمة ، عرفت حقيقة الوهابيين أحسن من ذي قبل حتى في الأنحاء البعيدة من المناطق التركية . ومن المرجح أن الاحترام الذي عبّر عنه أهل مكة تجاه حكمهم القصير قد أثّر بمعظمه على كل حاج استفسر عن تلك الفرقة الجديدة .

ويعد هذا الأمر دليلاً آخر على أن الوهابيين مسلمون محافظون وأن كتبهم توضح ذلك . فحينما استولى سعود على مكة وزّع نسخاً من تلك الكتب على السكان[1] . وأمر أن يحفظها التلاميذ في المدارس العامة . وليس فيما احتوته إلا ما لابد لكل تركي من أن يعترف بأنه الحق وكانت لدى سعود فكرة سيئة مؤدّاها أن سكان تلك المدينة نشأوا على جهل تام بدينهم . ولذلك رغب في أن يعلمهم أصوله الأولى . وعلى أية

---

(١) الكتاب الذي وزّعه سعود على أهل مكة بعد دخوله إليها هو رسالة **الأصول الثلاثة** ، وهي معرفة العبد ربه ودينه ونبيّه محمداً ، صلى الله عليه وسلم. وهذه الرسالة من تأليف الشيخ محمد المطبوعة مرات عديدة . وقد أورد بوركهارت ترجمة لها جعلها من بين ملاحق كتابه هذا.

حال فإنه لم يكن في تلك الكتب ما لم يعرفه المكيون من قبل . وحين وجد سعود أنهم أعلم بذلك من أتباعه توقف عن توبيخهم عليهم .

ومبادئ الوهابيين الأساسية ، كما سيتضح فيما بعد ، تتفق مع تلك التي تدرس في المناطق الأخرى من الامبراطورية الإسلامية . فالقرآن والسنة لديهم مصدران أساسيان مشتملان على كل الأحكام . وآراء المفسرين الأجلاء للقرآن محترمة بالرغم من أنها ليست متبعة على إطلاقها . وفي محاولة لإصلاح الأعمال الأصيلة والمعتقدات الصافية للمؤسس الأول للإسلام وأتباعه الأوائل ، كما هو ثابت في تلك الأحكام ، كان لابد لهم من مواجهة عدد من الآراء الخاطئة والمفاسد التي طرأت على الإسلام كما يدرّس الآن ، ولابد لهم ، أيضاً ، من الإشارة إلى الحالات الكثيرة التي يتصرّف بها الأتراك على نقيض مباشر مع المبادئ التي يعترف هؤلاء أنفسهم بأنها أساسية . وليست لديّ معرفة كافية بأوجه الخلاف لأعطي القارئ تفصيلات وافية في هذا المجال . ولذلك فإني سأقتصر على ذكر قليل من الأمثلة التي تعدّ نقاطاً رئيسية للخلاف بين الفريقين .

يلوم الوهابيون الأتراك بأنهم يطرون النبي (صلى الله عليه وسلم) بطريقة تقرب من التقديس . وكذلك يعملون بالنسبة لكثير من الأولياء وفي هذا لا يبدو أن الوهابيين مخطئون كثيراً . فالأتراك ، الذين يعترفون بأن القرآن كتابهم المنزّل ، يجب أن يعتقدوا اعتقاداً كاملاً بالآيات الكثيرة التي أوضحت بجلاء أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) بشر مثلهم . لكن حبّهم الشديد لنبيّهم لم يكن ليحدّ بذلك التوضيح

السيط . فقد برهن علماؤهم بمهارة متكلّفة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) مع أنه ميت ومدفون لم يكن مثل بقية الشهداء ؛ بل لايزال حياً ، وأن اتّصاله بالله وحبّ الله العزيز له ، قد جعلا من السهل عليه أن يحمي أي مؤمن من أتباعه أو يتوسط له . ومع أن الأتراك لا يدعون أبداً نبيّهم دعاء خاصاً إلا أنهم يذكرون اسمه كما لو كانوا يدعونه بنفس الطريقة التي يقول بها : « يا رب » . وهذا كاف ليلحق بهم لوم الوهابيين الشديد . وبالإضافة إلى ذلك فإن الأتراك يزورون قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفس التقديس الذي يظهرونه للكعبة . وحينما يقفون أمامه يرفعون دعواتهم المنكرة ، كما يسميها الوهابيون ، لدرجة أنهم يستحقون التسمية المشينة للكفار الذين يشركون مع الله إلهاً آخر .

وكثير من المشائخ أو الأولياء يحظون بتوقير مشابه لما ذكر وإن كان بدرجة أقلّ. ففي كل مدينة تركية يوجد كثير من الأضرحة وفي كل قرية تقريباً هنالك ضريح ، على الأقل ، لوليّ مشهور كانت حياته النموذجية القائمة على الدهاء العظيم ، أو النفاق ، أو العلم الغزير ، قد حققت له شهرة القداسة . وقد ظن مواطنوهم أن من الواجب عليهم أن يقدّسوا ذكراهم بإقامة بنايات صغيرة على شكل قباب أو سقوف ذات أقواس فوق قبورهم . وفي هذه الأمكنة يصلّون لله معتقدين أن الوليّ سيكون أكثر استجابة للشفاعة لهم عند الله . والواقع أن الأولياء المسلمين يعامَلون كما يعامل القدّيسون في الكنيسة الكاثوليكية ، ويقال إن لهم معجزات كما لهؤلاء . والناس في الشرق يتعلّقون كثيراً بمشائخهم . وفي كل مدينة وقرية يقام احتفال سنوي في يوم معيّن لتكريم سيّدها الخاص .

أما الوهابيون فيقولون إن كل الناس سواء عند الله بل إن أعظم الأتقياء لا يشفع لأحد عنده ، وبالتالي فإن من المعصية دعاء الأولياء الأموات أو تكريم رفاتهم أكثر من الناس الآخرين[1] . وأينما حمل الوهابيون سلاحهم هدموا كل القباب والأضرحة المزخرفة ؛ مما نتج عنه إشعال حماس مريديهم وتكوين علامة فارقة بينهم وبين خصومهم . وهذا ما كان دائماً سياسة كل مؤسس فرقة ، وما كان ضرورياً بالنسبة لعامة الناس من الوهابيين الذين لم يكن في استطاعتهم الحكم بدقة على مسائل الخلاف الأخرى .

وأصبح تهديم قباب الأولياء وأضرحتهم العمل المفضل لدى الوهابيين . فكان دمث دائماً أول نتيجة لانتصاراتهم في الحجاز ونجد وسوريا وبلاد الرافدين . وبما أن كثيراً من القباب تشكل سقوف المساجد فقد اتهموا بتهديم تلك المساجد أيضاً[2] . ولم تبق في مكة قبة واحدة غير مهدّمة على قبر أي عربي مشهور بل لقد هدمت تلك التي كانت فوق مكان مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) وحفيديه الحسن والحسين

(١) لا ينكر الشيخ محمد وأتباعه الشفاعة بل يثبتونها على كونها معلقة بما ورد في الكتاب والسنة وذلك بأن تطلب أساساً من الله ، وأن يشترط فيها أمران إذن الله للشافع بالشفاعة ، ورضاه عن المشفوع له . وهم ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن مرتبته أعلى مرتبة المخلوقين ، وأنه حيّ في قبره حياة برزخية أتم من حياة الشهداء المنصوص عليها في القرآن الكريم . وللمزيد من التفصيلات عن هذين الموضوعين انظر كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ، ص ص ١١٢ ـ ١١٤ .

(٢) الواقع أن الشيخ محمداً وأتباعه كانوا يهدمون المساجد المقامة أصلاً على القبور . من ذلك هدم الشيخ لمسجد أقيم على قبور يعتقد كثير من الناس أنها قبور شهداء من صحابة قتلوا في حروب الردة . انظر **روضة الأفكار** ، ج ١ ، ص ٣٠ .

وعمه أبي طالب وزوجته خديجة(١). وكان الوهابيون يقولون وهم يهدمونها: «رحم الله من هدمها لا من بناها». وكان طبيعياً أن يعتقد الأتراك الذين سمعوا ذلك أنهم قاموا بما قاموا به لاحتقارهم لأولئك الذين يجب تكريمهم وإنكارهم ولايتهم. بل إن القبة الكبرى التي على قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) في المدينة كان مخصصاً أن تلقى مصيراً مثل مصير تلك القباب. فقد أمر سعود بهدمها. لكن بناءها القوي تحدى جهود جنوده العنيفة(٢). وبعد أن مات عدد منهم بسقوطهم منها وقفت المحاولة. وقد قال سكان المدينة: إن هذا كان تدخلاً من السماء أو معجزة من الله.

وكان إهمال كثير من الأتراك لأحكام الدين سوى ما يتعلق بالصلاة والصيام والصوم موضوعاً آخر ندد به مؤسس الوهابية. وكان يتبع الزكاة بمقدرة كما وضح في الدين - واتباع أحكام الصدقة التي سنّها محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعدالة القضاء التي امتاز بها الخلفاء الأوائل، والروح الصارمة التي أوجبت الشريعة أن تكون موجهة دائماً ضد أعداء العقيدة من الكافرين، والامتناع عن كل ما يسكر، وعن الاتصال الحسي غير الشرعي بالنساء، وعن الأعمال المضادة للفطرة، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة من الأمور التي لم يكتف الأتراك المحدثون

---

(١) من المعروف أن [illegible] رضي الله عنهم [illegible] في مكة [illegible] في المدينة معروف [illegible] عم النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] أبو طالب على قبره قبة، فهو أحد أشراف مكة. وقد توفي سنة ١٠٢١ هـ.

(٢) لا تذكر المصادر القريبة من سعود أنه حاول هدم القبة المقامة على القبر النبوي الشريف.

بإهمالها ؛ بل عارضوها صراحة دون رادع . وكانت التصرفات المخزية لكثير من الحجاج الذين يملأون المدينتين المقدستين بشهواتهم المشينة ، والرخص المفتوحة التي يمنحها رؤساء القوافل للفسق ، وكل الرذائل التي تسير في ركب الغرور والأنانية ، وأعمال الغدر والفساد الكثيرة التي يرتكبها الأتراك ، من الأمور التي يعدّها الوهابيون نماذج لشخصية العامة للمسلمين الذين لم يتّبعوا دعوة الإصلاح[1] . وبالإضافة إلى ذلك فإنها تمثّل معارضة محزنة لطهارة الأخلاق والعادات التي يتطلّعون إليها ، وللتواضع الذي يجب على الحاج أن يقترب به من الكعبة المشرّفة . ولشدة حماس محمد بن عبد الوهاب لمبادئ الدين الأصيلة ، ونقمته الصائبة على ما رآه من إفساد المسلمين المعاصرين لتلك المبادئ ، وربما لشعوره بأنه يعامل بازدراء واحتقار في المدن التركية عند مهاجمته الفساد ، نادى برغبته في أن يعيد أتباعه إلى الوضع الديني أخلاقاً وعادات كما فهمه من أفضل كتب عقائد أمّته وتاريخها ، وكما ساد حين ظهر الإسلام في جزيرة العرب . وبما أن أحكام هذا الدين كانت قد وضعت بوضوح للبدو فإن مصلحاً واحداً من السهل تبنّيها مثل هؤلاء الناس[2] . ولذلك أظهر كيف أن يصحّ الأحباش أو الأتراك لا يقتبل من

---

(١) إذا كان ما قاله المؤلف عن الأتراك صحيحاً فقد ورد ، أيضاً ، في إحدى رسائل الشيخ محمد أن أشراف مكة في ذلك الوقت كانوا يرتكبون أعمال الفسوق في أثناء موسم الحج . انظر **مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٣٩٨ هـ ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

(٢) من المعروف أن أحكام الدين الإسلامي ليست مقصورة على البدو أو على العرب كما **يدّعي بعض** المستشرقين المغرضين ، بل هي لجميع البشر من كل جنس ولون .

عاداتهم الشمالية محاصة من أجل روح الإسلام الحقيقية . ولا يوجد في
نظام وهابي أي مبدأ أخلاقي جديد . فقد اتخذ محمد بن عبد الوهاب
القرآن والسنة دينه التوحيد . والاختلاف بين فرقته وبين الأتراك السنة . مهما
قيل عنه . هو أن الوهابيين يشعرون بدقة بعض الأحكام التي أهملها الآخرون
أو يوقفوا عن مراعاتها كلية . ولهذا فإن وصف الديانة الوهابية ما هو إلا
تلخيص للعقيدة الإسلامية . ولإيضاح النقص التي تختلف فيها هذه
الفرقة عن الأتراك لابد من إعطاء قائمة بكل المفاسد التي يدان بها هؤلاء
الآخرون. ويؤيد هذا القول بقوة رأي علماء أجلاء من القاهرة . ففي
خريف عام ١٨١٥ م أرسل الزعيم الوهابي مندوبين إلى هذه المدينة
أحدهم عالم وهابي جليل[1] وقد طلب محمد علي باشا منهما أن
يشرح عقيدتهم لعلماء القاهرة الكبار فتقابل العالم الوهابي معهم عدة
مرات ، وأخيراً فقد تفوق عليهم لأنه كان يبرهن على كل مسألة عن
ظهر قلب بآية من القرآن أو حديث من السنة ، وهما مما لا يمكن رده
بطبيعة الحال . فأعلن أولئك العلماء أنهم لم يجدوا أية بدع لدى
الوهابيين . وبما أن هذا الإقرار قد صدر من العلماء المذكورين فإنه لا
يرقى إليه أدنى شك . وقد وصل إلى القاهرة ، أيضاً ، كتاب يشتمل على
رسائل مختلفة عن موضوعات دينية كتبها محمد بن عبد الوهاب

(١) العالم الجليل المشار إليه هو عبد العزيز بن حمد بن إبراهيم من آل مشرف وهو ابن بنت الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد حوالي سنة ١١٩ هـ وكان قاضياً في الدرعية وآخر عمل له تولي القضاء في بلدة سوق الشيوخ العراقية حيث توفي بعد سنة ١٢٤٠ هـ . انظر ترجمته في كتاب علماء نجد خلال ستة قرون ، عبد الله البسام ، مكتبة النهضة الحديثة بمكة ، ١٣٩٨ هـ ، ج ٢ ، ص ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

نفسه . وقرأ كثير من العلماء ذلك الكتاب ، فأقروا بالإجماع أنه إذا كانت هذه هي عقيدة الوهابيين فإنهم أنفسهم يؤمنون بتلك العقيدة .

ولأن العامة من المتحمسين في أية فرقة جديدة يندر أن يتشبعوا بروح مؤسسها الحقيقية فقد حدث أن كثيراً من أتباع ابن عبد الوهاب عدّوا أموراً ثانوية من الأمور الأساسية في العقيدة . وهذا ما جعل أعداءهم يكوّنون فكرة خاطئة عنهم يفترضون أنه ديانة جديدة . وقد انصب هجوم الوهابيين الشديد ـ بعد حربهم للأولياء[1] ـ بصفة رئيسية على الملابس وتدخين التبغ . فملابس الأتراك الأغنياء لا تتفق إلا قليلا مع تعاليم السنة التي تحرم لبس الحرير والذهب ، كما تحرم لبس الفضة إلا بكمية قليلة[2] وقد نظر الوهابيون إلى أثواب الأتراك المزركشة بازدراء . ولأنهم علموا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد لبس عباءة مثلهم ، وجدوا الملابس الفخمة عملا من الضروري أن يتبعوا طريقته في اللبس كتابعين لمبادئه الأخلاقية وكان يمكن معرفة الوهابيين في جزيرة العرب فوراً بملابسهم فالعربي الذي لم يعتنق دعوتهم من المؤكد أن يكون جزء من ملابسه من الحرير ، إما أن يحتمي به العطاء الذي يلفه على رأسه ، أو يطرّز به بردته

---

(١) لم يحارب الوهابيون الأولياء ، ولم ينكروا كراماتهم ولكنهم حاربوا وأنكروا صرف أي نوع من أنواع العبادة لهم . انظر تفصيل ذلك في كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ص ص ١١٣ ـ ١١٤

(٢) الحرير والذهب محرم لبسهما على الرجال أما الفضة فالأصل في استعمالها الحل

أما تدخين التبغ فمن المعروف أن كثيراً من العلماء الأتراك قد ذكروا مراراً في كتاباتهم أنه عمل محرّم. وهو مكروه في المذهب المالكي، أحد المذاهب السنّية الأربعة. وكثير من العلماء في كل جزء من تركيا يمتنعون عن تدخينه على أساس ديني. وقد رغب الزعيم الوهابي، أيضاً، في أن يمنع تدخين النباتات المسكرة المستعملة كثيراً في الشرق معارضة دينية للقرآن. لكنه لم يستطع أن ينجح في هذا الأمر تماماً. ولابد أن ابن عبد الوهاب كان يعلم، في الوقت نفسه، أن أتباعه في تضحيتهم الكبيرة بامتناعهم عن التدخين سيصبحون، بطبيعة الحال، أشد الأعداء لكل أولئك الذين لازالوا منغمسين في ذلك الترف، ولم يعتنقوا دعوته بعد. وكان تحريم التدخين إحدى الوسائل الرئيسية لإثارة أذهان الوهابيين ضد الأتراك. فقد أصبح كلمة لأمة شمل المعتنقين الجدد للدعوة. لكنه ظل أصعب شيء على نفوس العرب من بين كل المبادئ التي نادى بها المصلح. وقد حرّم الوهابيون الدعاء بالمسبحة؛ وهو أمر شائع لدى المسلمين مع أن الشرع لم ينص عليه، ومنعوا استعماله[2]. ويقال، أيضاً، إنهم حرّموا شرب القهوة، ولكن ذلك غير صحيح، إذ أنهم دائماً يشربونها بقدر كبير.

---

(١) حرّم أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب تدخين التبغ على أساسين أحدهما أنه يسكر، خصوصاً إذا دخّن بعد فترة طويلة من الامتناع عن تدخينه، وثانيهما أنه يسبب رائحة خبيثة والخبائث محرّمة بنص القرآن الكريم. انظر **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية**، القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ج ١، ص ٦٥٢.

(٢) يرى أتباع الشيخ محمد أن التسبيح باليد أفضل لأنه الوارد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ولأنه أكثر حضوراً للنفس.

ومن المشكوك فيه ما إذا كانت لدى ابن عبد الوهاب حين دعا إلى الإصلاح في الدرعية أية فكرة في إنشاء حكم جديد يستظل بظلّه أتباعه من جزيرة العرب[1] . فقوة أسرته وأسر أقاربه لم تكن تمكنه من اتخاذ تلك الخطوة التي يبدو أنها لم تنجح إلا في عهد عبد العزيز ابن محمد بن سعود . ولا ينكر أنه كان لابن عبد الوهاب فضل كبير على العرب بدعوتهم إلى مبادئه الجديدة ، كما لا يمكن أن يقال : إن شكل الحكومة التي قامت على أساس دعوته غير مفيد لمصالح الأمة العربية جميعها ورفاهيتها . أما أن العقيدة السائدة والتي يقال : إنها محافظة هي الديانة المحمدية الصحيحة أم الوهابية فأمر غير مهمّ . لكنه أصبح مهمّاً أن يُقضى على الشرك الذي انتشر في كل جزيرة العرب وفي جزء كبير من تركيا ، والذي ترك أثراً أكثر ضرراً على أخلاق الأمة من الاعتراف المحدّد بديانة خاطئة[2] . ولهذا فإن فضيلة الوهابيين ليست أنهم طهّروا الديانة الموجودة ، لكن لأنهم جعلوا العرب يزاولون بدقة الأخلاق الإيجابية لدين واحد . ذلك أنه بالرغم من أن البدو في كل زمان عبدوا الله بإخلاص فإن المبادئ الإلهية وحدها لم يكن من المعتقد أن تكفي لتعليم أمة جافة طبيعة المراس مزاولة الفضيلة والعدل.

(١) يبدو أن الشيخ محمداً كان يرى في بداية الأمر أن منطقة نجد هي مقر الدولة التي ستقوم على أساس دعوته . ذلك أنه حين قابل الأمير عثمان بن معمّر ، أمير العيينة ، قال له : « إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله وتملك نجداً وأعرابها » . وحين قابل الأمير محمد بن سعود بعد انتقاله إلى الدرعية قال له قولاً مشابهاً لذلك . انظر عنوان المجد، ج ١ ، ص ص ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

(٢) هكذا وردت العبارة . ولعل بوركهارت قصد أن يقول : إن الأثر الذي تركه انتشار الشرك أكثر ضرراً من مخالفة ما جاء به الشيخ محمد من أمور خاطئة في نظر خصومه.

ولقد دفعت رغبة ابن عبد الوهاب وحلفائه في إعادة العرب إلى الحالة التي كانوا عليها عند ظهور مؤسس ديانتهم إلى تغيير وضعهم السياسي بمجرد أن رأوا أتباعهم في ازدياد . وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه القادة السياسيين والدينيين لأمتهم . وتوضح كتب الفقه الإسلامي في كل صفحة من صفحاتها كيف أنه من الضروري وجود زعيم أعلى في الشؤون الدينية والدنيوية . وكانت نجد ، التي أصبحت المركز الرئيسي للقوة الوهابية ، مقسمة إلى عدد من المناطق والبلدان والقرى الصغيرة المستقل بعضها عن البعض الآخر . وكان في حالة حرب مستمرة . ولم يكن يعترف فيها إلا بقانون القويّ سواء في البادية أو داخل أسوار البلدان . وكان الأمان الشخصي دائماً لا يتحقق إلا على حساب الملكية الفردية . وبالإضافة إلى ذلك كانت الحرية غير المحدودة للقبائل البدوية ، وحروبها التي لا تنتهي ، وغزواتها ذات السلب والنهب ، قد جعلت نجداً وما حولها مسرحاً للفوضى الدائمة وسفك الدماء . ولم يبسط عبد العزيز بن محمد ديانته على كل نجد إلا بعد كثير من الصراع الشديد . ولأنه لم يعد زعيم قبيلة ؛ بل رئيس منطقة ، تولّى السلطة العليا ، وجعل حكمه مشابهاً لذلك الذي زاوله الأوائل من أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقد رأى عبد العزيز من العبث أن يحاول استرقاق بني جلدته .

---

(١) لم يكن "الأمراء" من أسرة عبد العزيز بن محمد ، الذين حكموا قبله ، زعماء قبيلة ؛ بل كانوا أمراء لمدينة . وحين توسع حكمهم بعد اتفاقهم مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أصبحوا أمراء لمنطقة ثم لمناطق متعددة . فآل سعود في الدرعية قبل عبد العزيز وبعده كانوا أمراء حاضرة .

ولذلك تركهم يعمون بحريتهم . لكنه أجبرهم على أن يعيشوا بسلام ، وأن يحترموا الملكيات الخاصة ، ويطيعوا قرارات النظام .

وهكذا أصبح الزعيم الوهابي بمرور الوقت حاكماً للجزء الأكبر من جزيرة العرب . وكانت حكومته حرّة لأنها قائمة على نظام بدوي ديمقراطي . فكان رئيس كل مشائخ القبائل التي يدير سياستها الخاصة بينما بقي كل العرب مستقلين أحراراً داخل قبائلهم باستثناء أنهم الآن أجبروا على مراعاة النظام بدقة كاملة ، وأصبحوا عرضة للعقوبة إذا خرقوه ولم يكن لعربي في الماضي يعترف بأي حكم غير إرادته الخاصة . لكن الزعيم الوهابي أجبره على أن يخضع لأحكام الإسلامية القديمة . وقد ألزمته هذه الأحكام أن يدفع العشر أو الضريبة إلى الحاكم[1] ، ويلتحق بقوته في كل غزوة ضد المبتدعة أو الكافرين . ولم يعد مسموحاً له أن يتحكم إلى السلاح في خلاف بينه وبين جيرانه ؛ بل حددت له محكمة تنظر في جميع القضايا . وهكذا كانت الأهداف الرئيسية لزعماء الوهابيين هي الضريبة (الزكاة) ، والتوحيد ، والسلام الداخلي ، وإدارة العدل الصارمة .

وقد نجحوا تماماً في تنفيذ تلك الأمور ، وبدا أنها كانت قد ثبتت قبل أن تضعف قوتهم جهود محمد علي وأمواله أكثر من بسالة جيشه ، وتعيدهم إلى الحالة التي كانوا عليها قبل سنوات مضت . وسوف أدخل الآن في مزيد من التفصيلات الخاصة بهذه الحكومة العجيبة ؛ وهي

(١) يقصد بذلك الزكاة . ومعلوم أن ضريبة البدو ، عادة ، هي الماشية . وأن نصاب الزكاة فيها يختلف باختلاف أنواعها

تفصيلات بنيت على أصح الروايات التي استطعت الحصول عليها من كثير من الثقة في التحري



شخصية سعود وأسرته

كان سعود ، الداعية الأكبر للتعاليم الجديدة ، أكبر أبناء عبد العزيز الذي اغتيل سنة ١٨٠٣ م . وأمه ابنة محمد بن عبد الوهاب التي أنجبت بالإضافة إليه ابنين هما عبد الرحمن وعبد الله[١] . وقد توفي سعود في الدرعية بالحمّى عام ١٨١٤ م عن عمر يتراوح بين خمس وأربعين وخمسين سنة[٢] . وربما عزي إلى موته سوء الحظ الذي حل بقومه بعد ذلك بقليل . ويقال إنه كان وسيما جدا يتصف بذلك الجمال الحميل الذي تمتاز به أسرته. وكانت لحيته أطول مما يشاهد بين البدو بصفة عامة ، كما كان الشعر الذي حول فمه كثيرا بدرجة أن اسمه بين أهل الدرعية « أبو شوارب » .

---

(١) أم سعود ليست ابنة للشيخ محمد بن عبد الوهاب . وقد ورد في طبعة وزارة المعارف الأولى لعنوان **المجد** (ج ١ ، ص ٣٠) أن أم سعود هي بنت الأمير عثمان بن معمر . وابن بشر أكثر معرفة من المؤلف بالشيخ محمد وآل سعود . ونص كلامه هو الصحيح
وكان لسعود أخوان . أحدهما عبد الله وقد توفي قبل سقوط الدرعية بأيام ، وذلك سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) . أما الثاني **فعمر** وقد حبس مع أولاده إلى مصر سنة (١٢٣٦ هـ ، وتوفي هناك . انظر كتاب **آل سعود** ، تحقيق عبد الرحمن آل الشيخ، ص ص ١٣ — ١٤
ولم يكن لسعود أخ اسمه عبد الرحمن .

(٢) ولد سعود سنة ١١٦١ هـ ، وتوفي سنة ١٢٢٩ هـ . وبذلك كان عمره ثمانية وستين عاما حسب التاريخ الهجري . انظر **عنوان المجد** ، طبعة وزارة المعارف الأولى ، ١٣٨٧ هـ ، ج ١ ، ص ص ٣٠ و ١٧٤ .

ويمدح كل العرب ، بمن فيهم الأعداء ، سعوداً بحكمته في التخطيط ، ومهارته في حل المشكلات . وكان عالماً بالشرع الإسلامي ، صارماً في العدل[1] . ومع أن كثيراً من الزعماء قد شعر من ذلك إلا أنه جعله محبوباً لدى غالبية العامة من عربه . ومنذ بداية عهده لم يحارب شخصياً في معركة ، لكنه كان دائماً يوجّه جيشه من منطقة بعيدة نوعاً ما في المؤخرة ويقول العرب : إنه حارب مرة في معركة إلى جانب أبيه عبد العزيز وعمره اثنتا عشرة سنة[2] .

ولسعود من زوجته الأولى المتوفاة ثمانية أبناء أكبرهم عبد الله الذي حلّ الحرمة الثانية في السلطة خلال حياة والده ، والذي جمعه في تولي السلطة لعيب بعد وفاته ويقال . إن عبد الله قد استطاع أن يعدو بمهرته وعمره خمس سنوات ، وإنه أبرز في الشجاعة من أبيه ؛ إذ كان من عادته دائماً أن يقاتل شخصياً في كل مكان وكان مشهوراً في عهد أبيه بأن صفاته العكرية من الدرجة الأولى . كما كان يعدّ أعجوبة في الحكمة والعقل . لكن الإجراءات التي اتخذها في مقاومة محمد علي ترهن – فيما يبدو – على أنه لم يكن به من القدرات مثل تلك التي كانت لأبيه . وهو مقدّر في الصحراء على أساس كرمه وأخلاقه الاجتماعية وقد تزوج امرأة من عرب رغب في منطقة الأحساء .

---

(١) انظر عن عبد سعود وسيرته في ذلك عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ٢٢٨ – ٢٣٣

(٢) كانت أول غزوة غزاها سعود مع هذلول بن فيصل عام ١١٨١ هـ . انظر المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٥ وإذا كان هذا هو الصحيح فإن عمره عندما غزا أول مرة كان عشرين سنة . وفي عام ١١٨٢ هـ غزا بلده رغبي وهذه أول مرة يقود فيها الجيوش . انظر المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٦

أما إخوة عبد الله بن سعود فأشهرهم بين العرب فيصل الذي عرف بأنه أوسم وألطف رجل في الدرعية ، ويحبّه العرب جداً . وقد خاض كثيراً من المعارك في الحجاز صد الجنود الأتراك[1] .

وكان أخوه ناصر الابن المفضّل لدى أبيه سعود . وقد قتل في غزوة ضد مسقط[2] . وغالباً ما قاد تركي بن سعود فيالق خاطفة من الوهابيين داخل العراق وصوب سوريا[3] . ولسعود من زوجته الثالثة ثلاثة أبناء هم عمر وإبراهيم وفهيد[4] .

ولم يسمح سعود أبداً لأبنائه أن يمارسوا أي نفوذ في الشؤون العامة باستثناء عبد الله الذي كان يشترك في كل حططه ، لكنه كان يحبّهم جداً ولا زال سكان مكة يرددون بسرور كيف كان سعود ذات مرة جالساً وقت الحج تحت باب الكعبة في حين كان أتباعه يكسونها

---

(١) قتل فيصل بن سعود في أثناء حصار الدرعية سنة ١٢٣٣ هـ . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) ذهب ناصر بن سعود مع أخويه تركي وسعد إلى جهات عمان سنة ١٢٢٥ هـ دون إذن أبيهم الذي كان يؤدي الحج حينذاك . فغضب عليهم ، وأعادهم من هناك وبعد قدومهم إلى الدرعية مرض ناصر ، واستمر به المرض شهرين ، ثم مات دون أن يعوده أبوه ؛ وذلك لمخالفته لأوامره انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٣) كان تركي بن سعود ممن دافع دفاعاً مجيداً عن الدرعية وقد توفي مريضاً قرب نهاية حصار تلك المدينة . انظر المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٤) أما إبراهيم فقتل في أثناء حصار الدرعية انظر المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها وأما فهيد فاسمه الصحيح فهد لكن النجديين ، بصفة خاصة ، كثيراً ما صغّروا الأسماء ولعل بوركهارت سمع الاسم مصغّراً ، فأورده كما سمعه وكان فهد وعمر ممن نقلهم إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٢٣٤ هـ والذين لم يذكر بوركهارت أسماءهم ، هنا ، من أبناء سعود هم مشاري وسعد وعبد الرحمن وحسن وخالد انظر آل سعود ، ص ص ١٦ ـ ١٧

بكساء جديد وجموع الحجاج الغفيرة يطوفون حولها . وفي تلك اللحظة اقتربت زوجة ابنه فهيد تحمل أحد أطفاله الصغار . وكانت قد وصلت لتوّها إلى مكة لأداء الحج ، فاتجهت إلى سعود مسرعة كي تريه الطفل الذي لم يسبق أن رآه . وأخذه منها ، فقبّله بودّ وحنان . وبحضور كل الحجاج المحيطين به ضمّه إلى صدره برهة غير قصيرة

وكان لدى سعود بالإضافة إلى زوجاته عدد من الجواري الحبشيات كما هي عادة كبار النجديين . وهو يسكن مع أسرته كلها في قصر كبير بناه أبوه على منحدر الجبل فوق مدينة الدرعية بقليل . ويكل واحد من أبنائه وأسرهم وإخوته سلسلة من المساكن المنفصلة في ذلك القصر [1] . ويقال إنه كانت لديه غيرة من إخوته ؛ إذ لم يعيّنهم أبداً بأية وظيفة مهمة ، كما لم يأذن لهم بمغادرة الدرعية . وهو يحفظ ثرواته في قصره . ويستقبل فيه كل الذين يأتون إلى الدرعية لقضاء بعض الأعمال . وهناك يسكن الأمراء الكبار أو رؤساء القبائل المهمة ، ويستضيفهم عند وصولهم في حين يسكن من هم دونهم مرتبة مع معارفهم في المدينة . لكن إذا كان هؤلاء قد أتوا إلى الدرعية لغرض ما فإنهم قد يتناولون العشاء أو القهوة في قصر الزعيم ، ويأخذون منه يومياً طعاماً لخيلهم وإبلهم مجاناً . ومن السهل الاعتقاد بأن القصر كان دائماً مليئاً بالضيوف .

وكان من اليسير دخول أي إنسان إلى سعود ، لكن كان من الصعب الحصول على مقابلة شخصية معه دون رغبته الخاصة . وكان

(١) المعروف أنه كان لكل من أخوي سعود قصره الخاص

لديه عدد من البوابين المصريين الذين يدخلون الناس برشوة إلى المساكن الداخلية خلال ساعات غير عادية . وكانت أضمن طريقة للدخول عليه أن تنتظر أمام المسكن الداخلي حتى يمرّ أحد الرؤساء فتدخل مع مرافقيه . وكانت مجالسه العامة في الصباح الباكر ، وبين الساعة الثالثة والسادسة عصراً ، وفي المساء . ومن عادته أن يجمع بعد العشاء في الغرفة الكبيرة من القصر كل أبنائه الذين في الدرعية . ومن رغب في مقابلته انضم إلى هذه الدائرة الأسرية وحينئذ يقرأ أحد العلماء صفحات من القرآن أو الحديث ، ويشرح النص طبقاً لتفسيرات أحسن المفسرين وبعد ذلك يلقي علماء آخرون محاضرات بالطريقة نفسها . ثم ينهي سعود اللقاء ، عادة ، بتناول الكتاب وشرح كل فقرة صعبة منه . ويقال : إنه يضاهي – وربما يفوق – أي عالم في معرفته بالحديث الديني والفقه بصفة عامة وكان لإعجاب بفصاحته من الأمور المتفق عليها ؛ فقد كان صوته جهورياً وحلواً في الوقت نفسه مما جعل العرب يقولون : « إن كلماته كلها تصل إلى القلب » . وفي تلك المناسبات كان سعود هو المتكلم الوحيد . لكن يحدث غالباً أن مسائل الفقه تحتاج إلى مناقشة . وهذه تفرغ صبره أحياناً ، فتجعله يجادل بحدة عظيمة ساخراً من خصمه وموبّخاً له على جهله بالمناظرة. وبعد أن يستمر اللقاء حوالى ساعة ينهيه سعود بقوله : « والله أعلم » . ويفهم الذين ليس لهم غرض معيّن أن ذلك التعبير إشارة لهم ليغادروا . أما الذين يريدون سعوداً فيبقون حتى الساعة الثانية بعد غروب الشمس . وهذا المجلس ، أو اللقاء ، ينعقد يومياً .

وكان سعود ينقم جداً على أي عربي يحاول أن يخدعه أو يكذب

عليه . وإذا حدث شيء من ذلك أمسك عصا ، وضرب المخادع أو الكاذب بنفسه . لكنه سرعان ما يندم على تلك النوبات الانفعالية ، ويرغب من المتفرجين دائماً أن يتدخلوا ويمنعوه من ضرب أي إنسان متى رأوه غضبا . وكان هذا يحدث كثيراً ، فيعبّر عن شكره لذلك التدخل .

ونادراً ما ترك سعود قصره خلال إقامته في الدرعية باستثناء ذهابه إلى المسجد المجاور له لأداء صلاة الجمعة . ويعزو العرب ذلك إلى خوفه من أن يلقى مصيراً مثل المصير الذي لقيه أبوه ؛ وهو الاغتيال . ومن المؤكد أنه كان له أعداء من العرب يتطلعون ليثأروا لدماء أقربهم التي سفكها أو وجدوا أية إمكانية لنجاح محاولاتهم لقتله . لكن أصدقاءه يقولون إنه كان مشغولاً في قصره طيلة اليوم بالدراسة . ومن المعروف أنه أمضى عدة سنوات بعد موت أبيه وهو يلبس درعاً تحت ثوبه . ويقول سكان مكة : إنه كان دائماً محاطاً بحرسه الخاص خلال إقامته في تلك المدينة ، وإنه لم يكن يجرؤ على الاقتراب منه أي غريب وحده . بل إنه لم يكن يذهب إلى الحرم أو يطوف بالكعبة بدون عدد كبير من أتباعه ، وإنه كان يختار مكانه خلال الصلوات في الحرم لا كما يفعل المتميزون ، بصفة عامة ، في المقام الحنبلي ؛ بل يرقى فوق سطح بئر زمزم لأنه أكثر أماناً ، ويصلّي فوق ذلك السطح الذي يمثّل المقام الشافعي .

وكان سعود يرغب من الناس أن يقوا جالسين حين يظهر إليهم لا في قصره فقط ؛ بل في أي مكان تابع له . وفي مجلسه المسائي يجلس كل امرىء في أي مكان يجده مريحاً له . لكنه كان مفهوماً ؛ على

العموم ، أن الأمراء الكبار يجب أن تكون أماكنهم قريبة منه . أما أبناؤه الصغار فيجلسون بين العامة مصغين إلى كل ما يقال . لكنهم لا يتكلمون أبداً . وإذا دخل العرب ، عادة ، عليه صافحوه بعد أن يسلّموا ، وسأل بأدب عن صحة وأحوال كل من يعرفهم في المجلس . وكان المشائخ الكبار يتبادلون معه القبل عند وصولهم إلى قصره جرياً على العادة البدوية . ولم يكن هناك لقب معيّن لمخاطبته ؛ بل يكتفي الناس بقولهم : « يا سعود أو أبو عبد الله أو أبو شوارب »[1] . وكان هو ، أيضاً ، يدعو كل إنسان باسمه دون أيّ من تلك العبارات الرسمية أو التحببية المستعملة كثيراً بين الأمم الشرقية ، بصفة عامة .

ولم يكن سعود يختلف في لباسه عن عرب أنفسهم ؛ إذ لم يكن يلبس إلا عباءة وثوباً وعمامة[2] . ومع ذلك يقال : إنه كان يختار تلك الملابس من أفخر ما هو موجود في الدرعية ، وإنه كان نظيفاً إلى درجة الوسواس ، وإنه كان دائماً يضمّخ عمامته بالزباد .

وكان إنفاق سعود الرئيسي هو ما ينفقه على ضيوفه وخيله . ويقال : إنه كان يملك ما لا يقل عن ألفي حصان وفرس ؛ منها ثلاثمائة أو أربعمائة في الدرعية دائماً ، وبقيتها في منطقة الأحساء حيث توجد

(١) يستعمل العامة في نجد صيغة الرفع عند النداء في كل الحالات . وتلك أبقيت العبارة على ما هي عليه لدى المؤلف . ومن المرجح أن الناس لا يخاطبون سعوداً بأبي شوارب ، وإن قالوا عنه ذلك في غيابه

(٢) يسمّي أهل نجد ما يلبس فوق الرأس غترة أو شماغا

الأعلاف المتازة[1] . وكان لديه أحسن المهار العربية وقد أخذ بعض هذه الخيول من أصحابها الأصليين عقاباً على سوء تصرفهم أو ضريبة لكنه اشترى أكثرها بأثمان باهظة جداً . فمن المعروف أنه دفع مبلغا يساوي خمسمائة وخمسين أو ستمائة جنيه استرليني ثمناً لفرس واحدة .

وقد سمح سعود لكل واحد من أبنائه باتخاذ حاشية مكونة من مائة أو مائة وخمسين خيّالا . غير أنه كان لدى عبد الله في حياة أبيه أكثر من ثلاثمائة خيّال . وبالإضافة إلى تلك الخيل كان لدى سعود كثير من الإبل النجيبة التي توجد في جزيرة العرب

وكان عدد أفراد بيت سعود الخاص والغرباء الذين يقيتهم يومياً يتراوح ما بين أربعمائة وخمسمائة نفس وكان الأرز والقمح المسلوق (الجريش) والتمر ولحم الضأن هي الأصناف الرئيسية لديه . وقد سمح لأبنائه البالغين والمشائخ الكبار أن يأكلوا معه . وكان طعام هؤلاء المعتاد الأرز ولحم الضأن . أما العامة من الغرباء فكان يقدم لهم الجريش والتمر[2] . وبذلو مما استطعت أن أعرفه عن طريقة معيشته وأسعار المؤن

---

(1) قال ابن بشر إن سعوداً « ملك من الخيل العتاق ألفاً وأربعمائة فرس » . انظر عنوان المجد ، ج ۱ ، ص ۲۳۱ .

(2) ذكر ابن بشر عادة سعود في الضيافة فقال :
« وبلغ سيرته بالضيف فذكر لي أن خزنه يخرج لضيفه كل يوم خمسمائة صاع من بر والأرز . وكان المضايفي الموكل بالضيف يدعو أضيافه لغشاء من بعد الظهر إلى بعد العشاء الآخرة وكان أول داخل من الضيف طعامهم اللحم والأرز والخبز ، والذي بعدهم قريب من طعامهم والباقي حنطة خالصة على حسب مراتبهم في الإكرام وأما الغداء فمن طلوع الشمس إلى اشتداد النهار على مراتبهم في العشاء » . انظر عنوان المجد ، ج ۱ ، ص ۲۳۰

في نجد أن مصروفاته العامة كانت تتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف جنيه استرليني ، وذلك عدا ما ينفقه على الحرس الخاص الذي كان يدفع من الخزينة العامة . وخلافاً للتقاليد التركية والبدوية لم يقم سعود أبداً عيداً للختان في قصره لأنه يقول : إن ذلك لم يكن يفعل في صدر الإسلام . لكنه أذن لقومه أن يسنّوا أنفسهم في تلك المناسبات . وكان ، أيضاً ، يحتفل بزواج أبنائه بأبهة عظيمة . فحينما تزوج ابنه فهيد ابنة عمه استمر احتفال الزواج في الدرعية ثلاثة أيام . ذبح في اليوم الأول أبو ناصر ـ أخو سعود ـ للضيوف المكوّنين من جميع رجال أهل الدرعية وعدد من الغرباء أربعين ناقة وخمسمائة من الضأن . وذبح سعود نفسه في اليوم الثاني لضيوفه مائة ناقة وثلاثمائة من الضأن . ثم في اليوم الثالث فقد ضيّف أخوه الآخر كل أولئك الزائرين[1].

وكان لدى سعود في قصره عدد من المماليك السود[2]. ولم يسمح أبداً لأية واحدة من زوجاته أو جواريه أن ترضع أطفالها الذكور ؛ بل كان يقوم بذلك مرضعات مختارات ، بصفة عامة ، من بين مملوكاته الحبشيات . وكان مثل هذا التقليد موجوداً بين أشراف مكة الذين يربّون أطفالهم الصغار بين القبائل البدوية المجاورة ، ولا يبقونهم في بيوت

(١) ذكر المؤلف أن الذي استضاف الزائرين في اليوم الثالث واحد من إخوة سعود الآخرين . لكن من المعروف أنه كان لسعود أخوان فقط . فإذا كان أحدهما أبا ناصر فإنه لم يبق إلا أخ واحد .
(٢) ذكر ابن بشر أن مماليك سعود ألف ومائتان من الذكور والإناث . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ٢٣١ . وربما كان في ذلك مبالغة نوعاً ما

آبائهم الخاصة أكثر من ثمانية أيام . وبهذا الأسلوب تربّى محمد (صلى الله عليه وسلم) بين قبيلة عدوان[1] .



---

(1) المعروف أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تربّى عند بني سعد . انظر **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية** ، لعبد الرحمن السهيلي ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٧ هـ ، ج ٢ ص ١٤٤ . على أن كلاً من بني سعد وعدوان تنتسب إلى قيس عيلان .

الحكومة الوهابية

الحكومة الوهابية حكومة ارستقراطية على رأسها أسرة سعود . وقد قسم مناطق نفوذه إلى إمارات تضم القبائل العربية التي أصبحت مستقرة . ولكل قبيلة بدوية كبيرة أمير أو شيخ . ويلي هؤلاء مرتبة عدد من الزعماء الصغار . وكان الزعيم الوهابي يمنح مشائخ البدو الكبار الذين تتبعهم قبائل صغيرة لقب أمير الأمراء . وكانت الإمارات الرئيسية هي الأحساء والعارض . التي يديرها سعود بنفسه ، والقصيم وجبل شمّر والحرمين (مكة والمدينة) والحجاز (ويقصد به لدى البدو الجبال الواقعة جنوب الطائف) واليمن[1] . وأمراء تلك المناطق يمدّون العدل ، لكنهم ليسو قضاة لأن سعوداً وضع قضاته الخاصين في كل مكان . وكانت سلطة الأمير على العرب محدودة جداً ؛ إذ لا تزيد كثيراً على ما كان لمشائخ البدو المستقلين سوى أنه يستطيع أن يخضع للشرع المخطئين بسجنهم وتغريمهم على عدم طاعتهم . وإذا ارتكب هو ظلماً رفع المظلوم التماساً إلى الزعيم الأكبر . ولذلك فإن الدرعية دائماً مملوءة بالعرب القادمين من أقصى البقاع ليشكوا رؤساءهم . وأهم واجبات الأمراء ـ إلى جانب تنفيذ العدل ـ تجنيد الجنود للجيش الوهابي ، ومساعدة جباة الزكاة .

---

(١) من الإمارات المهمة التابعة لسعود والتي لم يذكرها المؤلف الوشم وسدير ووادي الدواسر والخرج والقطيف وجهات عمان والمراد باليمن هنا، المخلاف السليماني أو ما يسمّى منطقة جازان .

وفي زمن الحرب يكوّن سعود من أمراء المناطق ورؤساء البدو الكبار مجلساً للتشاور . أما في وقت السلم فإنه لا يستشير إلا علماء الدرعية وهؤلاء ينتمون ، بصفة عامة ، إلى أسرة ابن عبد الوهاب ، مؤسس الفرقة الوهابية . وهم كثيرون في الدرعية ، ولهم نفوذ كبير . وتسمّى هذه الأسرة أولاد الشيخ . ولا أعلم بالضبط ما هي الحقوق الثابتة أو الامتيازات التي يملكونها ، لكنه من المؤكد أن سعوداً يستشيرهم في كل أمر مهمّ قبل أن يتخذ قراره النهائي حياله وقد يبدو الزعيم الوهابي حاكماً مطلقاً ، لكنه يعلم جيداً روح عربه بحيث لم يحاول أن يحكمهم بطريقة استبدادية . فأبقى الحريات الفردية كما كانت في الماضي . وبذا أنه يبدو للعيان بصفته زعيماً قادراً أكثر من كونه سيّداً للجزيرة العربية . وكان في الواقع تحت مراقبة أمرائه الذين لهم نفوذ كبير في مناطقهم والذين سيعلنون استقلالهم فوراً لو عاملهم بظلم . وقد أبقت شواهد من هذا النوع روح المقاومة ضد السلطة الاستبدادية التي لم يخضع لها البدو أبداً وكان أمراء المناطق مراقبين في تصرفاتهم من قبل الزعماء الصغار ولذلك يوجد دائماً عشائر صغيرة مستعدة للدفاع عن حقها ضد تسلّط الزعيم الأكبر . الذي كان توحيده لهم جميعاً تحت ظل حكومة واحدة قد نجح في توطيد النظام في جزيرة العرب مما كان مفيداً للأمن العام والمصالح الخاصة[1] .

---

(١) كان سعود من القوة بحيث يعزل من أراد من زعماء القبائل وأمراء المناطق وكان الجميع يخشون بأسه فلا يعصون أوامره . على أنه كان خاضعاً لأحكام الشرع وعدالته

والحكومة الوهابية الآن (١٨١٦ م) وراثية في الأسرة السعودية وكان عبد العزيز قد طلب من المشائخ الكبار أن يبايعوا ابنه سعوداً بالحكم بعده[١] وبعد وفاته تولى سعود الحكم دون معارضة . وبالطريقة نفسها بايع أولئك المشائخ عبد الله وأبوه سعود لايزال حياً . وعلى أية حال فإن العرب لا يرون من الضروري أن تكون الإمارة من الأب للابن . فقد كان بالإمكان أن يعيّن سعود أحد أخويه لخلافته وحتى الآن يمكن أن يعترض أن النظام القائم في الدرعية مثل ذلك النظام القائم في الصحراء العربية كلها ، وهو انتخاب الشيخ من القبيلة .

والزعيم الوهابي يعيّن زعماء المدن والمناطق والقبائل ويعزلهم كما يريد لكنه ، بصفة عامة ، يثبت من اختاره العرب أنفسهم . وإذا برهن زعيم على أنه مخلص لقضيته سمح لابنه أو أخيه أن يخلفه .

(١) كانت البيعة قد أخذت لسعود ليصبح حاكماً بعد أبيه سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) انظر **روضة الأفكار** ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

كانت كل الصحراء والمدن الداخلية في جزيرة العرب سابقاً خاضعة لحالة الفوضى التي لاتزال قائمة بين تلك القبائل التي لم تتبع الوهابيين ، والتي وصفت في حديثي عن البدو . وقد علّم عبد العزيز وابن سعود قومهما على إطاعة النظام ، والمحافظة على الأمن العام ، والخضوع في خلافاتهم لقرار القضاء دون أي لجوء إلى السلاح . وكان عبد العزيز أول من أرسل قضاة إلى كل المناطق الخاضعة له . وقد اختارهم من بين أكثر عمّاله مقدرة واستقامة ، وقرّر لهم مكافآت سنوية من الخزينة العامة ، أو بيت المال ؛ محرّماً عليهم أن يقبلوا أجرة أو رشوة من المتخاصمين[1] . وكان أولئك القضاة يحكمون بين الناس طبقاً لأحكام القرآن والسنّة . وكان على العرب جميعاً أن يدلوا بمرافعات قضاياهم أمامهم . لكنهم قد يطلبون استئناف الحكم بعد ذلك من الزعيم الأكبر

وكانت الخطوة التالية حماية البلاد من اللصوص . وقبل أن يحصل عبد العزيز على قوة كافية كان يسيطر على كل جزء من نجد ؛ بل من جزيرة العرب ، فئات متعادية . وكانت الأعداد الكبيرة للولايات المستقلة

---

(١) كان بين قضاة نجد ، مثلهم مثل غيرهم من القضاة في كل مكان ، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من يأخذ أجوراً على المتخاصمين مقابل الفصل بينهم . وقد عدّ الشيخ ذلك رشوة ، وحرّمه . انظر عن هذا الموضوع كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٤١

قد جعلت من المستحيل تحقيق أمن داخلي قوي . لكن عبد العزيز — ويقدر أكبر ابنه سعود — جعل العرب مسؤولين عن كل نهب يرتكب داخل أراضيهم إذا لم يكن اللص معروفاً . ومن كان قادراً على الثورة أو مقاومة غزو معادٍ مخيّم أو بلدة، وأعوزه الميل أو الشجاعة للقيام بذلك، عوقب بغرامة مادية مساوية لعدد الدواب أو الممتلكات الأخرى التي نهبها اللصوص. وهكذا جعلت كل قبيلة ساهرة على حماية جيرانها والغرباء الذين يمرّون عبر أراضيها . وبذلك توقّف تقريباً كل النهب الفردي والجماعي بين كل من حاضرة الجزيرة العربية وباديتها ، التي لم تكن في الماضي تتمتع بشيء أكثر من ابتهاجها بالسلب والنهب . ولعلّه لأول مرة منذ عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) أصبح التاجر يستطيع أن يخترق وحده صحراء الجزيرة العربية بأمان تام ، وأصبح البدو ينامون دون خوف من أن تؤخذ دوابهم من قِبَل اللصوص الليليين[1] .

ويبدو أن الزعيمين الوهابيين كانا حريصين ، بصفة خاصة ، على أن يترك عربهم العادة التي ألفوها من عقابهم الأعداء بأنفسهم وردّ عدوانهم بأيديهم . ولذلك حاول سعود ، بالذات ، إلغاء نظام الأخذ بالثأر ، وجعل العرب يرضون بدية تدفع إلى أقرباء المقتول . لكنه لم ينجح في ذلك المجال نجاحاً كاملاً . فكثيراً ما أجبر أسرة المقتول على أخذ الدية إذا عرضها من قام بالقتل . لكن إذا أُخِذ بالثأر قبل أن يؤمر بأخذ الدية فإنه لا يعاقب من استعمل تلك الحقوق العربية القديمة .

---

(١) أورد ابن بشر تفصيلات عن الأمن العظيم الذي حدث زمن الإمام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ١٦٨ — ١٧١ و ٢٢٢ .

وإذا حدث نزاع بين أتباع سعود وتوتّر ، وناصر أقارب كل من الطرفين قضية قريبهم - كما هي عادة العرب - وسفكت الدماء في النزاع أدان بلا رحمة كل أولئك الذين تدخلوا في الموضوع ، وعاقبهم بما يأخذ خيلهم وإبلهم وأسلحتهم أو بمصادرة أموالهم وإدخالها في الخزينة العامة للدولة .

وإذا حدث شجار بين الناس ، واستلّ أحد المتنازعين خنجره على الآخر فجرحه وضع سعود على المتجرحين غرامة ثقيلة لسماحهم أن يصل الأمر إلى ذلك الحدّ . وإذا بدأت قبيلتان تتحاربان رغم القوانين المانعة للحرب أرسل سعود فوراً رسلاً إلى مشائخهما ، وحتمهم على اتصالح ؛ وأصدر على كل قبيلة غرامة ، وحرماً كلاً منهما أن تدفع إلى الأخرى ديات القتلى الذين سقطوا في بداية المناوشات . وقد أمر القبائل أن ترفع دائماً خلافاتها العامة إلى محكمته التي كان قرارها محيماً جداً بحيث أصبح معروفاً أن مملوكاً زنجياً واحداً من رجاله قمن بأمره على شيخ كبير وسط عشيرته الخاصة ، وأحضره أسيراً إلى الدرعية .

وقد اشتهر سعود بأنه رجل عادل جداً ، لكنه كان قاسياً إلى حدّ ما في أحكامه على المعتدين . وقد ساعده نفاذ بصيرته على اكتشاف تزوير الشاهد فوراً ، فكان يعاقبه دائماً بطريقة فريدة . وعلى أيه حال فإن معاقبته لم تكن قاسية جداً . وقد أكّد لي أنه منذ وفاة أبيه لم يقتل في الدرعية إلا أربعة أو خمسة رجال . وبما أن البدو نادراً ما كانت لديهم نقود فإن سعوداً كان يغرّمهم خيلاً وإبلاً وغنماً . وكانت تلك الصرامة هي التي أثارت ضده كثيراً من الأعداء من عرب أنفسهم . فلم يكن يحترم أبداً

الحماية التي يمنحها العرب الآخرون للمذنب . وقد ألغى نظم الدخيل في كل مناطق حكمه ما دامت قد تستغل في إفلات شخص من يد العدالة . فإذا قتل عربي رجلاً آخر فله أن يبحث عن حماية صديق لينقذ نفسه من ثأر فوريّ على أيدي أقارب المقتول ، لكنه كان يستطيع أن يبقى تحت تلك الحماية فقط حتى يطلبه الشرع ، ويجب عليه حينذاك أن يستجيب .

وكان المشائخ الكبار يعطون نوعاً من الحماية للمذنبين المتهمين بجرائم صغيرة . وفي مثل هذه الحال يضع العربي الخائف من المثول أمام سعود نَفْسَه تحت حماية شيخ له نفوذ عند ذلك الزعيم ، فيشفع الشيخ له عنده ، وينجح في الغالب في الحصول على صفحه عن عقابه أو تخفيف العقاب إلى غرامة مالية صغيرة .

وكانت الجريمة التي كثيراً ما عاقب عليها سعود أتباعه اختلاطهم بالمبتدعين . وفي بداية نشر العقيدة الوهابية كانت أكثر الأوامر صرامة أن تقطع كل الاتصالات بين الوهابيين وبين الأقوام الأخرى التي لم تقبل بعدُ العقيدة الجديدة . فقد كان يقال : إن السيف وحده هو الذي يجب أن يستعمل في محادثة تلك الأقوام . وبما أن أهل نجد ، على أية حال ، كانوا قد اعتادوا كثيراً على الذهاب إلى المدينة ودمشق وبغداد والأقطار المجاورة الأخرى فإنهم خالفوا تلك الأوامر باستمرار . وبذلك وجد سعود أنه من الضروري أن يخفف صرامته تجاه هذا الموضوع . بل إنه في آخر فترة الحج السوري تغاضى ضمنياً عن قومه بنقل المؤن للقوافل ، وأخذ هو دولاراً على كل بعير أجّره قومه . لكن باستثناء ذلك العمل لم يسمح أبداً

لأي واحد من قومه بالاتجار مع سوريا أو بغداد إلا بعد سنة ١٨١٠ م حين بدأ الغزو المصري . ومع ذلك فإن القانون ظل باقيا ؛ وهو أنه متى وجد وهابي سوء كان بدويا أم تاجر في طريقه إلى أي قطر بدعي - مهما كان اتجاه ذلك الطريق وطبيعة الحمولة - فإن ثروته ودوابه يجب أن تصادر وتدحل إلى بيت المال . لكن لو كان عائدا من قطر بدعي فإن ثروته لا تصادر .

ولم تكن الضرائب التعسفية ، التي تسمّى عوينة Avanias في الشرق ، معروفة على الإطلاق في المناطق الوهابية ؛ إذ لم يطلب من أحد أن يدفع أكثر مما كان عليه أن يدفعه إلى جباة الزكاة أو ضريبة جزاء عن جرم ارتكبه . وكان الأعيان محميين تماماً من جشع الحكومة . وربما كانت تلك البلاد هي الوحيدة في الشرق التي يحدث فيها ذلك الأمر . فتجار مكة الأغنياء الذين تحوي مستودعاتهم أحسن الملابس لبدوية لم يجبروا أبداً على دفع أي مبلغ من المال ؛ بل لم يجبروا على إهداء أية هدايا ثمينة إلى سعود .

وعلى أية حال فإن العرب يتضجرون من نوع المطالب المفروضة عليهم بأوامر زعيمهم المتكررة ليلتحقوا به في غرواته ضد المبتدعة . وفي مثل تلك الظروف كان عليهم أن يؤمنوا بأنفسهم ضعاءهم ويلهم أو جيلهم ، ولم يكونوا يحصلون على شيء مقابل ذلك إلا ما قد يأخذونه من الغنائم . ولهذا فإن تلك الغزوات كانت باهظة الثمن بالنسبة لهم . ومن ناحية أخرى فإن أي إنسان أثار سخط سعود بخطأ صغير من المؤكد أن ينال رضاه بالتحاقه بغرواته .

ولقد سرّ الأمن الذي نتج عن الإدارة الصارمة للعدل كل أولئك الذين كانوا معرّضين للنهب والفوضى من أي نوع . ولهذا فإن حاضرة نجد والحجاز واليمن أصبحوا مخلصين جداً للنظام الجديد لأنهم عانوا كثيراً من مساوىء الماضي . وأصبحت القوافل المحمّلة بإنتاج البلاد تمرّ عبر تلك المناطق دون التعرّض لأذى . ولم يعد الناس أبداً خائفين من تضييع محصولاتهم أو تخريبها بأيدي القبائل الرحّل . ولكن البدو الذين عاشوا دائماً على نهب الآخرين ومهاجمتهم كانوا على عكس الحاضرة . فقد وجدوا من الصعب أن يطيعوا حكومة مبادؤها الأساسية موجهة ضد أسلوب حياتهم . ولذلك لم يكن غريباً أن قاومت بعض القبائل البدوية الكبيرة تبنّي العقيدة الوهابية حتى أجبرتها على ذلك قوة كبرى . وقد برهنت بثوراتها المتكررة كيف كانت متضايقة من الانضباط الذي أدخل على أسلوب حياتها إضافة إلى كرهها لدفع الزكاة .

لكن إذا كان من المعروف أن سعوداً حاكم صارم جداً في حالات الاعتداء ، وعنيد تجاه أعدائه ، فإنه كان مشهوراً ، أيضاً ، بحرارة صداقته واحترامه للمخلصين القدامى من أتباعه . وكان أيّ شيخ أثبت ودّه سعود قادراً على أن يعتمد على حمايته الدائمة ومساعدته في الشدائد إلى حدّ تعويضه عن كل ما فقد في سبيل خدمته مهما كان كبيرا .

وكان أعظم عقاب للمجرم أمر الزعيم الوهابي بحلق لحيته وهذا ما كان يفعل فقط بالمشهورين أو المشائخ الثائرين؛ وهو بالنسبة لبعضهم إهانة أشد وطأً عليهم من الموت . وكان من حلقت لحيته منهم يحاول أن يختفي عن الأنظار حتى ينبت شعرها مرة أخرى . وهناك قصة نادرة حول

هذا الموضوع تبيّن الشخصية الحقيقية للعربي . فقد رغب سعود مدة طويلة في أن يشتري فرساً لشيخ من قبيلة شمّر . لكن صاحبها رفض أن يبيعها إليه بأي ثمن . وحدث أن شيخاً من عرب قحطان حكم عليه بحلق لحيته بحرمه ونكبه . وحين أحرج الحلاق الموسى في حضرة سعود صاح الشيخ قائلاً : « يا سعود تأخذ فرس الشمّري عوضاً عن لحيتي ؟ » فأُلغيت العقوبة . وسمح للشيخ أن يذهب ليشتري الفرس ، التي كلفته ألفين وخمسمائة دولار ، والتي أقسم صاحبها أن أيّ مبلغ من المال لن يكن ليجعله يفرّط بها . ولكنه فعل ذلك لينقذ لحية نبيل من قحطان . على أن ذلك كان مثالاً نادراً لأن سعوداً رفض مراراً عروضاً مالية كبيرة لإلغاء عقوبة حلق اللحى .

وسوف أذكر ، هنا ، بعض القوانين الوهابية المعتمدة على القرآن وأقوال محمد (صلى الله عليه وسلم).

يجب على الحرامي ، أو السارق ، أن يعيد ما سرقه من بضائع أو يدفع ثمنها . وإذا كانت السرقة غير مصحوبة بحالة عنف فإن السارق ينجو من عقاب غير ذلك سوى غرامة تدفع إلى بيت المال . أما إذا كسر السارق باباً حين قيامه بالسرقة فإن يده تقطع . وإذا قتل إنسان خصمه في نزاع بخنجر أو مسدس حكم بقتله . لكن إذا قتله بضربة عصا أو حجر عدّ قتله غير عمد . ودفع الدية فقط لأنه لم يكن مسلحاً بسلاح مميت .

والدية لدى الوهابيين محددة بمائة ناقة طبقاً لما وضعه أبو بكر[1] . وقد قدّر سعود ثمن كل ناقة ثمانية دولارات أسبانية . وبذلك

---

(١) الذي حدّد ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم

فإن الدية ثمانمائة دولار .

ومس شتم وهابياً أو كفّره تعرّض لدفع غرامة مالية كبيرة . وتعريف الشتم محدد تحديداً دقيقاً لدى الوهابيين وأسوأه - وليس حاصعاً للقانون - تسمية الإنسان كلباً . والشتم السائر أن تقول . « يا الفعل التارك »؛ أي يا فاعل الشر أو المنكر وتارك الخير أو المعروف .

والأحشاب التي تربط بها أقدام السجناء؛ وتسمّى الدباب[٢] ، خاصة بالطبقة الدنيا من الناس أما الشخصيات المتميزة فيسجنهم سعود في قصره الخاص . وهؤلاء هم الذين يحكم عليهم بدفع مبلغ من المال ، فيدّعون الفقر ، ويرفضون أن يدفعوه . وفي بعض الحالات يبقون في السجن حتى يدفعوا ما فرض عليهم

وعقوبة إهمال الواجبات الدينية صارمة جداً وقد سبق أن ذكرت عقوبة تارك الصلاة . وحين استولى سعود على المدينة أمر بعض أتباعه أن ينادوا بعد الصلوات في المسجد كل رجل بالغ من السكان باسمه . وكان على كل واحد أن يجيب على انفراد وحينئذ أمرهم أن يحضروا الصلوات بانتظام . وإذا تغيّب أي واحد منهم مرتين أو ثلاث مرات أرسل إليه واحداً من رجاله ليضربه في بيته . وكان إذا حان وقت الصلاة في مكة أمر أتباعه أن يطوفوا بالأسواق ، ومعهم عصيّ غليظة ، ويسوقوا كل السكان بالقوة إلى المسجد . وهذا عمل قاس ، لكن يبرّره ما اشتهر به المكيون من عدم

---

(٢) المعروف أن الدباب ليس الأحشاب ، وإنما هو المحل الذي يسجن فيه . ويكون فيه ، عادة ، أخشاب تربط بها قدما السجين الذي جرمه كبير .

التديّن . وكان سعود دائماً حريصاً جدا على أداء الحج . فكلما كان في وسعه أن يقوم به انطلق إلى ذلك البلد المقدّس مصحوباً بآلاف من قومه رجالاً ونساء . وكان آخر حج أدّاه سنة ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) .

وقد حرص سعود على أن يحدّ من ممارسة الطلاق المنتشر بين قومه ، والمضرّ كثيراً بالبنية الأخلاقية والاجتماعية وكلما سمع عربيا يقول . « عليّ الطلاق » أمر بضربه وإذا أبصر إنسان في رمضان دون عذر شرعيّ حكم عليه بالقتل . وقد قتل عبد العزيز — وهو على أية حال أكثر صرامة من ابنه — عربياً بسبب ذلك . وتدخين التبغ على رؤوس الأشهاد محرّم . لكن من المشهور أن كل أهل نجد استمروا في ممارسة تلك العادة في بيوتهم ؛ بل إن الوهابيين كانوا يدخنون في مخيماتهم ليلا وعند استيلاء سعود على مكة أمر كل السكان أن يأخذوا غلاييهم الفارسية ، التي يسمّيها العرب الشيشة ، إلى قطعة أرض خضراء أمام البيت الذي كان يسكن فيه وحينما كوّنت تلك الغلايين كومة كبيرة أشعل بها النار مع كل ما وجده في الدكاكين من تبغ . وبعد ذلك أخبره أحد رجاله علانية أن المكيين لم يلتزموا بأوامره ؛ بل ظلوا يدخنون . فسأله سعود أين رآهم يدخنون ؟ فأجابه قائلا : في بيوتهم فقال له سعود : ألا تعلم أنه قد ورد : « ولا تجسسوا » ؟ وبعد اقتباسه ذلك من القرآن أمر بجلد المخبر ولم يوجد بعد ذلك أي اعتبار للتدخين سرا

ولا يزال المكيون يذكرون بإجلال الانضباط الممتاز لجنود سعود خلال زياراته المتعددة لمكة ؛ خاصة عند استيلائه عليها لأول مرة . وبالانضباط نفسه كان يراقب جنوده في المعارك . فمن تلقّى منه كلمة

الأمان فهو محميّ تماماً من أي سوء تصرّف يقوم به الحسود . ويذكر علامة على حسن عقيدة الوهابيين أن بعضاً منهم كانوا ، أحياناً ، يرون في الحرم يبحثون عن أصحاب أشياء مفقودة وجدوها ، ويرغبون في إيصالها إليهم .

ولقد حمى سعود دائماً التجارة في مناطق حكمه بشرط ألّا تكون قد تمت مع أولئك الذين يسمّيهم مسلمين مبتدعة . وكانت تجارة نجد الرئيسية بالمؤن الغذائية . وهناك تشتري القبائل من داخل الصحراء ما تحتاج إليه . وبما أن سنوات المجاعة كثيراً ما تحدث فإن الأغنياء يخزنون كميات كبيرة من القمح . ولم يتدخل سعود بذلك أبداً . وقد سمح لهم في أوقات الحاجة أن يبيعوا بالأسعار التي يريدون مهما أثّمت الفقراء لأنه يقول : إن محمداً (صلّى الله عليه وسلم) لم يحرّم أبداً على التجار أن يكسبوا من تجارتهم ما استطاعوا أن يكسبوه من أرباح .

وقد حرّم سعود الربا ؛ بل حرّم إقراض النقود بفائدة ؛ وهو أمر لم يكن عبر عام بين البدو ، وعاقب عليه بصفته مخالفاً لأحكام الشرع الواضحة . وإذا أعطيت النقود بضاعة فإن الأحكام كانت ، على العموم ، أن يتقاسم الطرفان الخسارة أو الربح .

وليس للوهابيين نقود خاصة بهم . والعملة لديهم ، على العموم ، هي الدولار . والأصناف ذات القيمة القليلة تقدّر بمقاييس القمح أو تشترى بنقود إمام اليمن النحاسية القديمة . وتقبل عندهم النقود التركية

لكن لا توجد لديهم نقود تركية مهما كانت[1] . وكانوا خلال الحرب الأخيرة في الحجاز إذا قتلوا جندياً تركياً ووجدوا في جيبه بيرات تركية رموها على الأرض باحتقار


هنا مكتبتي .. مكتبة للجميع

(١) كان أكثر تعاملهم بالريال المضروب في النمسا وكانوا يتعاملون بنقود متعددة من بينها التركية ، مثل المحمدية . انظر عنوان المجد ، ج ١ ص ٦٦

مصادر الدخل

كانت مصادر دخل الوهابيين مبنية على خطة مشابهة لتلك التي كانت على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم). فهي تتكون من :

١ — خمس الغنائم المأخوذة من المستدعين . فهذا الجزء يجب أن يعزل لزعيم سواء كان هو أو أحد قادته مع الغزو . وشيخ أكبر القبائل المشتركة في ذلك الغزو مسؤول عن إيصاله إليه مهما كانت كميته صغيرة أو كبيرة ولم يحاول سعود أبداً أن يمسك عن جنوده الأربعة الأخماس الباقية . وفي سائر الحروب مع العرب — إذا لم تنهب مدن — تتكوّن الغنائم ، بصفة عامة ، من الخيل والإبل والغنم . وتباع بعد المعركة مباشرة لمن يدفع ثمناً أكثر . ثم يوزّع ثمنها على الجنود ؛ للفارس ثلاثة أسهم واحد له واثنان — كما يقول العرب — لفرسه ، ولراكب البعير سهم واحد (وكان قبل عهد سعود يأخذ سهمين)، ولغير الراكب سهم واحد[1] . وإذا قتل وهابي في المعركة واحداً من الأعداء ، واستولى على فرسه فله الحق أن يحتفظ بها ويدفع عوضاً عن قيمتها ولا داعي ، هنا ، لإعادة القول بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد أخذ خمس الغنائم كلها[2] .

---

(١) قد يبدو هذا القول عن تقسيم الغنائم متناقضاً لكن ابن بشر ، المؤرخ النجدي ، يذكر دائماً ذلك التقسيم بقوله : « للراجل سهم وللفارس سهمان » . انظر **عنوان المجد** ج ١ ، ص ص ١١٠ ، ١١١ و ١٥٠ .

(٢) من المعروف أن الشرع الإسلامي يقضي بأن يدخل خمس الغنائم إلى بيت المال

٢ ــ الضريبة ، أو كما يسمّيها الوهابيون الزكاة . وإيتاء الزكاة ركن أساسي من أركان الإسلام . وقد نظّم محمد (صلى الله عليه وسلم) مقاديرها ، وراعاها الوهابيون بدقة . والزكاة معترف بها لدى الأتراك ، أيضا ، لكن توزيعها متروك لضمير كل إنسان في حين أن الوهابيين مجبرون على أدائها إلى زعيمهم لتوزيعها . وقد حدّد الشرع الإسلامي بدقة أنصبة زكاة المال، ولم يحدث الوهابيون أيّ تغيير فيها . ومقادير الزكاة في الخيل والإبل والغنم تدفع طبقا لتعاليم السنّة . ويمكن أن ترى تفصيلها في كتابة D'ohhson الممتازة[1] . وقد قسم سعود الزكاة التي يأخذها من أتباعه إلى قسمين . فزكاة البدوية تدخل كلها في خزينته الخاصة . لكن زكاة سكان المدن، أو المزارعين، تدخل إلى الخزينة العامة .

ويأخذ سعود من إنتاج المزارع التي يرويها المطر العشر فقط . أما المزارع التي تسقى من العيون أو الآبار ، والتي تحتاج إلى جهد ومصاريف ، فإنه يأخذ نصف عشر إنتاجها

ويدفع التجار سنويا ربع عشر رؤوس أموالهم إلى جابي الزكاة وعليهم أن يوضحوا له مقدار تلك الأموال مقسمين على صحة ما يقولون . وعلى أية حال فإنه من المعروف أنهم في أحيان نادرة يدفعون مقدارا يزيد على ربع ثروتهم . فقد حدث أن تاجراً من الحسْاء في منطقة القصيم نهب منه ثلاثة آلاف دولار نقدا . فالتمس المعونة من سعود

(١) أشار المؤلف إلى كتابه هذا لأجنبي لأنه دوّن ما دوّن أساساً لقارئه الأوربي . لكن من المعلوم أن كتب الفقه الإسلامي قد أوضحت هذا الموضوع بكل تفاصيله

وأمر هذا الزعيم صاحب بيت المال في الخرْاء أن يتأكد من مقدار المال الذي ذكر التاجر أنه ثروته . واتضح أنه قد ذكر بأن رأس ماله ألف دولار ولهذا الكذب صادر سعود فرسه وإبله .

ولقد أثار إيفاء الزكاة استياء العرب الذين خضعوا لسعود ذلك أنهم لم يكونوا سابقا يدفعون أيّ نوع من الضرائب[1] فكانت القبائل البعيدة عن مركز الحكم تثور أحياناً بسبب ذلك، وتطرد عمّال الزكاة ولم يكن غير الإجبار ، أو الضرورة ، ليجعل البدويّ يقبل الضرائب . وكان إعفاء محمد علي باشا بدو الحجاز من دفع الزكاة ، أيضا ، هو الذي جعلهم أقلّ عداء له مما كان يتوقع أن يحدث . ذلك أن أول إجراء اتخذه هو إعلانه بأن بادية الحجاز وحضرتها على حد سواء سيعفون من كل الضرائب .

٣ ـ وكان الجزء المهم من دخل الزعيم الوهابيّ يأتي من مناطق حكمه ذاتها . وقد سنّ قاعدة بأنه إذا قامت أية منطقة أو مدينة بتمرّد ضده لأول مرة نهبت . فإذا عادت إلى التمرّد صادر أموالها ومزارعها ، وجعلها في بيت المال . وحينئذ يمنح أجزاء منها لأناس ليسوا من أهلها . لكنه يترك أكثرها في أيدي مالكيها السابقين الذين يصبحون مجرّد مزارعين لديه . وعليهم أن يدفعوا له ثلث إنتاجها أو نصفه حسب الظروف أما مزارع الذين كان لهم الدور الأكبر في التمرّد فإنها تعطى لمزارعين آخرين . وأما هم فيقتلون أو يهربون .

---

[1] من الواضح أن بوركهارت يقصد بالعرب البدو لأن الحاضرة كانوا يدفعون إلى أمرائهم ضرائب تفوق الزكاة بصفة عامة

وبما أن العرب لم يتّبعوا النظام الوهابيّ إلا بعد صراعات متكررة فإن الزعيم صادر أموال مناطق كثيرة . ولو استعاد حكمه للحجاز لقبض ، بأسلوب مماثل ، على أموال كل من التحق بمحمد علي . ومعظم الممتلكات الزراعية في نجد تابعة في الوقت الحاضر لبيت المال . فالقصيم ، التي كان سكانها دائماً في تمرّد ، مزارعها كلها مصادرة[1] . وكثير من قرى الحجاز والجبال باتجاه اليمن قد ضمّت ، أيضاً ، إلى بيت المال .

٤ ــ الغرامات الموضوعة على المنتهكين للقانون . فجريمة العصيان يكفّر عنها ، عموماً ، بغرامات مالية . وهناك قاعدة لدى المحاكم الوهابية بأن من اتهم إنساناً آخر زوراً فعليه أن يدفع غرامة إلى بيت المال .

وكل مصادر الدخل السابقة ، باستثناء زكاة البادية ، تدخل في بيت المال أو الخزينة العامة . ولكل مدينة أو قرية ذات شأن بيت مالها الخاص الذي يدفع إليه السكان ما عليهم من زكوات . ولكل بيت مال كاتب يرسله الزعيم الوهابيّ ومعه أوامر لمنع شيخ المكان من أخذ شيء من الدخل بطريقة غير مشروعة . ولم يكن مسموحاً للمشائخ أن يجمعوا النقود المدفوعة أو يقبضوا عليها . وتخصص تلك الموارد للخدمات العامة . ولذلك تقسم إلى أربعة أقسام : ربع يرسل إلى بيت المال في

(١) ما ذكره المؤلف من أن معظم الممتلكات الزراعية في نجد كانت حينذاك تابعة لبيت المال ، وأن كل مزارع القصيم كانت مصادرة غير صحيح . ذلك أن حكومة الدرعية لم تصادر إلا ممتلكات في بلدان نجدية قليلة جداً ، مثل حرمة .

الدرعية . وربع يرصد لإعانة فقراء المنطقة ، والإنفاق على العلماء الذين يدرّسون التلاميذ ويهيئون طلاب العلم لتولّي القضاء ، وإصلاح المساجد ، وحفر الآبار العامة ، ونحو ذلك . والنصف الباقي يصرف لصالح الجنود الفقراء الذين يُمنحون عند ذهابهم إلى الغزو بالمؤن ، أو بالإبل في حالة الضرورة . ولاستقبال الضيوف وهكذا فإن الأموال المخصصة للضيوف تدفع إلى المشائخ الذين لديهم بيوت عامة يمكن أن يقيم بها الغرباء ويطعموا مجاناً . وما ذلك إلا لأنه من المعتقد أن الأمة كلها لابد أن تسهم في مصاريفهم . ولهذا فإن بن علي ، شيخ شمّر في حائل يستلم كل سنة من بيت المال في منطقته مائتي حمل بعير من القمح ، ومائتي حمل من التمر ، وألف دولار أسباني . ويشتري بتلك النقود لحماً وسمناً وقهوة . ويعتقد كل من يستلمه في استضافة من يتراوح عددهم يومياً بين مائتين وثلاثمائة من الغرباء من كل وصف ؛ وذلك في مضائفه العامة .

وتصرف من بيت مال الدرعية مبالغ لإعانة رعايا سعود المحتجين الذين أخذ الأعداء أموالهم . والدرعية مليئة دائماً بالعرب الذين يلتمسون من سعود تعويضهم ، على الأقل ، عن جزء من ثروتهم المفقودة . وإذا علم سعود أن الملتمس وهابيّ مخلص فعادة ما يعطيه ثلث ما فقده[1] . وتعطى مبالغ أخرى من بيت المال للذين فقدوا حيواناتهم بوباء أو حوادث . وإذا قتلت أو ماتت فرس جندي أو ذلوله في غزوة ما ، وكسبت

---

(١) سبق أن ذكر بوركهارت (ص ٥٠) أن سعوداً كان أحياناً يعوّض المخلصين من أتباعه عن كل ما فقدوه

غنائم في الغزوة ، أعطاه سعود ، في أغلب الأحيان ، فرساً أو ذلولاً . وإذا لم توجد في الغزوة غنائم تحمّل النجديّ خسارته

وإلى جانب ما يعطى لأمراء المناطق والمدن أو القرى لاستقبال الضيوف يتسلّم مشائخ البدو هبات سنوية من بيت المال في الدرعية رمزاً لرضا سعود عنهم . وتتراوح هذه الهبات بين خمسين وثلاثمئة دولار ، وتمنح اقتداء بما كان يفعله محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وجباة الزكاة — ويسمّى الواحد منهم نائباً أو مزكّياً أو عاملاً — يبعثون كل سنة من الدرعية إلى المناطق والقبائل المختلفة ، ويستلمون مبالغ معينة مقابل خدماتهم ومصاريفهم السفرية . فمثلاً يستلم كل عامل يرسل من الدرعية إلى بادية الصحراء السورية خمسة وسبعين دولاراً وكما ذكرت سابقاً لا يسمح للمشائخ لتدخل في الزكاة . وإذ ذهب للعامل حمايتها من عرب ما وظّف أحدهم ليكتب المبالغ التي يجب دفعها ، ووظّف آخر لجمع تلك المبالغ وتسليمها إليه[1] . وبذلك يحاول الموظفان أن يمنعا أيّ اختلاس . وحينئذ يعطي العامل سنداً للمشيخة أو للقبيلة لقبض المبلغ الذي أخذ منها .

ويجب على البدو دفع الزكاة بعد شهر ربيع الأول مباشرة حين تلد الإبل وتعلم صغارها . ويتّفق العامل مع شيخ القبيلة على تحديد مورد ماء

---

(١) ذكر ابن بشر أن أحد عمّال الزكاة في عهد الإمام سعود أخبره أن دأب الإمام كان يبعث ما يربو على سبعين عاملاً لجباية الزكاة من البادية وكل عاملة مكوّنة من سبعة رجال هم : أمير وكاتب وحافظ دفتر وقابض دراهم ، ثم تتبع بها إبل وغنم الزكاة ، وثلاثة رجال خدام لهؤلاء الأربعة لأوامرهم وجمع الإبل والأغنام المقبوضة في الزكاة وغير ذلك . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ولعل هذا هو الصحيح .

معيّن يؤمر كل عربها بالتوجه إليه . ففي سنة ١٨١٢ م جمع سعود الزكاة
من البدو الغريبين من بغداد في مورد يسمّى الهدية يبعد عن تلك المدينة
مسافة يومين أو ثلاثة أيام . وفي تلك السنة نفسها دفع عرب الحلاس
(من عنزة) زكاتهم على مورد يبعد عن حلب اثنتي عشرة ساعة

ويدفع سعود من ماليته الخاصة مصاريف حكومته وحرسه
الخاص . ولا ينكر أن الزعيم الوهابي يبدي طمعاً كبيراً في نعمته مع
رغبته في فتحه أعني بكثير مما هو كافٍ لتلبية التكاليف العامة ، التي لم
تكن كبيرة ؛ إذ لم يكن جيشه يكلّفه شيئاً يذكر . ويشكو العرب من أنه
إذا كانت لدى أحدهم فرس جميلة فإن سعوداً سيجد له تهمة بسوء
تصرف يبرّر أخذ الفرس غرامة (١) . وقد زاد غناه أطمعه بسبب رغبته في
الحصول على ما هو أكثر . ويقول العرب : إنه منذ أخذ الإمام الحسين
(كربلاء) ؛ حيث حصل على غنائم كثيرة، ونهب المدن اليمنية ، عانت
شخصيته تدهوراً كبيراً . وإنه أصبح يزداد طمعاً كل يوم . لكنني لم
أسمع ، على أية حال ، مثلاً واحداً لحرمانه أي عربي من ثروته دون سبب
قانونيّ . وقد صرف طمعه المشائخ عن قضيته قبل أن يهاجم محمد علي
الحجاز بفترة طويلة . ولو تصرّف في ذلك الظرف بحصافة ، كما فعل
الباشا ، وذلك بتوزيع أموال على المشائخ لكان مستحيلاً أن يجد ذلك
الباشا موضع قدم له في تلك البلاد .

ولم ينكر سعود أنه كان غير محق في معاقبته المجرمين بقسوة

(١) هذا الكلام يتناقض مع ما سبق أن ذكره عن عدل سعود . ولو كان صحيحاً لوجد سعود تهمة لسلب الشمّري الذي حاول أن يشتري منه فرسه فرفض بيعها إليه

شديدة . وكثيراً ما سمع وهو يقول : « لو لا أعمالي وأعمال أصدقائي السيئة لوجد دينا طريقه إلى القاهرة والقسطنطينية منذ زمن طويل » .

ولقد وردت كثير من الروايات المبالغ فيها عن الدخل الوهابيّ وأخبرني بعض المكيين الثقات ، الذين أتيحت لهم اتصالات عديدة بسعود نفسه وبأسرته والذين تهيأت لهم أفضل الفرص لمعرفة الحقيقة ولم يكن لديهم سبب ليخفوها ، أن أكبر مبلغ دخل على بيت مال الدرعية في سنة واحدة كان مليوني دولار . ولكن متوسط الدخل كان ، على العموم ، لا يزيد على مليون دولار سنويا . وهذا لا يشمل المبالغ التي تدخل بيوت مال المناطق والمدن ، والتي كانت ، عادة ، تصرف كلها بحيث لا يبقى منها شيء عند آخر السنة .

وبما أن نفقات سعود الخاصة كانت معتدلة جدا فإنه من المرجح أنه كانت لديه مبالغ نقدية كبيرة يخبئها داخل قصره في الدرعية . لكن رغم عظمة الغنى والقوة لم يكن سعود ولا أبوه قادرين على استعباد العرب لدين وبدو أحرار . فقد اضطرا إلى تركهم يملكون حريتهم العربية . ومن غير المعتقد أن العرب سيخضعون أبداً لأيّ سيّد مطلق ، ناهيك عن غازٍ أجنبي قد يمرّ سريعاً عبر أراضيهم ، لكنه لن يقدر على ربطهم بقيود دائمة[1] وطاعتهم في الوقت الحاضر هي للقانون أكثر منها لسعود الذي هو الشيخ الأكبر لا سيّد الجزيرة العربية . ومهما كان كرههم للضريبة المحددة (الزكاة) فإنهم يعلمون أن أكثرها يصرف في أمور تتعلق بمصالحهم الخاصة . وفي ذلك مواساة لم يتمتّع بها الفلاحون في تركيا أبداً .

---

(١) يشير بالغازي الأجنبي إلى محمد علي .

ليس بين الوهابيين وبين العرب في الأمور العسكرية إلا اختلافات بسيطة جداً. فشيخ القبيلة، الذي ليس لديه جيش ثابت، يجمع المحاربين من فريقه لغزو العدو. وبعد العودة من ذلك الغزو مباشرة يتفرقون مرة أخرى. وهذا ما يحدث لدى الوهابيين. فباستثناء مئات قليلة من الرجال المحاربين الموضوعين في الدرعية لم يكن لسعود ولا لأبيه أبداً جيش نظامي أو جماعة من الجند. وإذا نوى الزعيم هجوماً ما أمر مشايخ القبائل وأمراء المناطق أن يكونوا في يوم محدّد في موضع معيّن؛ وغالباً ما كان موقع ماء في الصحراء. وأحياناً يطلب من الشيخ أو الأمير عدداً معيّناً من المحاربين. فيقوم الشيخ أو الأمير بإعدادهم بنوع من التجنيد الإلزامي من كل فريق أو قرية تحت نفوذه. وهكذا إذا طلب من أمير القصيم — مثلاً — ألف رجل فإن على كل بلدة في تلك المنطقة أن تسهم بإعداد هؤلاء حسب نسبة سكانها. وحينئذ يحلّ سكان البلدان، أو رجال الفريق، الأمر وديّاً بينهم. فيقسم كل من لديهم ركائب إلى قسمين: قسم يذهب للحرب المرادة، والقسم الآخر يذهب للحرب القادمة. ويجب أن يحارب كل من عمره بين الثامنة عشرة وبين الستين سواء كان متزوجاً أم غير متزوج أم كان أباً لأسرة. ويجب أن يلتحق بهؤلاء كل من لديه فرس ما لم يذكر بأن الغزو لا يحتاج إلى خيّالة. وإذا احتفى إنسان ما أحد سعود فرسه أو ذلوله أو بعض عمه

غرامة. وكاد ذلك الزعيم صارماً جداً في فرض الغرامات. وقد كانت الوجبات العسكرية الثقيلة التي فرضها على من لديهم خيل سبباً لبيعهم تلك المخلوقات الثمينة؛ مما أدّى إلى نقص أعدادها بدرجة كبيرة في الأرضي الواقعة تحت حكمه(١).

وكانت الدعوة العامة للتجنيد تتم، أحياناً، دون ذكر للعدد المطلوب. وفي هذه الحالة يجب على كل من لديه ذلول أن يحضر وفي بعض الأحيان لا يقول الزعيم إلا: «لن نعدّ من التحق بالجيش؛ بل من تخلف». وعندئذ يشعر كل رجل قادر على حمل السلاح بأن عليه أن يذهب بغزو. ومن كان فقيراً أمدّه الغني براحلة وسلاح، أو جُهِّز من بيت المال(٢). وحين تكون الغزوة إلى جهة بعيدة؛ مثل تلك التي وجهت إلى دمشق سنة ١٨١٠م أو ضد عمان، يأمر سعود القادة أن يوافوه بنسبة وحدها؛ وهم النخبة الممتازة من الخيّالة وراكبي الإبل. وفي هذه الحالة لا يلتحق بالجيش أكثر من نصف عشره. لكن بعض العرب يخترعون في كل المناسبات أسباباً للتخلف عن الغزو أو تفادي الاشتراك

---

(١) قال ابن بشر في حديثه عن عبد العزيز بن محمد: «وكان يأخذ النكال الكبير من تخلف منهم عن المغزى مع المسلمين من فرس أو ذلول معروفة أو رجل معروف؛ حتى ذكر لي أنه لم يوجد عند مظهر إلا فرس أو فرسان. وذلك لأن يؤدي هذه الجريرة لم يحتاجوا لها لأنهم لم يحتاجوا من أحد ولا يخاف منهم أحد ولا يطمعون في أحد». انظر عنوان المجد، ج ١، ص ١٧١.

ومن الواضح أن ما ذكره ابن بشر في بداية حديثه عن أحد الحاكم السعودي الحين يكاد مشابهاً لما ذكره بوركهارت. لكن قوله بأنه لم يوجد عند مظهر إلا فرس أو فرسان تتضح فيه مبالغة، كما أن تعليل ذلك بعدم الحاجة إلى الخيل ضعيف جداً.

(٢) من المعروف — وكما ذكر المؤلف نفسه في مواضع أخرى — أن بعض أفراد الجيش كانوا مشاة؛ أي لم تكن معهم خيل ولا إبل.

فيه مع أنهم يعلمون دائماً أن هذا سيضع عليهم غرامة ثقيلة . ذلك أنهم يفضّلون دفع الغرامة على المصاريف العظيمة لتسليح أنفسهم للغزو وتجهيز كمية من الطعام لأربعين أو خمسين يوماً من جيوبهم الخاصة .

ومؤونة محاربي الوهابي مائة رطل من الدقيق ، وخمسون أو ستون رطلاً من التمر ، وعشرون رطلاً من السمن . وكيس من الشعير أو القمح لراحلته . وقربة ماء . ويخلط التمر بالدقيق فيعجن ويحفظ على الحجر سكّون وحتى الصباح والمساء ، وتمر مثل الموت . والوقت الذي يستغرقه الغزو والذي يمكن أن يستفيد منه بطريقة أفضل . والضرر الذي يحدث للراحلة بسبب الإجهاد الذي يقتل كثيراً من الإبل في الطريق ، كل تلك أمور جعلت الأشراف في الحروب مضايقة لعرب النفير . وعلى أية حال فمن يعرب بإمكانه ، إذا لم تكن الدعوة للغزو عامة ، أن يستأجر من يشترك فيه بدلاً عنه . ويعطي المستأجر ، عادة ، خمسة أو عشرة دولارات أسبانية للغزوة العادية التي تستغرق أربعين يوماً تقريباً ، إضافة إلى مؤونته وإذا كانت الإبل قليلة أردف كل راكب بعير رجلاً آخر خلفه .

وقد اكتشفت أن ما سبق أن ذكرته عن بعض الممتلكات المحجوزة بكفالة تحت واجب التجنيد العسكري كان خطأ . فكل الرجال الوهابيين جنود لأن حيث يمكن أن يدعوهم سعود للخدمة في أية لحظة . وهكذا يعدّ هؤلاء جيشاً من الجنود الممتازين حلال

---

(١) من المعلوم أن مؤونة الجند تختلف باختلاف المدة التي يستغرقها الغزو ومن غير المرجح أن يكون مع كل صاحب راحلة كيس من الشعير أو القمح لراحلته

أسبوعين من إخطارهم بذلك . لكن هذا النظام ، مع أنه مفصّل للحركات السريعة تجاه أرض عدو أو ردّ غزو ، لا يناسب مشروعاً يهدف إلى فتح واسع مستقر .

وتقضي الديانة الوهابية بالحرب المستمرة ضد كل من لم يعتنق العقيدة الإصلاحية . وبما أن الوهابيين قد أخضعوا كل الجزيرة العربية تقريباً فإن غزواتهم أصبحت موجهة بصفة رئيسية إلى جيرانهم الشماليين على طول الفرات من البصرة إلى سوريا . ولا يبدو أنهم قد رغبوا أبداً في مد حدودهم إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية . ولذلك فإنهم يهاجمون العراق وما بين النهرين وسوريا من أجل النهب فقط[1] . وكانت الغزوات المفاجئة أفضل شيء لذلك الغرض . ولم يقم الوهابيون بنوع آخر من الحروب . وقد رغب زعيمهم دون شك في أن يجعل نفسه السيّد الوحيد لكل الجزيرة العربية وقبائلها . ومن عارضوا دعوته ليصبحوا مسلمين حقيقيين عرّضوا أنفسهم لهجمات أتباعه الذين كانوا يخربون المزارع والنخيل ويأخذون المواشي في حين أن جيرانهم الذين اعتنقوا العقيدة الجديدة ظلوا سالمين من تلك الهجمات . ولذلك انصاع الكثيرون للدعوة لكي ينقذوا أنفسهم وثرواتهم من مضايقات المستمرة . ولم يكن يشعر بميل حقيقي إلى القضية الوهابية ممن أصبحوا أتباعها إلا عدد قليل من المناطق والقبائل . وقد قامت كثير من التحالفات مع شريف مكة لمقاومة أسرة سعود . وعدّ البدو خضوعهم أول الأمر نوعهم

(١) الرسائل التي وجهها سعود إلى والي دمشق توضح أنه كان يرغب في الاستيلاء على الشام . انظر تاريخ البلاد العربية السعودية . عهد سعود الكبير ، منير العجلاني ، دون ذكر مكان الطبعة وتاريخها ، ص ص ٦٦ — ٦٨ .

الوهابي حتماً مع قبيلة مجاورة غريبة عنهم يستطيعون أن يحتلوه في أية لحظة ، ويحاربوها . وسرعان ما أصبحت المناطق القوية بمواقعها وسكانها ؛ مثل جبلي شمّر والحجاز واليمن وغيرها من المناطق البعيدة عن قاعدة دولة الزعيم في نجد ، متساهلة في طاعتها لأوامر سعود وغير منتظمة في دفع الزكاة إليه (٢) . وكان ذلك الزعيم يذكّرهم في بداية الأمر ويحثهم بنصائح نبوية لكنهم كانوا يعتبرون ذلك ضعفاً منه ، ويتحول موقفهم إلى ثورة عنيفة . وفي مثل هذه الظروف كان الزعيم يخبر كل مشائخه أن العرب الملاييين قد أصبحوا أعداء ، وأن كل مرىء حرّ في مهاجمتهم دون أمر منه . ثم يرسل ثلاث أو أربع غزوات خاطفة ضدهم . فيخضعون بسرعة خوفاً من فقدان محصولاتهم ومواشيهم . وكثيراً ما قال سعود : لم يصبح أي عرب وهابيين مخلصين إلا بعد أن غزوا مرتين أو ثلاث مرات من قبل جنوده .

وعلى أية حال فإن بعض القبائل القوية والبعيدة جداً عن الدرعية قاومت بنجاح دفع الزكاة مع علاقاتها الطيبة والوهابية في الأمور الأخرى . وهكذا حينما كانت قوة سعود راجحة في الجزيرة العربية سنة ١٨١٠ م رفضت قبيلة عنزة الشمالية دفع الزكاة إليه . ولم يفكر سعود أن من الحكمة محاولة إخضاعهم بالقوة ؛ بل ظل يكاتب رؤساءهم الذين أطاعوه

---

(٢) ظلت منطقة جبلي شمّر مخصصة لعائلة الرشيد منذ مصاهرتهم بني دويهم حتى انهيار تلك الدولة وكان أميرها محمد بن عبد المحسن بن علي من أكثر أمراء المنطقة إخلاصاً وتضحية . وهذا ما أدّى إلى قتله بأيدي رجال إبراهيم باشا سنة ١٢٣٤ هـ . انظر عن ذلك نشأة إمارة آل رشيد ، عبد الله العثيمين ، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض (الملك سعود) ، ١٤٠١ هـ ، ص ص ٥ — ١٣

اسميا ، ولكنهم كانوا يتصرّفون وفقاً لمصالح قبيلتهم الخاصة كلما احتكوا بأنصار الوهابيين[1] .

ومن الملاحظ بسهولة أن الوهابيين كانوا ، على العموم ، في حالة حرب مستمرة . فقد اعتاد سعود أن يقوم سنوياً بغزوتين أو ثلاث غزوات كبيرة وكانت الجهات المجاورة للبصرة ، الغنية بالمواشي والتمر ، وضفتا شط العرب ، ونهر الفرات حتى عانة ، مسرحاً لهجماته السنوية بل إن جنوده عبروا الفرات ، ونشروا الرعب فيما بين النهرين وفي الجهة الجنوبية من أراضيه مثّلت منطقة اليمن ، التي لم تخضع له بعد ، وحضرموت وعمان حقولاً خصبة لغنائم . ولم يكن سعود دائماً يصحب كل الغزوات بنفسه ، لكنه يرسل أحد أبنائه أو رئيساً مشهوراً قائداً له بل كان مملوكه الأسود ، حُرَيق ، على رأس عدة جيوش وهابية[2] .

وحين يخطط سعود لغزو ما لا يطلع على هدفه أحد ويوعد أمراءه عند مورد ماء معيّن يختاره دائماً بطريقة تخدع العدوّ الذي يريد مهاجمته فإذا نوى أن يكون الغزو باتجاه الشمال تدعيه جمع جيشه عند مورد يبعد مسافة عدة أيام جنوبها وحينئذ ينطلق فعلاً في اتجاه

---

(١) [illegible] سعود [illegible] دلت سنة ١٨١٢ م [illegible] سعود . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ١٦٣ و ٢٣٢ .

(٢) لسالم الحرق دور كبير في النشاط السعودي العسكري ، خاصة في جهات عمان . وذلك في من الدولة السعودية الأولى . ولابنه ملال دور مهم في بعث الجهات [illegible] الدولة السعودية [illegible] كتاب كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، ص ١١١ و عنوان المجد ، ج ٢ ، ص ص ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٥ و ١٤٢ .

جنوبي ، لكنه يعود مسرعاً وينقضّ على العدوّ الذي يفاجأ ، عادة ، بالهجوم. وهذه الحيلة ضرورية جداً لأنّ الأخبار تنتشر كالبرق في جزيرة العرب. ولو بدت من مكان انطلاقه للهجوم أية إشارة إلى هدف هجومه لكان في إمكان العدوّ أن يمتلك وقتاً يعدّ خلاله نفسه للمقاومة أو الهروب.

وكانت غزوات سعود تحطم الكثير من الحيطة وبعد النظر ، وتنفذ بسرعة لدرجة أنها نادراً ما فشلت. ونذكر فيه هجوم على سهول حوران سنة ١٨١٠ م لم تصل أخبار اقترابه منها إلا قبل وصوله إليها بيومين رغم أنه استغرق خمسة وثلاثين يوماً حتى وصل ذلك المكان. ولم يعلم أي عربي من سوريا كان هدف هجومه. ونهبت قوات جيشه نهب خمساً وثلاثين قرية من حوران قبل أن يبدي باشا دمشق أية أدلة مدافع.

وقد كوّن سعود من أعظم شجعان قومه وأشهر محاربيهم حرساً خاصاً يسمّى المنقية، ويبقى في الدرعية باستمرار. وهو وحده النخبة الدائمة من جيشه[1]. وكلما سمع بفارس مشهور دعاه إلى الدرعية وضمّه إلى خدمته على أن يمدّه هو وأسرته بمؤونة سنوية من القمح والتمر والسمن. كما يمدّه بفرس أو ذلول طيبة. ويصحب ذلك الحرس سعوداً دائماً في غزواته. وكان ذكر أفراده مرعباً لكل أعداء الوهابيين لأنهم لم يخسروا أبداً سمعتهم العالية في الشجاعة. وكان سعود يحتفظ بهم قوة احتياطية في المعركة، ويبعث أعداداً صغيرة منهم لمساعدة جنوده الآخرين. ويصل عددهم إلى ثلاثمائة رجل مجهزين ساعة الحرب بكل

(١) المنقية هي الفرقة المنتقاة ، أي التي اختير أفرادها من بين كثيرين غيرهم

الأسلحة تقريبا . وخيولهم مكسوّة بلبس ؛ أي مادة صوفية محشوة لا تخترقها السيوف والرماح وبما أن خدمتهم تطوعية فإن سعوداً يثق بهم ثقة كبيرة .

وبالإضافة إلى المقيّة ، أو الحرس الخاص ، كان سعود يأخذ معه إلى الدرعية كثيراً من عقداء ، أو قادة حروب ، القبائل البدوية . ويُخدّه لهؤلاء العقداء أضعف قوة تلك القبائل ، وقوّى نفسه بإضافة أولئك المشاهير إليه وكثيراً ما أسند إليهم قيادة الغزوات إذا رأى تحمّسهم الصادق لقضيته[1] .

ويقوم الوهابيون بهجماتهم في كل شهر من شهور السنة حتى في شهر رمضان المبارك وقد أظهر سعود ولعاً كبير بشهر ذي الحجة ويدّعي أتباعه أنه لم يهزم أبداً في أي غزو قام به خلال ذلك الشهر[2] ومع أنه كان ، من رجاله ، يحج سنوياً فإن أعداءه ؛ خاصة القبائل العربية القوية بين الشهرين ، كانوا ينتهزون فرصة غيبته في مكة بقيامهم بغارات على أراضيه .

وكان سعود إذا حتار في حتيار أمر من أمرين يبدو كل منهما مفيداً يرجع إلى ما أمر به محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وهو أن يصلي ركعتين لله قبل النوم . وفي الصباح يختار ما حلم به سواء كان مع هذا الأمر أو ذاك[3] . ونادراً ما أطلع الرؤساء على أي شيء من خططه

---

(١) على أن المتتبع لتواريخ المنطقة يلاحظ أن قادة الغزوات من غير الأسرة السعودية كانوا ، في الغالب ، من الحاضرة لا من البادية ، وأن القادة إذا كانوا من البادية هم رؤساء القبائل الرسميين

(٢) قال ابن بشر عن سعود ؛ ولا أعلم أنه هزم له راية ، انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٣٦

(٣) صلاة الاستخارة واردة، لكن لا علاقة لها بالنوم والأحلام

وكان لكل أمير أو رئيس علَمه الخاص في الغزو . ولسعود عدة أعلام ذات ألوان مختلفة وخيامه جميلة جداً مصنوعة في دمشق أو بغداد لكن خيام قومه هي تلك البيوت السوداء المتداولة بين العرب . وأغلبهم ليست لديهم خيام على الإطلاق وتحمل مؤن سعود وأثاثه على مائتي بعير ويأخذ معه كمية كبيرة من المؤن في غزواته ذات المسافة البعيدة لكي يتمكن من مساعدة الذين تنتهي مؤنهم الخاصة من جنوده ، ولأنه كلما مرّ بمنطقة تسكنها حاضرة أو بادية عامل كل ضيوفه بنفس الطريقة التي يعاملهم بها في الدرعية وإذا سار الجيش ليلاً أوقدت مشاعل وحملت أمام الزعيم وكبار القادة . ولا يسار ليلاً إلا إذا كانت نقطة الهجوم قد حددت . وعندئذ تقطع المسافة التي تستغرق ، عادة ، أربعة أو خمسة أيام في يومين فقط ويتقدم الجيش الوهابي دائماً طليعة من ثلاثين أو أربعين فرساً يسمّون السُّور . ويسيرون قبل مسير الجيش بيوم أو يومين ويتبع البدو تقليداً مثل ذلك ؛ إذ يرسلون طليعة تسير أمامهم بعدة ساعات .

وعند الاقتراب من العدوّ يقسم الجيش إلى ثلاث أو أربع فرق ؛ كل وحدة خلف الأخرى فالتي تهاجم أولاً مكوّنة من الخيّالة الذين هم عماد قوة الجيش وتساعدهم الفرقة الثانية المكوّنة من راكبي الإبل الذين يتقدمون إذا هزم الخيّالة[١] . وقد توقف سعود منذ زمن طويل عن مباشرة القتال بنفسه ، وفضّل أن يبقى في مؤخرة الجيش وقد مكّنه تفوّق جنوده على خصومه ، بصفة عامة ، من إرسال تعزيزات جديدة إلى

(١) لم يشر بوركهارت إلى الفرقة الثالثة من الجيش ومن الواضح أنها المشاة

أتباعه في أثناء المعركة مما جعل تحقيق النصر لا يأخذ وقتاً طويلاً إلا نادراً . وكان من خدعه الحربية المفضّلة أن يفرّ أمام العدوّ ، ثم يكرّ فجأة لينقضّ مع فرسانه المختارين على المطاردين لهم المجهدين .

ويؤكد سعود للجميع من مات مقاتلاً من جنوده أن يتمتع بالجنة طبقاً لما ورد في القرآن . وكلما قتل رئيس في المعركة ، وعدت فرسه ، كما يحدث عادة ، راجعة إلى صفوف الجيش التي هي تعرف ، أخبر الزعيم الوهابي بموته على أنه من الأخبار ذات المغزى الطيب لأن ذلك الرئيس قد ذهب بالتأكيد إلى الجنة . ويقال ، عادة ، في هذه المناسبة « أبشر يا سعود . فرس فلان عادت »[1] .

وكلما نهبت فيالق الوهابيين الخاطفة مخيّم عرب ما اضطرت النساء إلى تعرية أنفسهن ، وصدّ الوهابيون عنهن ، ورموا عليهن بعض خرق من أجل الحشمة . ولم تتعرّض أية مرأة لإهانة غير تلك أبداً وحين يتوقّف النهب يوزّع أمير الغزو بعض الأقمشة عليهن ، ويعطي لكل أسرة بعيراً ومؤونة كافية رحلتها إلى مخيّم بعض أقاربها أو أصدقائها وبما أنه من المحتمل أن أزواج النساء قد قتلوا أو هربوا فإن تلك النساء يبقين ، أحياناً ، عدة أيام مع المنتصرين ، ويسرن برفقتهم ليحظين بحمايتهم في الطريق .

ولقد اتخذ الوهابيون قاعدة أساسية في سبيل نشر دعوتهم ؛ وهي أن يقتلوا كل أعدائهم المتسلحين سواء كانوا مبتدعة أجانب ، كانسوريين

(١) ومن المحتمل أن بشير القوم لسعود بعودة الفرس ميعثه تبشيره بعدم فقدها

وسكان ما بين النهرين والحدود المصريين ، أم من الحاضرة أو من العرب أنفسهم الذين يعارضون الزعيم الأكبر أو يتمردون عليه . وكان ذلك العمل ، المفنّد لناشري الإسلام الأوائل ، هو الذي جعل اسم الوهابيين مخيفاً . وخلال السنوات الأربع من حربه مع جنود محمد علي باشا لم يذكر أنهم قاموا مرة واحدة بالإبقاء على حياة تركي[1] . وحينما أخذوا كربلاء والطائف قتلوا كل الذكور من سكانهما[2] . ولم ينقذ حارة العباسية في المدينة الأولى إلا أن سعوداً كان يكنّ احتراماً خاصاً للخلفاء العباسيين . وحينما يهاجمون فريقاً بدوياً يحدث الشيء نفسه ، إذ يقتلون بلا رحمة كل من قبض عليه مسلّحاً . وقد ألهبت تلك العادة الفظّة فيهم روح التعصب الشديد الذي جعلهم مرعبين لخصومهم . وأسهمت تلك في تسهيل نشرهم عقيدتهم .

على أن الزعيم الوهابي كان يعطي الأمان بسهولة لأعدائه إذ استسلموا طواعية . وكثيراً ما فعلوا ذلك لأنه لم يعهد أن سعوداً نقض عهده في أية مناسبة . وهنا تبرز ثقة البدو الطيبة تجاه العدوّ . وتلك سمة نبيلة في شخصيتهم . وشهرة سعود في محافظته الدقيقة على العهد من الأمور التي أقرّ بها ألد أعدائه ، ومحدّها أصدقاؤه منذ بداية الحرب مع محمد علي باشا باعتبارها مناقضة تماماً لغدر الأتراك .

(١) على أنهم إذ أعطوا أماناً لأحد مهما كان فإنهم يبقون على حياته . من ذلك أن سعوداً حاصر عسكراً من الترك في الحناكية سنة ١٢٢٨ هـ ، فطلب قائدهم العفو منه . فصفح أتباعه عنهم ، وبرّوا بأمانهم على دمائهم وأموالهم بشرط أن يسيروا إلى العراق . وسيّر معهم جيشاً حتى بلغوا مأمنهم في العراق . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ٢١٥

(٢) صحيح أن الوهابيين قتلوا كثيراً من سكان هاتين البلدتين ، ولكنهم لم يقتلوا كل ذكر فيهما . ولعلّ الدعايات المضادة لهم هي التي جعلت المؤلف يكتب ما كتب

وإذا استسلم العرب المهددون لسعود قبل أن ينتقم منهم فإنه ، عادة ، يعطيهم أمان الله بشرط أن يسلموا له الحلقة ؛ وهي الخيل والإبل والدروع والبنادق والرماح والسيوف وكل الأواني المعدنية[1] . أما باقي ثروتهم فيحتفظون به . وفي بعض الأحيان يعطي أماناً غير مشروط ، يشمل الأنفس والثروات على حد سواء . وقد أصدر أوامر صارمة لكل قادة الجيوش الوهابية أن يقبلوا كل طلب استسلام من الأعداء ، وأن يحافظوا بدقة على الأمان الموعود .

وحينما يحسم سعود ثورة قبيلة أو منطقة ما فإنه يرسل بعد استسلامها مباشرة إلى زعماء الثائرين ، ويسكنهم لديه في الدرعية أو في منطقة مجاورة لها ، ويغدق عليهم المؤن . وهكذا يضعف نفوذهم بين قومهم ، ويحلّ محلهم زعماء يثق بإخلاصهم له يختارهم من تلك الأسر القوية التي كانت على خلاف في السابق مع الزعماء الذين أخضعوا . ولهذا فإن عدداً كبيراً من الزعماء من جميع أنحاء الجزيرة العربية قد جمعوا في الدرعية أو ما جاورها . ولم يكونوا ، بأية حال ، داخل سجون ، لكنهم لا يستطيعون أن يخرجوا من المنطقة التي حدّدت لهم وكان كل شيخ عربي مشهوراً لدى سكان الصحراء لدرجة أن أمله ضعيف جداً في أن يبقى مختفياً مدة طويلة .

وقد وجد سعود بعد أخذه للمدينة أنه من الضروري أن يبقي هناك حامية عسكرية دائمة من الوهابيين . ولم يتخذ أيّ إجراء مثل ذلك خلال

---

(1) المعروف أن الحلقة هي السلاح فقط .

عهده[1] . ذلك أنه لم يفكّر أبداً أن من المستحسن حراسة أية منطقة ذات نه . بل كان يعتمد على الحاكم الذي أمّره عليها ، وعلى الخوف من اسمه هو . لإبقاء المهزومين خاضعين له . ومع ذلك فإنه طلب من أمرائه تحدد في بعض المناطق الواقعة جنوب مكة أن يبنوا قلاعاً أو حصوناً صغيرة للدفاع عن أماكن إقامتهم . أما المدينة . وهي معقل مهمّ . فإنه كان يعلم أن أهلها معادون لعقيدته ولشخصيته ولذلك وضع فيها حامية عسكرية من عرب نجد واليمن ، وسلّحهم بالبنادق ، كما أعطى كل واحد منهم سبعة دولارات شهرياً بالإضافة إلى كمية من الدقيق والسمن وكان المسلّحون بالبنادق من أولئك النجديين خاصة يشكّلون خيرة فيالق الجيش الوهابي ، الذين تسند إليهم أصعب المهام فقد كانوا هم الذين اجتاحوا مدينة كربلاء .

http huna-maktbty.blogspot.com هنا مكتبتي

(1) الواقع أن قادة الدرعية كانوا يبنون ، أحياناً ، قصوراً في بعض الجهات التي لا يثقون كثيراً بسكانها ، ويضعون فيها حاميات من ذلك ما حدث في منطقة الأحساء انظر عنوان المجد . ج 1 ، ص 158

حرب شريف مكة وباشا بغداد مع الوهابيين

خلال إقامتي في الجزيرة العربية بحثت مراراً عن تاريخ مكتوب للوهابيين : ظناً أن أحد علماء مكة أو المدينة قد قام بذلك العمل لكن بحثي كان غير مثمر فلم يعر أي إنسان بالاً لتسجيل الأحداث اليومية . وسرعان ما نسيت تواريخها والذين يعرفون معرفة جيدة ما حدث في محيطهم ، وهم قلة ، لا يعرفون إلا قليلاً عن الأحداث البعيدة عنهم وقبل أن يؤلف تقرير وافٍ مرضٍ عن الشؤون الوهابية لابد من القيام برحلة عبر كل جزء من أجزاء جزيرة العرب . ولعلّ بغداد ، بظروف الحاضرة ، وبقربها من نجد مركز الحكم الوهابي ، هي المكان الذي يحتمل أن تجمع فيه أصح الروايات .

وسوف أعطي ، هنا ، قليلاً من التفصيلات عن تاريخ ذلك الشعب الرائع قبل استعادة الأتراك للحجاز ؛ وهي الحادثة التي أستطيع وصفها بدقة لأني أقمت في تلك البلاد والحرب بين الطرفين لا زالت مستمرة .

منذ ثلاثين سنة تقريبا نشر الوهابيون عقيدتهم ، وكسبوا أنصاراً كثيرين ، واستولوا بالتدريج على نجد ، وأخضعوا معظم القبائل الكبيرة ،

حرب شريف مكة وباشا بغداد
مع الوهابيين

خلال إقامتي في الجزيرة العربية بحثت مراراً عن تاريخ مكتوب للوهابيين ، ظاناً أن أحد علماء مكة أو المدينة قد قام بهذا العمل . لكن بحثي كان غير مثمر . فلم يعر أي إنسان بالاً لتسجيل الأحداث اليومية . وسرعان ما نسيت تواريخها . والذين يعرفون معرفة جيدة ما حدث في محيطهم ، وهم قلة ، لا يعرفون إلا قليلاً عن الأحداث البعيدة عنهم . وقبل أن يؤلف تقرير واف مرض عن الشؤون الوهابية لابد من القيام برحلة عبر كل جزء من أجزاء جزيرة العرب . ولعل بغداد ، بظروف الحاضرة وقربها من نجد مركز الحكم الوهابي ، هي المكان الذي يحتمل أن تجمع فيه أصح الروايات .

وسوف أعطي ، هنا ، قليلاً من التفصيلات عن تاريخ ذلك الشعب الرائع قبل استعادة الأتراك للحجاز ؛ وهي الحادثة التي أستطيع وصفها بدقة لأني أقمت في تلك البلاد والحرب بين الطرفين لا زالت مستمرة .

منذ ثلاثين سنة تقريبا نشر الوهابيون عقيدتهم ، وكسبوا أنصاراً كثيرين ، واستولوا بالتدريج على نجد ، وأخضعوا معظم القبائل الكبيرة ،

السنة التي تنتها[1] . واستمر في محاربتهم حتى استسلمت لهم مكة

وكان مدعوماً حيدك بالقبائل الجنوبية المكوّنة من البقوم في تُربة ، وبني سالم في بيْشة[2] ، وعامد في زهران[3] ، والأعداد الكبيرة من البدو المجاورين للطائف . وكانت هذه الحروب تعقد بالطريقة البدوية ، ويتخللها قليل من فترات الصلح القصيرة . وكان كل من الطرفين يشنّ هجوماً مفاجئاً على أراضي عدوّه . وكانت الغنائم تؤخذ سجالاً دون فرق كبير من الربح أو الخسارة . ولم يترك غالب ، الذي كان على صلة دائمة بالباب العالي والذي كان يستقبل قافلة الحجاج سنوياً ، أية وسيلة لتحريض الحكومة التركية ضد أعدائه إلا اتخذها . فقد أظهرهم كفاراً ولم يُرِ تصرّف الوهابيين تجاه الحجاج الأتراك ذلك الرأي المعادي لهم . وكان الباب العالي مستعداً لتقبّل آراء الشريف غالب لأن باشا بغداد سبق أن قدّم له آراء مشابهة بها عنهم . ذلك أن الباشا كان مثل الشريف يمارس نفوذاً على عدد كبير من القبائل البدوية فيما جاوره من مناطق وكان عدد منها في حرب مع الوهابيين الذين كانت غزواتهم مخيفة لكل من هم على شاطىء الفرات . وكانت حشود منهم تهاجم ، كل سنة

---

(1) كان مجيء الشريف غالب إلى حكم مكة سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) . وكان أول عمل عسكري اتخذه ضد الوهابيين سنة ١٢٠٥ هـ . لكن من المعلوم أن أشراف مكة قد اتخذوا موقف عدائياً من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأنصاره منذ ظهورها . وكان من أبرز ما قاموا به منع أتباعها الأنصار من الحج .

(2) المعروف أن بني سالم في أعالي بيْشة في السراة . انظر حمد الجاسر ، **معجم قبائل المملكة العربية السعودية** ، دار اليمامة ، ١٤٠١ هـ ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(3) هكذا وردت العبارة . والمعروف أن هناك فخذاً من غامد اسمه الزهران . لكن قبيلة غامد لا تسكن في مواطن قبيلة زهران .

تقريبا ، المنطقة القريبة من البصرة ، وتقتل كثيراً من الحاضرة ، الذين هم من رعايا حكومة بغداد ، في الشاطىء الجنوبي من النهر .

وكان الحجاج الفرس الذين يذهبون إلى مكة عن طريق بغداد والدرعية يشكون عند عودتهم من المضايقات العظيمة التي يلاقونها من الوهابيين ؛ إذ كانوا مجبرين على أن يدفعوا إتاوة كبيرة لزعيمهم مقابل مرورهم بأراضيهم[1] .

ولم تكن هناك مدينة على حدود بلاد العرب أنسب من بغداد لتوجيه هجوم ضد الدرعية . لكن المصادر المالية لدى باشا تلك المدينة كانت قليلة . وكانت سلطته غير معترف بها تماماً حتى داخل حدود منطقة باشويته الخاصة . ولهذا فإنه لم يستطع أن يقوم بقتال حقيقي للوهابيين إلا سنة ١٧٩٧ م[2] . وكان سليمان باشا ، حاكم بغداد في ذلك الوقت ، شخصية مشهورة بالشجاعة والنشاط والعدل وكل الصفات الضرورية لنبيل تركي راغب في المحافظة على مركزه . وقد عهد إلى مساعده قيادة الحملة التي سارت من بغداد . وكان الجيش يتكون من أربعة أو خمسة آلاف جندي تركي ، وضعف ذلك العدد من العرب متحالفين معه من قبائل الظفير والمنتفق وشمّر . وكان سيرهم محاذياً

(١) في كلامه ، هنا ، نوع من التناقض مع ما ذكر قبل ذلك بقليل من عبور قوافل الحجاج من بغداد عبر أراضي الوهابيين دون أن يمسوها بسوء .

(٢) كان باشا بغداد قد أرسل حملة ضد قادة الدرعية بقيادة زعيم قبيلة المنتفق سنة ١٧٩٦ م ، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك

للخليج العربي عبر صحراء توجد آبار ماء في كل محطة منها[2] وكانت الحملة موجهة ، بادىء ذي بدء ، إلى الأحساء أغنى مناطق الحكم الوهابي وأكثرها إنتاجا .

وبدلاً من تقدم رجال الحملة العراقية من منطقة الأحساء فوراً إلى الدرعية — وهي لا تبعد أكثر من خمسة أو ستة أيام عنها — حاصروا قلعتها المحصّنة التي توقعوا أن يأخذوها دون صعوبة . لكن المقاومة بها استمرت أكثر من شهر وأثار وصول قوة وهابية كبيرة بقيادة سعود بن عبد العزيز شكوكاً قوية في النجاح . فقرر الأتراك الانسحاب . وكان سعود قد توقع ذلك الإجراء . فسبقهم وعسكر مع جنوده على إحدى آبار ثاج على بعد ثلاثة أيام من الأحساء وأفسد ماء البئر الثانية ، التي تبعد ميلين عن الأولى ، برمي عدة أكياس من الملح فيها وكان قد أحضر معه الملح لهذا الغرض . وتوقّف جنود بغداد عند تلك البئر . ومن الممكن تصوّر ما عاناه كل من الرجال والدواب من نوعية ذلك الماء . ولم يستحسن قادة الجيش الأتراك مواصلة السير لأن سعوداً قد ينقضّ فجأة عليهم . ومن ناحية أخرى فإن الزعيم الوهابي لم يجرؤ على مهاجمة الأتراك الذين كانت مدفعيتهم قوية جداً بالنسبة له ولقومه وهكذا ظل الجيشان ثلاثة أيام وكل منهما على مرأى من الآخر في صفوف متقابلة . وفي بعض الأحيان كان يقوم فارس من أحد الجانبين بمناوشة فارس من الجانب الآخر في السهل الفاصل بين المعسكرين . ثم دارت مفاوضات

---

(٢) سمّى بوركهارت الخليج بالفارسي لكن الشواهد تؤيد تسميته بالعربي وقد ترجم ، هـ . بالعربي

بين قائدي الجيشين ، وتوصلا إلى صلح بين الزعيم الوهابي وبين باشا بغداد مدته ست سنوات . وبعد ذلك عاد كل من الجيشين بهدوء إلى بلده[1] .

وكان فشل حملة باشوية بغداد السبب الأول في سوء الحظ الذي حلّ بعد ذلك مباشرة بالجانب التركي من جميع الجهات . ذلك أن الوهابيين عرفوا حينذاك حقارة الجنود العثمانيين . ولم يلبث السلام بين الطرفين أن تحطّم . فقد هاجم عرب تابعون لحكومة بغداد التركية قافلة حجاج فارسيين معها حرس وهابي بين الحنّة ومشهد . فقامت جماعات من الوهابيين بالإغارة على ما يجاور البصرة مرة أخرى . وقد نشر اجتياحهم كربلاء سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) الرعب بين كل المسلمين الحقيقيين[2] ، كما بعث البهجة والتباهي في نفوس الوهابيين . وكان تقديس ضريح حفيد محمد (صلى الله عليه وسلم) سبباً كافياً لجعل تعصب الوهابي ضده . فقد قتل في تلك المدينة خمسة آلاف إنسان لكن الرجال المسنّين والنساء والأطفال لم يتعرّض لهم ، كما أن حارة العباسية احترمت بسبب الاحترام الوهابي لمؤسسيها . وقد حطّمت قبة ضريح الحسين . لكن كنوز كل من ذلك المسجد ومشهد علي (النجف) قد أُخفيت . ونقلت بعد ذلك إلى بغداد . وقد أسند الوهابيون جذوع نخل على سور مدينة كربلاء ، وتسلّقوا بها السور إلى داخلها ،

(١) والصحيح أن جيش سعود كان في بلده حينذاك . ولكن المراد عودته من المنطقة التي دارت فيها المفاوضات في شرقي البلاد إلى المنطقة التي انطلق منها وهي نجد .

(٢) المراد بالمسلمين الحقيقيين المسلمون من غير أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فمن ثم مؤلف هنا توضيح رأيه في مبادئ دعوة الشيخ وهل ينهج منهجه مع تعاليم الإسلام الصحيحة

وأمضوا خمسة أو ستة أيام وهم يقتلون وينهبون سكانها . ثم انسحبوا منها[1] ، وهاجموا العرب المقيمين على شط العرب . لكن كلاً من عرب الزبير وسكان النحف صدّوهم . على أنهم حملوا معهم ، على أية حال ، كل الغنائم التي أخذوها من قبل ، وعادوا إلى بلادهم .

ويبدو أن الوهابيين بعد نهب كربلاء قد أعادوا النظر في آرائهم ؛ خاصة أن حملة ثانية على ما يجاور بغداد منيت بالفشل. وكان ثويني ، شيخ قبيلة المنتفق ، ومعه قومه وقبائل الظفير وشمّر وبنو كعب ؛ إضافة إلى حيش من الجنود الأتراك ، قد قاد حملة ضد نجد . ولم يتوقف في الأحساء ؛ بل واصل سيره باتجاه الدرعية حتى وصل إلى بئر الصبيحية التي تبعد مسافة يوم عن مورد ماء أشهر منها يسمّى الكويت على بعد خمسة أو ستة أيام من الدرعية[2] وبينما كان الجيش معسكراً هناك اغتال وهابي متحمّس مملوك لبني خالد القائد ثويني[3] . واقترب سعود فوراً من ذلك المكان ، فهرب جنود بغداد . لكن لأنهم لم يكونوا يعرفون الطريق قتلوا . أما البدو الذين معهم فقد استطاعوا الهرب . وعاد كثير من أولئك الجنود في اليوم التالي إلى بئر الصبيحية آملين أن يحصلوا على

---

(١) ذكر ابن بشر أن سعود بن عبد العزيز ومن معه لم يمسوا في كربلاء إلا ضحوة ، وأنهم قتلوا من أهلها حوالي ألفي رجل . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) من المعروف أن الصبيحة تقع شمال منطقة الأحساء . فهي بين هذه المنطقة وبين العراق . ومن المعروف ، أيضاً ، أن الكويت ، حينذاك ، كانت بلدة مهمة لا مورد ماء .

(٣) الرجل الذي اغتال ثويني بن عبد الله اسمه طعيس . وقد قتل فور اغتياله لثويني . وأصبح ما قام به من عمل جريء مضرب مثل لدى النجديين ؛ إذ يقال : « باع بيعه طعيس » كناية عن الاندفاع العظيم نحو الهدف

الماء ، وأن يعاملوا معاملة الأسرى أو لا ينتبه إليهم . لكن سعوداً لم يتخل عن عادته المعروفة ، فأمر قومه بقتلهم جميعاً[٣] .

على أن عرب نجد والصحراء الشمالية أظهروا إنسانية أكثر من غيرهم . فأخفوا في خيامهم كثيراً من أعدائهم التعساء ، وأعطوهم ماء للطريق ، وتركوهم يرحلون عنهم قبل طلوع الفجر . وعلى عكس هؤلاء قام البدو الجنوبيون — وهم ، بصفة عامة ، من قحطان وعتيبة — بقتل كل من توقف عند خيامهم بدون رحمة . ومع ذلك ، ومهما كان تعصب البدو أو أوامر زعيمهم ، فإنهم لم يستطيعوا أن يكبتوا مشاعرهم تماما . فقد أكد لي شاهد عيان أنه قد سمح لكل مشرد أن يروي ظمأه قبل أن يتلقى كارثة الموت . وقد سبق أن ذكرت بأن الزعيم الوهابي لا يسمح بحق الدخيل بالنسبة لأي إنسان يقضي النظام الوهابي بقتله ، مثل العدو الذي يوجد متسلحا

---

(٣) من غير المرجح أن يعيد المؤلف ... — هنا — ... ... — إلى ... هؤلاء ... ... المؤلف ... قد ذكر أن ... كانوا ... ... غير المرجح ... أن سعودا أمر بقتلهم جميعا ، خاصة أنه من المحسنين ... هؤلاء غير مسلحين .

وكان ثويني بن عبد الله قد قام بهجوم على بريدة سنة ١٢٠١ هـ (١٧٨٦ م) لكنه ... من هدفها إثر وصول أخبار إليه من العراق تفيد بحربه ... عمه فيه .

وفي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) عين ثويني من جانبه قبيلة المنتفق وكلفه ... حملة ضد دولة الدرعية . فانطلق من العراق حتى وصل إلى الصبيحية وأقام هناك ثلاثة ... حتى اكتمال جيشه . ثم سار متجها إلى الأحساء ، وكان ... الذي عاد فيه ... الشباك ، وهو مورد ماء من موارد قبيلة بني خالد . وكان ذلك الاغتيال في مستهل سنة ١٢١٢ هـ . انظر تفاصيل هجومي ثويني في كل من روضة الأفكار ج ٢ ، ص ص ١٢٧–١٣٠ ، و ١٨٧–١٩٧ ، و عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ٩٨–٩٩ و ١٣٨–١٤٣ .

وقد بدأ عبد العزيز ، أبو سعود ، مهجمة الحجاز والشريف غالب سنة ١٨٠١ م بدأب وحماس أكثر من ذي قبل . وكان غالب في حربه مع الوهابيين ينتصر تارة وينهزم تارة أخرى . فقد اخترق مرة نجداً ، وأمضى سنة كاملة مستولياً على بلدة صغيرة تسمّى الشّعْراء في منطقة القصيم[1] . وفي مرة أخرى أحاط به الجنود الوهابيون ، فشقّ طريقه من بينهم في أثناء الليل ، وهرب مع عدد قليل من أتباعه إلى بيشة . وقد مدّ الوهابيون نفوذهم وعقيدتهم خلال سنوات بين معظم القبائل الحضية جنوب الطائف باتجاه اليمن . وكانت تلك القبائل ذات قوة عظيمة . وعُيِّن أبو نقطة ، شيخ عسير[2] ، قائداً للجميع . بل إن العرب القريبين من الطائف ذاتها اضطروا سنة ١٨٠١ م إلى الخضوع للوهابيين . وكان صهر غالب ، عثمان المضايفي شيخ قبيلة عدوان الساكنة في تلك الجهات ، قد أصبح عدواً لذلك الشريف منذ عدة سنوات[3] . وبما أنه كان مشهوراً بكل الصفات الضرورية لشيخ بدوي فإن عبد العزيز بعد استيلائه على تلك البلاد عيّنه أميراً لقبائل الطائف ومكة وما يليها شمالاً حتى منتصف الطريق إلى المدينة . وكان غالب ، حينذاك ، قد أصبح

---

(١) كان هجوم الشريف غالب على الشّعْراء أوّل هجوم يقوم به ضد الأراضي التابعة لآل سعود . وكان ذلك سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م)
والشّعْراء في عالية نجد لا في منطقة القصيم . ولم يستطع الشريف الاستيلاء عليها رغم المحاولات التي بذلها . انظر تفصيل ذلك في **روضة الأفكار** ، ج ٢ ، ص ص ١٤٧–١٥٠ ، **وعنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ١٠٧–١٠٩ .

(٢) في الأصل عزيز Azyz ، وواضح أن ذلك خطأ .

(٣) لم يصبح عثمان المضايفي عدوّاً للشريف غالب إلا سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ؛ وهي السنة التي انضم فيها إلى الدرعية . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

مطوّقاً تقريباً بمناطق نفوذ وهابية ، لكنه لم يفقد نشاطه . فجمع من بقي من عربه المخلصين ، وحاول مرة أخرى أن يغزو نجداً ، لكنه لم ينجح .

وفي سنة ١٨٠٢ م حاصر عثمان المضايفي الطائف . واستولى على هذه المدينة الجميلة ، مصيف كل التجار المكيين وفردوس الحجاز — كما يسمّيها العرب — بعد مقاومة عنيفة . فلقيت مصيراً مثل ذلك المصير الذي لقيته كربلاء مع اختلاف واحد ؛ هو أن عداوة عثمان للشريف جعلته يخرّب معظم المباني الجيدة ، ويأمر جنوده خلال المذبحة العامة ألّا يتركوا شيخاً أو طفلاً إلا قتلوه[1] . وفي نفس السنة نفسها استولى المضايفي ، أيضاً ، على القنفذة ؛ وهي ميناء على البحر الأحمر تابعة للشريف غالب ، وتقع جنوب جدة على بعد سبعة أيام

وقد جعل ذلك نجاح الوهابيين خطيراً جداً . فقد كانت قوافل الحجاج السورية والمصرية من قبل تتقدم بانتظام إلى الحجاز رغم أن الشريف غالباً عمل كل ما في وسعه لنشر حرباً مكشوفة بين الباب العالي وبين الوهابيين . وحينما كان الجزّار ، حاكم عكا ، باشا لدمشق كان يقود ، أحياناً ، القافلة بنفسه إلى مكة بطريقة تتسم بالمباهاة . وكذلك

(١) يبدو أن المؤلف قد استقى معلوماته عن هذه الحادثة من أحد السعوديين . صحيح أن عثمان ومن معه قتلوا من أهل الطائف مدنيين في الأسواق والبيوت . لكن من المرجح أن هؤلاء كانوا من الرجال لا من غيرهم . قارن ما قاله المؤلف بما ذكره ابن بشر في **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ١٦٢–١٦٣ .

كان يفعل عبد الله باشا العظم[1] . وقد قابل هذا الأخير مراراً كل حموع الحجاج الوهابيين على أرض عرفات ، وتبادل الهدايا مع عبد العزيز[2] .

ويبدو أن الوهابيين قد تصرّفوا على أساس ديني برفضهم السماح لقوافل الحجاج بالمرور عبر أراضيهم . ذلك أنهم كانوا يعلمون أن الحجوج الذين يرافقون تلك القوافل بـ يحولوا القباء بأية إجراءات عدائية في بلاد يمكن أن تقضي فيه إمداداتهم وتعريزاتهم فوراً . لكن الحجاج المكوّنين لتلك القوافل كانوا يتصرّفون دائماً بطريقة مشينة جداً . وعمليّاً ، يرتكبون أسوأ أنواع البدع . ومراسم الحج ذاتها أصبحت ملوّثة بتصرّفات الحجاج الرديئة . بحجة أن الوهابيين ، الذين أصرّوا مدة من طويل على إصلاح تلك الممارسات ، قرروا إنهاء مجيء تلك القوافل . وكان آخر حج أدّته القافلة السورية عام ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ)[3] .

وقد هاجم الوهابيون في الأخير العثمانية من الحجاز قبيلة حرب القوية المقاتلة ، وسدّوا الطريق إلى المدينة .

---

(١) في الأصل « عبد الله باشا عدف » ومن الواضح أن هذا ليس مقصوداً ، إذ لم يكن لعدف باشا وليس لحاكم هذه البلدة دخل في الموضوع المتحدث عنه هنا . والمرجح أن المراد عبد الله العظم باشا دمشق . وكان عبد الله قد حج سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وهي السنة التي دخل فيها السعوديون مكة مرة ثانية بقيادة عبد الوهاب أبي نقطة وعثمان المضايفي . وقد تبادل فيها عبد الوهاب الهدايا مع الشريف غالب . ولم يتعرّض لعبد الله العظم بسوء . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ١٨٣ – ١٨٤ .

ومن المعلوم أن عبد العزيز قد اغتيل سنة ١٢١٨ هـ وأنه لم يحج منذ قيام الدولة السعودية الأولى سنة ١١٥٧ هـ حتى اغتياله سنة ١٢١٨ هـ .

(٢) سبق أن أشير إلى حج السوريين بقيادة باشا دمشق ، عبد الله العظم ، سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) .

وفي عام ١٨٠٣ م أنهى الوهابيون فتح الحجاز، وتجاوز نفوذهم كل الحدود السابقة(١). فقد جمع سعود بن عبد العزيز وعثمان المضايفي في أوائل تلك السنة قوة كبيرة في الطائف. وبعد عدة معارك مع الشريف غالب، اقتربت القوة الوهابية من مكة وأقامت مركز قيادتها في قرية الحسينيّة التي يوجد فيها كثير من بيوت المكيين الصيفية، على بعد ساعة ونصف الساعة من تلك المدينة باتجاه الجنوب. وطوّقت جنود الوهابيين خفيفة الحركة مكة من كل جانب. فهاجموا الضاحية الشرقية منها المسمّاة المعابدة، واستولوا عليها فترة. كما هاجموا قصر الشريف في تلك الضاحية. ومن هناك قاموا بغارات متكررة على بيت المدينة المقدسة التي لم تكن محمية بأسوار. وقاوم غالب بشجاعة ووضع لغماً قرب قصره. ومع أنه لم ينجح تماماً فإنه أجبر العدوّ على التقهقر.

وحينئذ قطع الوهابيون إمداد الماء العذب الذي يأتي عبر قناة من عرفات إلى داخل مكة، واضطر السكان إلى الشرب من آبار مالحة. وبعد حصار شهرين أو ثلاثة شهور بدأ أولئك السكان يعانون كثيراً بسبب كل من الماء السيء وندرة المؤن. وكان لدى غالب وجنوده بعض المخزون من الأطعمة، لكن لم يوزّع منها أي شيء على الطبقات الدنيا التي اضطرت أن تغامر بالخروج من البلدة ليلاً لتلتقط عشباً يابساً حين الشريف من الجبال المجاورة مقابل حفنة من القمح الذي في مسكنه

(١) لم يستكمل السعوديون استيلاءهم على الحجاز إلا سنة ١٨٠٥ م. ذلك أن سعوداً استولى على مكة سنة ١٨٠٣ م، لكن الشريف غالباً استعادها. ولم يستولِ السعوديون عليها مرة أخرى إلا سنة ١٨٠٥ م. انظر عنوان المجد، ج ١، ص ص ١٦٤–١٦٥ و ١٨٤–١٨٥.

وحينما أُكلت جميع قطط مكة وكلابها ، وشحّت مؤن الشريف نفسه غادر البلدة مع المقربين إليه ، حاملاً معه كل أسرته وأثاثه بعد أن أحرق أثاث قصره الذي لا يسهل حمله . وذهب إلى جدة وتُركت مكة لتلاقي مصيرها الذي يسطرها . وفي صباح اليوم التالي ظهر زعماء سكانها ليدعوا . أو على الأصح ليستسلموا لسعود بدون قيد أو شرط ودخل هذا الزعيم البلدة في ذلك اليوم نفسه . وقد جرت تلك الحوادث في أبريل ومايو سنة ١٨٠٣ م[1] . ولا يزال المكيون يذكرون ، عرفاناً بالجميل ، الانضباط الممتاز الذي رعاه أولئك الوهابيون الأشداء عند دخولهم مكة ؛ إذ لم يرتكب أي تعدٍّ على حقوق الناس . وفي اليوم التالي فتحت كل الدكاكين بأمر من سعود ، ودفع جنوده ثمن كل ما اشتروه . وعلى سعود أنه كان في مقدوره أن يأخذ البلدة بهجوم كاسح منذ زمن ، لكنه رغب في أن يتفادى الفوضى والمحاورات التي قد تحدث من جراء ذلك . وأخبر العلماء في مجلس كبير أنه رأى محمداً (صلى الله عليه وسلم) في منامه ، فحذره بأنه لن يعيش ثلاثة أيام لو أخذ حبة حنطة بالقوة من المدينة المقدّسة .

وهكذا أصبح أهل مكة وهابيين بمعنى أنهم اضطروا إلى أن يحافظوا على الصلاة في أوقاتها أكثر مما سبق ، وأن يرعوا ملابسهم الحريرية الجميلة ويمحوها ، وأن يمتنعوا عن التدخين علنا . وقد جمعت

---

(١) واضح أن المؤلف يتحدث عن دخول سعود إلى مكة في محرم سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) وكما ذكر سابقاً عاد الشريف غالب إلى هذه البلدة ، ثم اضطر في محرم سنة ١٢٢١ هـ إلى الدخول تحت طاعة سعود . على أن الحصار الذي فرضه سعود على مكة حتى أكل أهلها الكلاب كان سنة ١٢٢٠ هـ . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ١٠٥ و ١٨٣

أكوام من العلاليق الفارسية (الشيش) من كل البيوت ، وأشعلت فيها النار أمام مركز قيادة سعود ، وحرّم بيع التبغ . وعيّن سعود عبد المعين ، أخا غالب ، على رأس الحكومة المكيّة ، كما عيّن عالماً من الدرعية اسمه ابن نامي قاضياً للبلدة[1] . وكان هذا القاضي البدوي مستقيماً جداً لدرجة أن أحكامه أصبحت مضرب المثل تقريباً[2] . ويقول المكيون الآن سخرية من قاضيهم القسطنطيني المرتشي : « ها هو ابن نامي » وفي ذلك الوقت ألغي الدعاء للسلطان العثماني في خطبة الجمعة .

ثم وجه سعود قواته من مكة إلى جدة التي لجأ إليها الشريف غالب وحاصر هذه المدينة أحد عشر يوماً ، لكن سكانها حاربوا بشجاعة وحين فقد الأمل في مقدرته على اقتحام أسوارها تراجع عنها ويؤكد كثير من الناس أن غالباً ، الذي كان قد قام بتجهيزات على ظهر سفينة كبيرة في الميناء يهرب عن طريق البحر ، جعل سعوداً يتراجع مقابل مبلغ مقداره خمسون ألف دولار . وتحرك الوهابيون حينئذ عائدين إلى الصحراء الشمالية ورجع غالب من جدة ، فاستعاد حكم مكة في يونيو سنة ١٨٠٣ م ، حيث استسلمت له الحاميتان الوهابيتان الصغيرتان الموجودتان في قلعتيها . وتنازل له عن الحكم أخوه عبد المعين ، الذي

(١) ابن نامي هو الشيخ عبد الرحمن بن نامي ولد في [illegible] . وولي القضاء بين [illegible] بن محمد . ثم [illegible] سنة ١٢٢٣ هـ قاضياً للأحساء . وبقي قاضياً بها حتى [illegible] كان [illegible] ، وكان له دور في [illegible] بن عبد الوهاب [illegible] . [illegible] السعودية ، وبين شريف غالب حين كانت [illegible] مكة وخرج سنة ١٢٢٠ هـ .

(٢) [illegible] ابن نامي [illegible] كان حصرياً من نجد [illegible] المؤلف [illegible] . يسمّي كل أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدواً .

كان شخصية محبة للسلام . لكن غالباً سرعان ما اكتشف أنه غير قادر على الدفاع عن مركزه مدة طويلة فتصالح مع سعود ، واستسلم لذلك الزعيم الوهابي . ومع أنه لم يمرّ على تلك الحرب إلا أحد عشر عاماً حين وصولي إلى الحجاز فإن تفاصيلها قد رويت بوجوه مختلفة باختلاف رواتها .

ولقد تمتّع غالب حينذاك بحرية أفضل بكثير من الحرية التي كان يتمتّع بها ، عادة ، بعض أنصار الدعوة الآخرين . فقد تركت له بعض ودخله ، وسمح لعدة قبائل بدوية أن تظل تحت نفوذه وبمكانته الرفيعة وما سكان البلدة المقدسة من احترام فإنه لم يطلب منه ولا من المكيين دفع الزكاة إلى سعود ومن ناحية أخرى أعفى الشريف لحمارك التي تؤخذ في ميناء جدة عن كل الوهابيين .

وكان الاستيلاء على مكة بداية لمكاسب وهابية أخرى في الحجاز . فقد اضطرت قبيلة حرب أن تخضع لسعود ، وإن كان ذلك الخضوع لم يتمّ إلا بعد صراع شاق مما أغضب الوهابيين ، وجعلهم يعاملونها بطريقة أكثر شدة من معاملتهم لأي بدو آخرين في تلك البلاد[1] . على أن فريقاً من حرب ، يسمّون بني صبح ، نجحوا في أن يبقوا في جبالهم الشاهقة ، ولم يستسلموا أبداً . وقد استسلمت بلدة ينبع لسعود حينما انضمت حرب وجهينة ؛ وهي قبيلة كبيرة أخرى تسكن تلك

(١) كان زعماء قبيلة حرب من آل مضيّان قد انضموا إلى سعود قبل استيلائه على مكة مرة ثانية ، وقد لعبوا دوراً كبيراً في إدخال المدينة المنورة تحت نفوذه في أول السنة التي دخلها فيها الشريف غالب . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

الجهة ، إلى الجانب الوهابي . وبعد ذلك بقليل — في أول ربيع سنة ١٨٠٤ م — تبعتها المدينة [٢] . وكان الرجل القوي في البلدة الأخيرة ، حسن القلعي ، قد أصبحت له قوة استبدادية هناك ، كما كان مسؤولاً عن الجور الكبير الذي حدث خلال المحنة العامة حينما قطع الوهابيون كل الإمدادات عنها . وفي نهاية الأمر قضى على كل الكنوز الموضوعة عند ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقسم جزءاً منها على أتباعه ، ثم قرر أن يستسلم . ولم يعامل سكان المدينة ، الذين هم أكثر ميلاً للأتراك من المكيين والذين يعيشون كلية على المكاسب التي يحصلون عليها من زوار مسجدهم ، معاملة متسامحة كتلك التي عومل بها أهل مكة . فقد طلب منهم الزكاة المعتادة ، لكن ثرواتهم المحصنة لم تنهب . وقد ضغط الموظف التركي الأكبر ... [illegible] ... من قبل ... [illegible] ... مع كثير من الحجاج والأتراك . وعين ... [illegible] ... الذي جعله الزعيم الوهابي شيخاً لكل قبيلة حرب ، حاكماً لها .

وقد أجبر الوهابيون بصرامة عظيمة سكان المدينة على أن يحافظوا على الصلوات . فكان يدعى كل رجل بالغ باسمه في المسجد بعد كل صلاة . ومن لم يحضر الصلاة عوقب . وقد اتهمت امرأة محترمة بتدخين الغليون الفارسي (الشيشة) ، فأركبت حماراً والغليون يتدلى من عنقها حتى ... [illegible] ... الصويل ، ودير بها في الأسواق . وص

(٢) [illegible]

لحسن القلعي بعض النقود تحت الحكم الوهابي ، واستمر بصديق السكان .

وقد زار سعود المدينة بعد استيلاء قواته عليها بقليل ، وجرّد ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) من كل الأشياء الثمينة التي كانت لا تزال موجودة فيه . وكانت الأواني الذهبية قد أخذت من قبل . وقد حاول أيضاً أن يهدم القبة العالية المقامة على الضريح . ولم يسمح للحجاج الأتراك أن يقتربوا من المدينة من أية جهة . وعومل عدد منهم حاولوا أن يأتوا إليها من ينبع معاملة سيئة . فقصّت لحاهم لأن الوهابيين الذين لهم لحى قصيرة ، يقولون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم تكن لحيته طويلة وكثّة كلحى الأتراك الشماليين . وقد فعلت ذلك بالأتراك عصابات بدوية من الوهابيين احتقاراً لهم دون اتباع لقانون أو أمر خاص .

وقد استمر الوهابيون ، على أية حال، يزورون المدينة تكريماً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، ويقومون بزيارة تعبّدية لمسجده ، لا لقبره الواقع في ذلك المسجد كما يفعل المسلمون الآخرون[1] ولم يتعرّضوا للضريح . لكن سعوداً يعدّ شركاً كل الزيارات أو الدعوات أو الدعاءات له . ولذلك حرّمها . ومن الخطأ التأكيد — كما فعل الأتراك — على أن الوهابيين حرّموا الحج إلى المدينة[2] .

---

(١) كان الوهابيون يذهبون إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لكنهم في أثناء وجودهم في المدينة يزورون قبره الزيارة المشروعة

(٢) الذهاب إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمى حجاً ولعل كون الحجاج وخاصة الأتراك ، يزورون المدينة في رحلتهم لأداء الحج قد جعل المؤلف يظن الزيارة حجاً

على أنه قبل استيلاء سعود على المدينة كان مجيء القوافل الكبيرة إليها محج قد توقّف . فلم يستطع يوسف أغا ، أحد ضباط عبد الله باشا ، أن يصل إلى تلك البلدة سنة ١٨٠٣ م ؛ بل تراجع عنها حين كان على مسافة ساعات قليلة منها . على أنه ومن معه لم يُضَايَقوا في طريق عودتهم إلى بلادهم . ولم يجرؤ الحجاج المصريون تلك السنة على المجيء بالطريق البرية لأن قبيلتي حرب وجهينة قد أصبحتا من الوهابيين . لكن المحمل أتى مع قليل من الحجاج بحراً عن طريق جدة بصحبة سبعمائة أو خمسمائة جندي تحت قيادة شريف باشا ، الذي عيّنه الباب العالي حاكماً لهذه البلدة . وقد رُدّ الحجاج الفرسيون ، أيضاً ، منذ سنة ١٨٠٢ م ، كما رُدّت قافلة حجاج اليمن . وبهذا فإنه لم يصل إلى مكة من قوافل الحج المنتظمة بعد سنة ١٨٠٣ م إلا عدد قليل جداً . وقد أُوقف المحمل في جدة ، وتوفي شريف باشا سنة ١٨٠٤ م في الحجاز . وهناك شك بأنه قد سُمّ بأمر من غالب .

وقد شهد عبد العزيز الاستيلاء على مكة ، لكنه لم يشهد الاستيلاء على المدينة[1] ، حيث أنه اغتيل سنة ١٨٠٣ م بيد فارسي سبق أن قتل الوهابيون أقاربه . وخلفه في الحكم ابنه سعود الذي يعرفه في الصفات الضرورية لقائد ديني لبدو محاربين . وكان سعود يقود كل الحروب منذ سنوات طويلة . ولعل فتح الحجاز يعود إليه .

---

(١) شهد عبد العزيز الاستيلاء الأول على مكة . لكن الشريف غالباً استعاد حكمها ، ولم يشهد عبد العزيز دخولها ثانية تحت الحكم السعودي .

وفي الوقت الذي اضطرت المدينة فيه أن تفتح أبوابها للوهابيين الشماليين لم يقف الحجازيون منهم موقف المتفرج لإظهار قوتهم[1] .

وكان أبو نقطة ، شيخ عسير ، في حرب مع الشريف حمود الذي يحكم الشاطىء اليمني من القنفذة تقريباً إلى بيت الفقيه . وكان حمود قد انتزع البلدة الأخيرة من حكم أقرب أقربائه ، إمام صنعاء . وقد رفض هذا الزعيم دائماً العقيدة الوهابية ؛ معتمداً على أسوار بلدته وعلى خمسمائة أو ستمائة فرس في خدمته . وقرب نهاية سنة ١٨٠٤ م زحف أبو نقطة من جبال عسير المرتفعة مع حشد كبير من قومه ، ونشر فوق الشاطىء أعداداً هائلة من الوهابيين مما اضطر حمود إلى الهروب . وبهت هؤلاء الوهابيون على مدينتين على الساحل اليمني ، اللُحيّة والحُديدة . لكن أبا نقطة لم يحرؤ على البقاء فيهما طويلاً مع جيشه . فانسحب إلى الجبال حيث بقي مراقباً لشاطىء اليمن كله . وأعلن حمود اعتناقه للعقيدة الجديدة .

ومع أن الوهابيين قد استولوا على الحجاز فإن سلطة الشريف غالب ظلت قوية جداً . فاسمه ومكانته الجليلة ، ومواهبه العظيمة في المكر ، ونفوذه الشخصي على كثير من القبائل البدوية التي لا تزال تقاوم سلطة سعود ، والهدايا الثمينة التي يهديها إلى هذا الأخير كلما زار مكة ، كل تلك الأمور جعلت الزعيم الوهابي يتغاضى عن كثير من أعماله . فكلما اقترب سعود من مكة لأداء الحج ، الذي كان يؤديه سنوياً مع عدد

---

(١) الواقع أن أتباع الدرعية في منطقة عسير لعبوا دوراً كبيراً جداً في مهاجمة الشريف غالب والاستيلاء على مكة

كثير من قومه ، قابلته قافلة من الإبل المحمّلة بهدايا الشريف غالب إلى الريمة على بعد يومين من البلدة المذكورة . وتشمل تلك الهدايا كل الأنواع المختارة من المؤن والملابس وغيرهما ؛ إضافة إلى عدة حمول من القماش الهندي ليعمل منه إحرامات يرتديها الحجاج لدخول الأماكن المقدّسة . وكان كبار قومه يتلقّون ، أيضاً ، هدايا مماثلة . كما تهدى إلى النساء والأطفال ملابس جديدة وكميات من الحلوى . وهكذا كان سخاء غالب في تلك المناسبات عظيماً بدرجة أن سعوداً كثيراً ما قال : إن ذلك يحرجه ويجعل من المستحيل عليه أن يعامل الشريف كما يجب أن يعامله .

وهكذا كانت قوة غالب في مكة دائماً موازية لقوة سعود . أما سلطته في جدة فظلت في منتهى القوة . وكانت فيها باستمرار حامية جدة . ومع أن الجنود الوهابيين لم يدخلوها أبداً فإن سكانها كانوا مضطرين إلى إعلان اعتناقهم للعقيدة الجديدة كلما زارهم رجال سعود للتجارة . وفي خلال سنة ١٨٠٥ م قام المضايفي ، الذي كان لا يزال عدوّاً لغالب ، بعدة محاولات للاستيلاء عليها بغرض التحصين وبدون أمر رسمي من الزعيم الوهابي . فاستولى على آبار مياهها ، لكن السكان ، بمن فيهم الأجانب الذين كانوا هناك ، تسلّحوا وأنصفوا حصنه [1]

---

(١) لم تشر المصادر المؤلفة في عهد المضايفي بعد ذكره المؤلف . بل ذكر ابن بشر أن عبد الله أن نقطه هو الذي قام بمهاجمة جدة بناء على أمر من سعود في ذلك العام . وقد قُتل مسبباً غالب سعود . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ١٨٢ــ١٨٣

وبالرغم من أن قوافل الحج كانت تقطع حينذاك فإن عدداً كبيراً من الحجاج تدفقوا على مكة كل سنة من كل أجزاء الامبراطورية التركية فقد كانوا يأتون بحراً إلى جدة ، ولم تصدر أوامر من سعود بمنعهم من مواصلة سيرهم إلى مكة . وكان أولئك الحجاج مضطرين ، بطبيعة الحال ، إلى التقيد بكل التعاليم الوهابية . لكن من تصرف وفق تلك التعاليم واحترمها لم يواجه أية معاملة قاسية . وقد عرفت في حلب سنة ١٨١٠ م رجلاً من أهل تلك البلدة ، فأخبرني أنه أدى الحج سنوياً خلال السنوات الست السابقة عن طريق القاهرة والقصير بدون أية مضايقات وكان حجاج اليمن والهند والأقطار الزنجية يصلون إلى جدة بحراً ، كما كانوا يفعلون سابقاً ، وذلك قبل الحج بحوالي شهر . لكنهم وجدوا من المصلحة ترك أسلحتهم في تلك البلدة لأن حمل الأجانب السلاح إلى مكة يعرضهم لريبة وسوء المعاملة أحياناً . وبذلك فإن الحج لم يوقف أبداً لا بالنسبة للعرب ولا بالنسبة للأتراك . ولو أن القوافل السورية والمصرية الكبيرة وثقت بأمان الوهابيين لكان من الممكن أن تعبر الصحراء آمنة مطمئنة دون قوة مسلحة .

وكانت الحجاز هادئة حينذاك . فقد أعيدت الاتصالات مع داخل الجزيرة العربية كلها ، ووصل قليل من الأجانب إليها مما جعل المؤن متوفرة ورخيصة . لكن سكان المدينتين المقدستين فقدوا الوسائل الرئيسية لموارد رزقهم التي كانت تأتي من اختلاطهم بالتجار الأجانب القادمين إلى الحج .

وظلت الحجاز على تلك الحالة خلال السنوات الثلاث : ١٨٠٦

و ١٨٠٧ و ١٨٠٨ م . كانت قوة الشريف تضعف يومياً في حين اعترف بسلطة سعود على أكثر مناطق الجزيرة العربية . وفي السنوات المذكورة سابقاً قام الزعيم الوهابي بعدة إغارات ضد البصرة وما بين النهرين . لكن إحدى إغاراته على البصرة كانت قليلة الحظ فيما كان جنوده مشغولين بنهب القرى التي حول تلك المدينة في مجموعات صغيرة داهمهم حشد كبير من عرب بني كعب والمنتفق ، وقتلوا منهم حوالى ألف وخمسمائة رجل .

وقد قاد مملوك زنجي لسعود يسمّى الحريق على رأس قوة كبيرة غزوات عديدة في الصحراء السورية ، وأرعب البدو الذين كانوا في جوار حلب ذاتها وعبرت كتائب وهابية نهر الفرات ، فنهبت مخيمات القبائل تعيش فيما بين النهرين حتى وصلت إلى جوار بغداد . واستمر أبو نقطة في الحروب يزعج اليمن بغارات خاطفة ونهب متكرر لكن لا يبدو ، على أية حال ، أن صنعاء كانت هدفاً للهجوم وكان سعود يعلم بالتنافس الموجود بين حمود ، حاكم تهامة ، وبين أبي نقطة ، زعيم عسير . فوعد كلاً منهما بالتناوب بغنائم تلك المدينة الغنية التي يظهر من وسائل دفاعاتها الضعيفة أنها لن تقاوم أي هجوم عليها لكنه في الواقع لم يأمر أبداً أياً منهما بفتحها[1] وذلك أنه — كما يقال — قد رغب في أن يقوم هو بذلك الفتح .

---

(١) ذكر ابن بشر أن سعوداً أمر حموداً بفتح صنعاء ، لكنه لم يقم بما أمره به فسيّر سعود قوة كبيرة من أتباعه بمعيته ، وذلك سنة ١٢٢٤ هـ . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ١٩٤

وخلال تلك السنوات لم يحرّك الباب العالي ساكناً تقريباً[1]

وكان سعود قد دخل في عداء صريح مع الحكومة التركية منذ أن منع قومه من الدعاء للسلطان في المساجد ، كما كان معتاداً في خطبة الجمعة[2] . وقد حدث ذلك العداء بحيلة بارعة من الشريف غالب ، الذي أراد أن يسبب حرباً لا تقبل المهادنة بين سعود وبين الباب العالي . وقد وضع السلطان محارباً شجاعاً ، هو يوسف باشا ، على رأس حكومة دمشق ، وتوقع أنه سيقود قافلة الحجاج بالقوة عبر الصحراء لكنه احتفظ بالمبالغ التي رصدت لتلك القافلة ، والتي كانت مفروضة على دخل دمشق ، لحسابه الخاص . ولم يظهر البدو السوريون الذين يصحبون ، عادة ، القافلة أية رغبة في أن يكون لهم يد بتلك المهمة الخطيرة .

وقد قام يوسف باشا سنة ١٨٠٩ م ببعض التجهيزات الضئيلة لشنّ هجوم على منطقة الجوف المشتملة على عدة قرى في الطريق من دمشق إلى نجد ، والتي تبعد عن العاصمة السورية اثني عشر يوما . لكن ذلك كان مجرد استعراض عقيم لحماسه ، ولم يدخل حيّز التنفيذ على أن أكبر خسارة حلّت بالوهابيين على الإطلاق وقعت تلك السنة ذلك أن حملة انجليزية أرسلت من بومبي فهاجمت ميناءهم الحصين المسمّى رأس الخيمة على الخليج العربي ، وأحالته إلى رماد لأن سكانه القراصنة من القواسم سبق أن ارتكبوا كثيراً من الاعتداءات على التجارة الانجليزية

(١) من المعروف أن الباب العالي تحرّك ضد دولة الدرعية منذ سنة ١٢١٠ هـ (١٧٦٥ م) ، وذلك بتوجيه حملات عسكرية ضدها عن طريق باشا بغداد

(٢) إيقاف تمجيد السلطان العثماني في خطبة الجمعة حدث منذ السنوات الأولى لظهور دعوة الشيخ محمد على أساس أن ذلك بدعة. انظر **روضة الأفكار** ، ج ، ص ١٣٢

في البحر[1] . وكان أحد أبناء عم سعود من بين القتلى في تلك الحادثة .

وفي السنة ذاتها قامت الحرب من جديد بين أبي نقطة وبين الشريف حمود ؛ إذ انحدر الأوّل من جباله ، وخيّم أمام بلدة أبي عريش . فتسلّل حمود ليلاً من هذه البلدة مع حوالى أربعين فارساً مرتدين ملابس أعدائهم الوهابيين ، وسلك طريقاً غير مباشرة حتى وصل فجراً إلى مؤخرة جيش عدوّه . ودخل بمن معه مخيّم ذلك العدوّ دون إثارة أية ريبة لأن أفراد الجيش ظنوهم من أصدقائهم المحليين ولما أصبحوا أمام خيمة أبي نقطة صاحوا صيحة الحرب ، وقتل حمود بيده ذلك الزعيم وهو ينهض من فراشه ، ومكّنه حظه الكبير من أن يهرب وسط الفوضى العامة التي حدثت في المخيّم[2]

وتولّى الشيخ طامي (بن شعيب) من قبيلة رفيدة الصغيرة في عسير القيادة بعد أبي نقطة بموافقة من سعود وخضع حمود مرة ثانية ، لكن ولاءه كان دائماً موضع شك ، ولم يكن أبداً دقيقاً في إرساله الزكاة

وفي سنة ١٨١٠ م أثار سعود الرعب في قلب سوريا بمهاجمة

---

(١) يصف الغربيون دائماً الآخرين بالقرصنة إذا هاجموا سفنهم مهما كانت الدوافع حتى . ومعروف أن القواسم كانوا يهاجمون سفن أعدائهم لا قرصنة وإنما جهاداً ودفاعاً عن المصالح الوطنية

(٢) ذكر ابن بشر أن حموداً هاجم عبد الوهاب في معسكره بسلاطته . وأن هذا الأخير قتل في ذلك الهجوم . لكن جيشه كرّ على قوة حمود فهزموهم هزيمة كبيرة ، وتعقبوا جيوشهم المنهزمة حتى أبي عريش . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ١٩٤ـ١٩٥ . وذكر عبد الرحمن البهكلي ، وهو من أبناء تلك المنطقة ، أن الذي قتل عبد الوهاب في حملة حمود على مخيّمه جماعة من بكيل ووادي حسين . انظر كتابه **نفح العود في سيرة الشريف حمود** ، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢ هـ ، ص ٢٥٥

المناطق المجاورة لدمشق بحوالي ستة آلاف رجل . وكان وصوله إلى هناك غير متوقع . ولم يقدر جيش يوسف باشا على إيقاف تقدّمه . وفي خلال ثلاثة أيام نهب خمساً وثلاثين قرية في منطقة حوران على بعد يومين فقط من دمشق ، وحرّق كل القمح بعد ذهب . لكن لم يكن غير رحيم بالسكان ، كما هي عادته في مناسبات أخرى ؛ إذ سلمت حياة كثير من الفلاحين[1] . وقد أسرت امرأة مسيحية ، وحُمِّلت سبيا لكن سعوداً أمر بإطلاق سراحها بعد ذلك بأيام . وكان في إمكانه أن يستولي على دمشق بسهولة لو علم مقدار الرعب الذي حلّ بسكانها عند قربه منها ؛ إذ بدأوا يرسلون كل ثرواتهم الثمينة إلى جبال لبنان . لكن حصانة كتب بعض شيء أن يقوم بغارات نهب متكررة حتى يصير دمشق في الاستسلاء صوعية . وقد عاد إلى بلاده بغنائم وفيرة

وفي تلك السنة أدّت لحج قافلة كبيرة من المغاربة بر عن طريق القاهرة فعند وصولهم إلى الحجاز سمح لهم بدخول مكة ؛ إذ كان سعود دائما يقول إن المغاربة يتصرّفون بحشمة ، وإنهم قوم متديّنون وقد قابل قائد القافلة ؛ وهو ابن امبراطور المغرب الأقصى ، وتبادل معه الهدايا

وبينما قام كل من باشا دمشق وباشا بغداد باستعراضات عدائية ضد الوهابيين وقفت مصر موقف المتفرج تجاه مصير الحجاز . وكانت الحملة الصغيرة المكوّنة من حوالي خمسمائة رجل ، والتي بعثها شريف

---

(1) ويصح أنه لم يكن هناك داع لتعرّض حياة الفلاحين الذين هم ، عادة ، مسالمون إذ كان سعود وأتباعه دائما يوجهون هجماتهم ضد المقاتلين

باشا من جدة ، هي الجهد الوحيد الذي تمّ من قِبَل مصر لاستعادة النفوذ التركي على البلاد المقدّسة . وكانت حالة مصر المضطربة ، وتوزّع السلطة بين الباشوات الكثيرين الذين يعترفون اسمياً فقط بالباشا الذي يرسله الباب العالي ، ورغبة أولئك الباشوات في الحصول على الأموال المعدّة لقوافل الحجاج والبلاد المقدّسة ، كل هذه الأمور جعلت كل سنّي مخلص يفقد الأمل في أن يرى استئناف الحج ما دامت مصر في تلك الحالة . ذلك أن جميع الأطراف قد علمت أنه لا يمكن أن تستعاد الحجاز إلا عن طريق مصر . فالصحراء العظيمة الممتدة بين الحجاز وبين دمشق جعلت من المستحيل نقل مؤن وذخائر كافية لحملة نظامية ضد عدوّ سيكون أول إجراء يقوم به قطع كل مواصلات تلك الحملة . وقد تصل قوة صغيرة : يصحبها عدد كبير من الإبل المحمّلة ، إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، بعد صعوبات جمّة بل قد تستولي تلك القوة على هاتين المدينتين . لكن كل ما يجمع من الجنود والإبل لن يقدر على إخضاع البلاد جميعها والدفاع عنها ضد عدوّ نشط بدون معونات أجنبية .

ولقد أظهر الاعتبار الأخير وحده أن الجهود يجب أن توجّه كلها من مصر لتحرير الحجاز من سادتها البدو . فهذه البلاد تكاد تعتمد كلية على مصر في كل ضروريات الحياة التي يمكن جلبها بحراً عن طريق ينبع وجدة ؛ بوابتي المدينتين المقدّستين ، دون التعرّض وسط الطريق لأية خسائر تحدث لرحلة تستغرق ثلاثين أو أربعين يوماً عبر صحراء قاحلة عدائية من سوريا إلى مكة .

وبم يرفض الوهابيون السماح للحجاج من كل البقاع بدخول البلاد المقدّسة . بل إنهم كثيراً ما عرضوا عليهم علناً الإذن لهم بعبور سلمي شرط أن يتصرّفوا بلياقة ، وألّا يظهروا بأي نوع من التفوق في تلك البلاد . التي حضت منها نزعتها الطبيعية وشخصية سكانها وموقعها الحصري منطقة عربية لا منطقة تركية . وبعد أن خضعت مكة والمدينة للوهابيين ، وأصبح الشريف بنفسه تابعاً لعقيدتهم وعادى صراحة الباب العالي ، وتبعه في هذا الموقف كل الحجاز ، كان أبرز إجراء عثماني صيغي يمكن أن يتخذ قطع كافة الإمدادات لتلك البلاد ، وذلك بإغلاق ميناء القصير والسويس أمام شحن أي شيء إليها . لكن مثل ذلك الإجراء لم يتمّ خلال عهد المماليك . ولم يكن ذلك غريباً ، إذ لم يكن أبداً في الإمكان اتخاذ إجراء عام في مصر حيث الباشوات الذين لهم نفوذ كبير والذين يحصلون على أرباح طائلة من تجارة الحجاز على أن المرء قد يتساءل بحق عن إهمال ذلك الإجراء تحت حكومة محمد علي الذي ملك السويس منذ سنة ١٨٠٥ م ، وملك ميناء القصير منذ سنة ١٨٠٨ م ، والذي وعد مولاه السلطان بأقوى العبارات أن ينقذ الحجاز من الوهابيين .

وخلال ذلك الوقت ؛ بل حتى بداية سنة ١٨١٠ م حين قام محمد علي بتجهيزات جادة لمهاجمة الوهابيين ، كانت هنالك سفن تصل يومياً من جدة ويبيع إلى السويس والقصير ، وتعود محمّلة بالقمح والمؤن للشريف ولغيره من أفراد التجار . ولم تتوقف تلك الحركة إلا قبل شهور قليلة من إبحار الحملة الأولى من السويس إلى الجزيرة العربية حيث

كانت هناك مخاوف من القبض على السفن المعدّة لحمل الجنود في ذلك الميناء . وكان قطع كل الإمدادات عن الحجاز لمدة سنة واحدة سيكون له أعظم النتائج المجحفة في تلك البلاد التي لم تكن معتادة على ادّخار المؤن أكثر من شهرين . ولن تحول الإمدادات القليلة جدا القادمة من نجد واليمن دون حدوث مجاعة فيها . ولو حدث هذا بالفعل لاضطر لزعيم الوهابي بالتأكيد إلى الوصول إلى صلح مع حاكم مصر في صالح الحجاج والامبراطورية التركية كلها

ومع أن الجيش الوهابي المستولي على الحجاز قد يتمكن دائماً من الاعتماد على الإمدادات من الداخل فإن شقاء المجاعة في البلاد المقدّسة سيؤثر بقوة على أولئك المتدينين المتعصبين الذين برهنوا مراراً على تقديسهم لتلك الأماكن واحترامهم لسكانها . وسوف يستخدم الشريف نفسه كل نفوذه مع الوهابيين ، وهو نفوذ استمر قويا منذ خضوعه لهم ، لينهي الحالة التي ستحرمه جزءاً من دخله ، إضافة إلى إزعاج أتباعه ، وإن كان من المحتمل أن هذا الأمر الأخير لا يهمّه كثيراً . وكان للشريف دخل من التجارة ومن الضرائب المفروضة على البضائع الذاهبة إلى مصر أو القادمة منها .

وبما أن إجراء سهلاً وطبيعياً كهذا لم يتخذ من قبل محمد علي فقد حاول مؤيدوه أن يدافعوا عنه بادعائهم أنه سيكون دنساً لا يغتفر أن يعرّض البلاد المقدّسة للمجاعة . لكن أولئك الذين يعرفون شخصية الباشا يعلمون أن اعتباراً كهذا كان ذا أهمية قليلة جداً لديه . على أن أناساً على دراية بتجارة البحر الأحمر يعتقدون أن المكاسب التي تدفّقت على حريته

من خلال تلك القناة ؛ بيعه شخصياً القمح والمؤن في السويس والقصير وتحديد الجمارك عليها ، كانت كبيرة جداً لدرجة أنه لم يشأ أن ينفذ أوامر سيده التي قد تسبب تخفيض تلك المكاسب أو إيقافها . وقد اتحدت كل القوى الامبراطورية التركية على إخماد الوهابيين ، وصبت بتنفيذ حملة مشابهة لحملاتنا الصليبية القديمة ضدهم . ومع ذلك فإن سفنهم كانت ترى حاملة كنوز مصر من السويس إلى أرض الحجاز الفاجرة ؛ ممدة بذلك أعداءهم ، في نفس الوقت الذي تصل فيه القوافل يومياً من القاهرة إلى السويس ، محملة بالذخائر المعدة لحرب أولئك الأعداء[١] .

ويعلق القارىء الأوربي أن يقدّر كثيراً ذكر مثل تلك الأحداث الصحيحة والإجراءات الغريبة . لكن السكن في الشرق عدة سنوات يوضح أن الحاكم التركي إذا توقع خسارة ؛ مهما كانت ضئيلة أو مؤقتة ، فإنه لا شيء يجعله يتخذ إجراءات للمصلحة العامة . ذلك أن نظرته لا تتعدّى أبداً اللحظة التي هو فيها في حين أنه يضحّي بمصالح مولاه ورخاء رعاياه إلى أقصى حدّ من أجل أتفه مصلحة مالية خاصة . لكن جشعه عادة ما يتجاوز حدوده ، فيؤدّي بالتالي إلى حربه ، أو على الأقل يكوّن عقبة لفعالياته الخاصة .

(١) سبق أن ذكر سافاري أن حركة التجارة بين مصر والحجاز توقفت عدة شهور من جراء الحملة الأولى ضد السعوديين في الجزيرة العربية

كان محمد علي خلال سنتي ١٨٠٢ و ١٨٠٣ م قد مارس كل اسلوب ابدي حققه له جنوده الكثيرون وبراعته الحاصة على حساب القبة الضعيفة من المماليك الأقوياء في رمس مصر . وحين عُيّن باشا لمصر سنة ١٨٠٤ م كانت المهمة الأُولى التي ألقاها الباب العالي على عاتقه أن يحوز استعادة البلاد المقدسة وكان يعلم أن عدم إطاعته للأوامر سيكون عقبه إبعاده عن الحكم وكي يثير الباب العالي حماسه وعده بأن يعطي باشوية دمشق لأحد أبنائه بمجرد استيلائه على مكة والمدينة . وقد نمّى طموحه الخاص ، أيضاً ، الرغبة لديه في تحقيق ذلك الهدف لأن تخليصه للبلاد المقدسة سيعلي شأنه كثيراً فوق كل باشوات الامبراطورية التركية . ويضيف إلى اسمه شهرة تجعل الباب العالي لا يستطيع أبداً أن يعارض مصالحه . وكان الباشا خلال السنوات الأُولى من حكمه مشغولاً بمناوشات مع المماليك . ولم يتمكن قبل سنة ١٨١٠ م من الوصول معهم إلى اتفاق جعلهم يتخلّون عن مصالحهم في شمالي مصر والحرم الأكبر من الصعيد ، ويدخلون القاهرة آمنين مما سبب لهم المذبحة الغادرة في القلعة بعد ذلك بقليل .

وقرب نهاية سنة ١٨٠٩ م بدأ محمد علي يجهز بجد لحملته . وكان في مقدمة كل الأمور الضرورية أن يكون تحت إمرته عدد كاف من

السفن لنقل الجنود والمؤن . ولو قبض على قارب واحد قادم من الحجاز لحافت منه كل السفن الأخرى ، وابتعدت عنه ، فأصر بما عزم على القيام به . لذلك رأى أن يبني أسطولاً خاصاً به . وفي خلال سنتي ۱۸۰۹ و ۱۸۱۰ م وبداية سنة ۱۸۱۱ م تمّ بناء ثمان وعشرين سفينة مختلفة الأحجام تتراوح حمولة الواحدة منها بين مائة ومائتين وخمسين طناً ؛ وذلك في ميناء السويس . وقد وجد في ذلك العمل حوالي ألف عامل ؛ بينهم بونابيون وأوربيون آخرون ، وظائف ثابتة . وكانت الأخشاب المعدّة في بولاق قرب القاهرة تحمل على الإبل عبر الصحراء إلى ذلك الميناء . وقد أعدت فيه حينذاك مستودعات كبيرة للقمح والبسكويت وغيرهما من المؤن . وبما أنه لم يكن من السهل أن ينقل في مثل تلك السفن جموع من الفرسان عبر بحر خطر فقد كان ضرورياً أن يؤمن مسيرهم عن طريق البر . فرممت كل القلاع التي على طريق الحج بين القاهرة وينبع ، وهي عجرود ونخل والعقبة والمويلح والوجه ، ووضعت فيها حاميات معظم أفرادها من المشاة المغاربة المعتادين جيداً على التعامل مع البدو . وأغدقت الهدايا على أولئك الذين يعيشون جوار القلاع المذكورة ليدعموا بإبلهم ويحضروا المؤن من القاهرة لتوضع في غرف مستودعات تلك القلاع .

وفي الوقت نفسه أنشئت مخازن للقمح في القصير . لكن هذا الميناء لم تكن له في بداية الحرب تلك الأهمية التي أصبحت له بعد ذلك كمحطة تموين لأنه أقرب كثيراً إلى الحجاز من ميناء السويس ، الذي بقي مجرد ميناء تجاري للقاهرة .

وحين سمع الشريف غالب بأن تلك التجهيزات العظيمة لغزو الحجاز قد عملت ، وأن لدى محمد علي مصادر أكثر مما لدى أيّ باشا آخر حاول دخول هذه البلاد ، استحسن أن يبدأ مراسلات سرّية معه ، وأن يؤكد له أن الظروف التي لا يمكن مقاومتها قد اضطرته إلى عناق الوهابية ، لكنه مستعد أن يتخلص من نيرها بمجرد ظهور جيش تركي كبير على ساحل الحجاز وفي أثناء تلك المراسلات أمدّه بمعلومات عن حالة الوهابيين الحقيقية وقوتهم ، وميول بدو الحجاز . والطريقة المثلى للهجوم

وقد عهد محمد علي إلى سرّ تجار القاهرة ، السيّد محمد المحروقي ، الذي كان يتردّد على مكة ومهتماً بتجارة البحر الأحمر ، بتوجيه سياسي للحرب وكل الترتيبات الضرورية مع بدو المنطقة ولا شك أن للمحروقي دوراً كبيراً في النجاح النهائي لتلك الحملة . وكان محمد علي ذا شخصية يسيطر عليها الشك ولذلك لم يضع ثقة كبيرة في تأكيدات غالب الذي كانت مواهبه الذكية الماكرة مشهورة جداً لكنه أصبح ضرورياً أن يزيل مخاوفه كي يتقبّل عازٍ أجنبياً . وكان أفضل الوعود التي وعده إياها أن سلطته في الحجاز ستكون محترمة ، وأن جمارك جدة ؛ المصدر الأساسي لدخله ، ستترك في يده وقد تشجع الجنود ، الذين كانوا مهيبين للذهاب في الحملة ، بتقارير أشيعت سراً بينهم تفيد بأن الشريف غالباً سينضم إليهم بكل قوته عند وصولهم إلى الحجاز .

ولم تكن حالة مصر بعدُ هادئة بدرجة كافية لتسمح بغياب محمد

علي نفسه عنها . فالمماليك في الجزء الجنوبي من الصعيد لا يزالون يواصلون حرباً مضايقة لحدوده . ولذلك أسند إلى ابنه الثاني ، طوسون بك البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، قيادة الحملة الأولى ضد الوهابيين . وبعد كثير من التأجيل أصبحت تلك الحملة مستعدة لمغادرة مصر ، وذلك في نهاية أغسطس سنة ١٨١١ م. وقد برهن طوسون بك وهو لا يزال صغيراً على شجاعته الفائقة في حرب المماليك — والشجاعة صفة نادرة بين الجيل الحاضر من العثمانيين المتمصرين ، وأكثر ندرة في أسر الباشوات — . ولذلك فإن أصدقاءه اعتقدوا أنه كفوٌ لأصعب مهمة . وأرسل مع طوسون بك خازندار محمد علي ، أحمد أغا ، الذي كان قائداً يساويه شجاعة ويفوقه رزانة . وكانت إنجازاته الدموية في الحروب ضد المماليك وعرب مصر قد رفعته في عيني سيده، كما كان استخفافه بالحياة الإنسانية ، واحتقاره لكل المبادىء الأخلاقية ، وتبجحه التافه ، قد أضفت عليه لقب بونابرت الذي جلب له كثيراً من البهجة ، والذي عرف به إجماعاً في مصر* .

ولا ينكر أن أحمد أغا كان جندياً شجاعاً لكن السكر والشهوات القذرة قد حرما عقله من كل نشاط وتمييز .

وقد ضمّ إلى القائدين ، طوسون بك وأحمد أغا ، المحروقي الذي أشير إليه سابقاً ، والذي كانت مهمته التفاوض الدبلوماسي مع الشريف والبدو . وذهب مع الحملة ، أيضاً ، عالمان كبيران من علماء القاهرة :

* لدي بعض الخطابات الأصلية المرسلة إليه من الزعيم الوهابي وقد خوطب فيها « بأحمد أغا بونابرت » (المؤلف)

هما الشيخ المهدي والشيخ الطهطاوي ، ليجعلا بعلمهما الغزير ــ كما يقال ــ الوهابيين يعترفون بالأخطاء التي اتّبعوها في عقيدتهم الجديدة .
وكانت تلك الحملة تتكوّن من قسمين : المشاة ؛ وهم بصفة رئيسية من الجنود الأرناؤوط ، ويبلغ عددهم ألفاً وخمسمائة أو ألفي رجل مدرّب ، بقيادة صالح أغا وعمر أغا . وقد أبحروا من السويس إلى ينبع ، وأخذوا معهم كل السفن المبنية حديثاً تحمل المؤن . والفرسان مع طوسون بك وأحمد بونابرت ؛ وعددهم حوالى ثمانمائة رجل من الخيّالة الأتراك والبدو المستخدمين بقيادة ابن شديد شيخ قبيلة الحويطات وقد ساروا عن طريق البر .

وفي أكتوبر سنة ١٨١١ م وصل الأسطول إلى قرب ينبع . ونزل الجنود إلى الشاطئ على بعد قليل من البلدة . واستسلمت لهم بشروط بعد مقاومة ضعيفة استمرت يومين . وبعد ذلك بأسبوعين وصل إليها الفرسان براً دون أن يجدوا معارضة من القبائل البدوية ، التي اجتُذبت بمبالغ مالية كبيرة . وقد عُدّ الاستيلاء على ينبع أول انتصار على الوهابيين ، ورمزاً لنجاح الحملة مستقبلا . وبقي الجنود هناك عدة شهور دون نشاط ؛ المشاة في ينبع البحر ، والفرسان مع البدو في ينبع النخل التي تبعد عن الميناء ست ساعات والتي هي المركز الرئيسي لعرب جهينة . وقد استُغرق ذلك الوقت في مفاوضات . ذلك أن طوسون بك لم يجد الحجاز إطلاقاً في الحالة التي توقعها من خلال ما صوّره الشريف غالب . فبدو هذه البلاد ؛ خاصة القبيلتين الكبيرتين حرباً وجهينة ــ مهما كانت كراهيتهم للوهابيين ورغبتهم في العودة إلى المشاركة في

الإتاوات والمكاسب من قوافل الحجاج الأتراك — كانوا مذعورين تماماً من قوة سعود وبطشه . ولذلك لم يجرأوا على الحركة ما دام الأتراك لم يحصلوا على مكاسب حربية واضحة تعطيهم أملاً في نجاح حتمي إذا انضموا إليهم . فلم يعدّوا الاستيلاء على ينبع وحده ذا أهمية كبيرة في مسيرة الحرب رغم أنه كان من المفيد جداً للأتراك أن يكون لديهم مكان من رسو سفنهم ومحطة لمستودعاتهم .

وكان في ينبع عند وصول الحملة التركية إليها حامية وهابية . لكن كان فيها الشريف غالب حاكم وحوالي مائتي جندي . وقد حاول الوهابيون أن يقاوموا الحملة ، لكن السكان اضطروهم إلى التقهقر خوفاً من تعريض المدينة لهجوم الأتراك الأجلاف ، واعتقد منهم أنه من الحكمة أن يستسلموا للأمر الواقع . ووقف الشريف غالب موقف المتفرج عند بداية الحرب . فكتب إلى طوسون بك رسائل يعتذر فيها عن عدم التحاقه به بحجة صغر حجم قوته وخوفه من الوهابيين . لكنه صرّح له بوقار أنه سيرمي القناع ويهاجمهم علناً بمجرد حصول الأتراك على أية مكاسب حربية مهمة قد تضمّ إلى جانبهم كل بادية الحجاز . وفي الوقت نفسه قام بوضع حاميتين قويتين في كل من جدة ومكة . وحين حثه سعود على الالتحاق به ضد الغزاة اعتذر بأنه يخشى هجوماً بحرياً مفاجئاً على جدة قد يؤدي إلى الاستيلاء على مكة ذاتها .

ومن الواضح أن خطة الشريف كانت إما أن يساير الظروف ثم يقف ضد الفريق الذي يتلقى أول هزيمة واضحة ، أو ينتظر حتى تنهك الحرب كلا الفريقين ثم يطردهما معاً من بلاده . وكان الوحيدون من بدو

الحجاز الذين استطاع طوسون بك أن يجتذبهم من الوهابيين إلى صفه فروعاً قبيلة من جهينة التي تسكن في جوار ينبع. لكن القسم الأكبر من تلك القبيلة وكل قبيلة حرب المجاورة لها بقوا غير مبالين بإغراءاته.

وأصبح من الضروري، على أية حال، أن يبدأ طوسون بك بالتحرك لئلا يعدّ كل من سكان الحجاز والعدوّ عدم حركته نتيجة خوف، ومفاوضاته علامة ضعف. وكان تقدمه صوب مكة أو جدة سيجعل الشريف، الذي يحكم هاتين المدينتين، إلى أن يعلن فوراً أنه مع هذا الفريق أو ذاك. وكان طوسون بك يخاف من وقوف الشريف ضده أكثر من خوفه من الوهابيين. وبذلك اتجه نظره إلى المدينة، التي تبعد ستة أيام عن ينبع. وكانت تعدّ دائماً أحسن مدن الحجاز أسوار، وتحصيناً حصينة تلك المنطقة ضد نجد، كما كانت حينذاك معقل الوهابيين. ولهذا فإن الاستيلاء عليها قد يفتح طريق الحج السوري أو يعرقل مروره، وفقاً لاتجاهات من يمتلكها. وكان الاستيلاء عليها، أيضاً، سيجعل عدداً من البدو ينضمون إلى الجيش الغازي. وحين علم غالب بأن هذه هي خطة طوسون بك وعد رسمياً بأنه سيعلن وقوفه ضد سعود متى تمّ ذلك الاستيلاء.

وبعد أن ترك طوسون بك حامية في ينبع تقدم مع جنوده في يناير سنة ١٨١٢ م صوب المدينة. وبعد مناوشات قبيلة دخل بدراً؛ وهي قرية تبعد يومين عن ينبع وتسكنها قبيلة حرب. وتقع هذه القرية عند مدخل الجبال التي كان من الضروري اجتيازها للوصول إلى المدينة. وكان متوقعاً أن تحدث مقاومة من قبيلة حرب التي تسيطر على الممرات

عبر تلك الجبال. لكنه لم يعلم بوجود قوات وهابية هناك. وقد ترك طوسون تلك حامية صغيرة في بدر، وتقدّم بجيشه إلى الصفراء، وهي سوق لقبيلة حرب تبعد ثماني ساعات عن بدر. وبعد قتال قصير مع رجال من تلك القبيلة هناك تراجع أولئك الرجال. وعلى بعد أربع ساعات من الصفراء تمتد الطريق عبر ممرّ ضيّق يتراوح عرضه بين أربعين وستين ياردة في جبال وعرة شديدة الانحدار تقع على مدخلها قرية الجديدة التي تحيط بها مزارع النخيل والتي هي المستوطنة الرئيسية لقبيلة حرب. وكانت قوافل الحج السورية في الماضي غالباً ما اضطرت إلى دفع مبالغ كبيرة من المال إلى تلك القبيلة لتسمح لها بمرور آمن.

وفي ذلك الممرّ الضيّق الذي يمتد طوله ساعة ونصف الساعة فوجيء الجيش التركي بهجوم قوة موحدة من قبيلة حرب. وبعد عدة مناوشات ظن الأتراك أنهم قد حرروا قصب السبق، فتعقبوا العرب إلى وسط ذلك الممرّ. وسرعان ما وجدوا فجأة أن الجبال من كل جانب مغطاة بالجنود الوهابيين الذين وصلوا قبل ذلك بيوم من نجد، والذين لم يكن لدى الأتراك عنهم أية معلومات. وكان الوهابيون بقيادة عبد الله وفيصل، ابني سعود، وعددهم يصل إلى عشرين ألفاً من المشاة وراكبي الإبل؛ إضافة إلى خيّالة يتراوح عددهم بين ستمائة وثمانمائة فارس. ولو انسحب الأتراك إلى قرية الجديدة، وتحصنوا فيها لكان من المحتمل أن يصدوا الهجوم ويحصلوا على شروط مشرّفة؛ إذ أن عدد قوات العدوّ قد جعل من المستحيل عليهم أن يبقوا طويلاً في ذلك الموقع.

وعلى أية حال فإن المشاة الأتراك انسحبوا عند أول صيحة

بالهجوم، وسرعان ما تعمهم في الهروب الفرسان الذين أمروا أن يعطوا أصحابهم في حين قاد عدوهم الذكي بالضغط عليهم من الخلف وتحاوره من الأمام على طول جانب الجبل. وأمطرهم بوابل من الرصاص. وفي هذه الظروف الحرجة لم يفقد طوسون سمعته في ميدان الشجاعة ، بل تصرف تصرفًا أصبح شرفًا له . فبعد أن ضاعت جهوده حشد حوله سوى بضع مئة من حاشيته إلى مؤخرة الجيش . واحترق صفوف العدو يعيقه من تتبع قواته

وقد أكد لي أنس حضروه تحت الموقعة أن طوسون صاح بالأتراك المهزومين والدموع تنهمر من عينيه قائلا « ألا يبقى أحد مكث معي ؟ »

وأخيراً التحق به حوالي عشرين فارساً وتحمس لحظ حينما انشغل الوهابيون فترة قصيرة في جمع أمتعة الجيش ، مما أخر تعقبهم للمنهزمين ، ووصل الأتراك إلى الأرض المكشوفة الواقعة خلف مدخل الممر الضيق ، احتشد فرسانه ، وحموا بقية الجيش إلى حد ما . ولو اندفع الوهابيون بحماس إلى الأمام فوق الجبال لقضي على الجيش التركي كله بكامله ، على أية حال ، وضعوا بأيديهم كل أمتعة الأتراك ، وأربعة مدافع ميدان ، وكل إبلهم تقريباً ، وكثير من الغنائم الأخرى التي وجدوا في أحزمة الأرناؤوط الذين أعموا أنفسهم بما سلبوه من المماليك في مصر . وقد قتل في ذلك اليوم حوالي ألف ومائتي رجل . وتراجع طوسون بعد ذلك إلى بدر . ولفقدانه لوسائل النقل أحرق المعسكر الموجود هناك ، وترك حربته العسكرية ثم عاد إلى الساحل القريب منه حيث يرسو عدد من سفنه

في خليج يسمّى البُريكة وهنا أبحر مع عدد قليل من أتباعه ، واتجه إلى ينبع أما بقية جنوده فوصلوا إلى هذه البلدة بعد أيام قليلة في حالة سيئة جداً . لكن من حسن حظهم أن الوهابيين ، الذين ظنّوا أن حشوداً تركية قوية كانت متحصنة في بدر ، لم يتابعوا نجاحهم على الفور فاستطاع كل من كان قوياً أن يواصل سيره ويصل أخيراً إلى ينبع .

وحينما علم الوهابيون أن أعداءهم قد احتموا بينبع أرسلوا فئات من جنودهم تطوف بالمنطقة حتى أسوار تلك البلدة ذاتها . وما أن تلقى شريف غالب من عيونه خبر فشل الحملة التركية حتى التحق بالوهابيين بنفسه عند بدر وقد رأى هؤلاء في بداية الأمر أن يجتاحوا ينبع لكنهم عدلوا عن هذا الرأي خوفاً من السكان العرب الذين سيستميتون في القتال ، دون شك ، لأنهم ناصروا الأتراك بمودّة وصحبة وقد وجد الوهابيون أنه من غير الضروري أن يستمروا في تطويق البلدة ، فانسحبوا إلى الداخل وهم في حالة استعداد للتجمع مرة أخرى بسرعة إذا ما تجرأ الأتراك ثانية أن يقودوا جيشاً إلى داخل البلاد المكشوفة . وتركوا مهمة حرب تضييق الأتراك ، كما قطعوا كل الإمدادات عن ينبع

وعوداً إلى قصة تلك الظروف الحرجة التي وجد طوسون نفسه فيها ، وذلك حينما تخلّى عنه كل أتباعه عدا فارسين ، يجب أن أسجل ، هنا ، حكاية نادرة عن أحد هذين الفارسين الشجاعين ، وهو المسمّى إبراهيم آغا الذي كان رئيساً للمماليك الذين مع طوسون . كان ذلك الشجاع فتى عمره حوالى عشرين سنة . وهو من أدنبرا ، واسمه الأصلي توماس كيث . وكان قد أخذ أسيراً في الحملة الانجليزية الأخيرة

على مصر مع عدد آخر من فرقته الثانية والسبعين من الهايلندرز التي كان
يعمل فيها مصلحاً للبنادق . ثم أسلم ، واشتراه أحمد بونابرت المذكور
سابقاً من الجندي الذي أسره . وذات يوم أهان هذا الفتى الاسكتلندي
مملوك صقلي محبوب لدى سيده ، فتشاجرا ، وسلا سيفيهما ، ثم سقط
الصقلي ميتاً . وهرب إبراهيم آغا من غضب أحمد بونابرت ، فطلب
حماية زوجة محمد علي . فأنجدته ، وجعلت ابنه طوسون بك يضمه إلى
خدمته . وفي نوبة من نوبات الغضب الشديدة التي غالباً ما يتعرّض لها
الأمراء الأتراك أمر طوسون بإعدام الفتى الاسكتلندي لإهمال بسيط حدث
في أداء واجبه . لكن ذلك الفتى الشجاع دافع بسيفه عن مدخل حجرته
مدة نصف ساعة ضد عدد من المهاجمين . ثم ألقى بنفسه من النافذة ،
وهرب مرة أخرى إلى حاميته العطوف التي أصلحت فوراً بينه وبين ابنها
ومع الأيام أصبح طوسون مدركاً لجدارة إبراهيم كجندي مقدام ، وجعله
رئيساً للمماليك الذين لديه . وبعد عمله الشجاع في الحديدة رفعه إلى
منصب صاحب الخزانة . الذي يحتلّ المكانة الثانية في البلاط . وقد
حارب مرة أخرى ببسالة في المدينة وفي تُربة ، التي سيأتي ذكرها . وعيّن
حاكماً للمدينة في أبريل سنة ١٨١٥ م . وبعد شهرين من ذلك التاريخ
خرج مع مائتين وخمسين فارساً لنجدة طوسون ، الذي كان معسكراً
في القصيم . لكن عدداً كبيراً من الوهابيين فاجأه ، وحطّمه هو ومن كانوا
معه . وفي هذه الحادثة قتل الفتى الاسكتلندي أربعة من الوهابيين بيده .
وقد اعترف عبد الله بن سعود أن طوسون بك وصاحب خزينته المخلص
كانا أشجع رجال الجيش التركي .

وقد ثبّطت الخسائر التي تكبّدها الجود الأتراك هممهم تماماً . فأعلن كل من صالح أغا وعمر أغا ، قائدي المشاة ، أنه لا يستطيع أن يواصل الحرب في الحجاز . ولذلك رأى طوسون بك أن يعيدهما إلى مصر ، فعادا إلى القصير . وفي طريقهما من هناك إلى القاهرة عززا فيلقيهما بعدد من الأفراد الناقمين على الباشا . وحينما اقتربا من تلك المدينة كان لهما موقف مهيب جعل محمد علي يرى من الضروري استخدام كل حيله ؛ بالتهديد وبالهدايا ، لإخراجهما من مصر . وكان كل منهما قد نهب أعني مناطق الصعيد ، فأبحرا من الاسكندرية بثروات كبيرة .

وكان عدد الخيل لدى جيش طوسون بك قد نقص كثيراً بسبب ارجحة البرية الشاقة قبل وصوله إلى ينبع . ثم تخلّى عنه أكثر الفرسان لسوء التدبير ودفعه . وقد قتل حوالي مائتين من جنبه في الجديدة . وحين عاد الجيش إلى ينبع لم يرد ما استطاع جمعه على ذلك العدد . وقد أحرت ندرة الطعام أصحاب هذه الخيول الباقية ، أيضاً ، على بيعها . وأعيد الرجال إلى القاهرة لكي يُمدّوا من جديد بخيول أخرى . وما أن علم محمد علي بفشل ابنه طوسون حتى بذل كل جهوده ليعوّض خسائره ويجهز حملة جديدة . فأرسل مبالغ كبيرة من المال إلى ابنه ليوزّعها على مشائخ البدو المجاورين ؛ آملاً أن يبعدهم عن الوهابيين . واستمرت تلك الجهود طيلة ربيع سنة ١٨١٢ م وصيفها ؛ حيث كانت الإمدادات من الجنود والذخائر تصل يومياً إلى ينبع . ونجح المحروقي أخيراً بالذهب في كسب عدد كبير من قبيلة حرب ؛ خاصة الفرعين القويين من تلك

القبيلة : بني سالم وبني صبح ، اللذين يحتلان ممرّ الصفراء والحديدة ظل إلى الشريف عائداً حينما اقتنع بأن محمد علي قد قرر أن يطيل النضال عاد إلى أسلوب سياسته القديم ، فأكد لطوسون بك أنه لم يلتحق بالوهابيين في بدر إلا لخوفه منهم ، وحدّد عرضه بفتح أبواب جدة ومكة لجنود الأتراك بمجرد أخذهم للمدينة

وفي أكتوبر سنة ١٨١٢ م اعتقد طوسون أنه قادر على أن يقوم بمحاولة ثانية للاستيلاء على المدينة . فالبدو الذين في الطريق إليها قد أصبحوا أصدقاء له . وكثير من أفراد قبيلة جهينة انضموا إلى لوائه واستخرجت تقييدات بأن الوهابيين ظلوا غير نشطين في نجد . ورفع كل ما ذكر أمله في النجاح . فنقل مركز قيادته إلى بدر . وتولّى أحمد بونابرت قيادة الجنود الذين تقدموا إلى المدينة عبر ذلك الممرّ الذي كان مسرحاً لهزيمتهم السابقة . وعبروا الممرّ بأمان ، فتركوا حامية قوية في الحديدة ، ووصلوا إلى أسوار المدينة دون أية اشتباكات

وكانت حامية وهابية تسيطر على المدينة وقلعتها منذ السنة الماضية . وقد ملأتها بالمؤن استعداداً لحصار طويل . أما زعيمهم فبقي في الانحجار ساكناً سكوناً يصعب تفسيره . لكن النصر في الحديدة قد مدّ نفوذه على كل العرب الشماليين . وفي سنة ١٨١٢ م أخذ الزكاة من البدو القريبين جداً من بغداد وحلب ودمشق . وبعد أن باع في مكة الغنائم التي حصل عليها في الحديدة عاد إلى الدرعية . وقد تباهى جنوده بانتصارهم ، واحتقروا الأتراك كثيراً لتصرفهم الجبان في الحديدة ، واعتقدوا أن في إمكانهم أن يهزموهم مرة أخرى في أي وقت . ومن

المحتمل أن سعوداً قد توقع أن المدينة ستقاوم طويلاً ، وأن الحاجة إلى
المؤن ستضطر الأتراك إلى التقهقر . ومهما كان الأمر فإنه نسي أن قبيلة
حرب ستتخلى عن حلفائها الأجانب الذين يمكن بالتالي أن يقضي عليهم
بسهولة .

وبعد مناوشات مع الوهابيين أمام المدينة دخل على إثرها أحمد
بونابرت ضواحيها ، وطرد أعداءه إلى داخلها . وعند اقتراب الأتراك منها
أخرج الوهابيون منها كل سكانها ، فاستقر هؤلاء في الضواحي ، ولعبوا
دوراً فعّالاً في المناوشات الأولى ضد المتمسكين من الوهابيين . وكان
داخل المدينة محمياً بسور قوي مرتفع وقلعة محصنة لم يكن لدى الأتراك
ما يقذفونها به إلا مدافع ميدان خفيفة . وبعد حصار دام أربعة عشر أو
خمسة عشر يوماً قام الوهابيون خلالها بعدة ضربات جريئة وضع الأتراك
لغماً بطريقة مكشوفة بحيث وجد أعداؤهم وسائل لإبطاله وتخريب
عمله . ثم حاول الأتراك النجاح في منتصف نوفمبر سنة ١٨١٢ ،
بوضع لغم ثانٍ نسف جانباً من السور بينما كان الوهابيون يؤدون صلاة
الظهر . وتدفق الأرناؤوط بسرعة إلى داخل المدينة . ونتيجة لهذه المفاجأة
هرب الوهابيون متجهين إلى القلعة . لكن حوالي ألف منهم قتلوا في
الأسواق ، ونهبت المدينة كلها ، ولم يقتل من الأتراك إلا خمسون
رجلاً . وقد أثبت الاسكتلندي توماس كيث ، أو إبراهيم آغا ، حسن شجاعته
المعتادة في هذه المناسبة ؛ إذ كان أول من دخل الثغرة التي أحدثها
اللغم . وكان عدد من لجأ إلى القلعة من الوهابيين حوالي ألف وخمسمائة
رجل . ولم يستطع الأتراك أن يأخذوا تلك القلعة ؛ إذ لم تكن لديهم

مدفعية كافية وصمد بناؤها ، الذي يقع على صخرة صلدة ، ضد أي نعم لكن بعد ثلاثة أسابيع انتهت مؤن الوهابيين ، فاستسلموا على أن يمنحهم أحمد بونابرت الأمان. ووافق هذا القائد ، أيضاً ، على أن يحملوا معهم كل أمتعتهم ، وأن يمد بالإبل كل من يرغب في العودة إلى نجد .

وحين خرج رجال حامية من القلعة لم يعدوا إلا خمسين بعيراً بدلاً من ثلاثمئة بعير التي وعدوا بها لترحيلهم وسلك صطوري أن يتركوا جزءاً كثيراً من أمتعتهم ، وأن يحملوا على ظهورهم أغلى شيء لديهم لكن ما أن غادروا أطراف المدينة حتى لحق بهم الجنود الأتراك ، وجردوهم مما معهم ، وقتلوا كل من استطاعوا أن يصلوا إليه . ولم يتمكن من الهرب إلا عدد قليل منهم ، إضافة إلى أولئك الذين كانوا على ظهور إبل. وكان أغلب هؤلاء عرفة من قبيلة عسير التي تسكن جنوب مكة ، والتي أبدت فيما بعد مقاومة عنيفة لمحمد علي . وكان أحد قادتهم صالح بن صالح ، وهو من بغداد ، سعيد الحظ ، إذ عاد إلى بلاده . أما مسعود بن مضيّان ، الذي جعله سعود شيخاً لكل قبيلة حرب ووضع تحته عدداً من القبائل الأخرى ، فكان قد رغب في ألّا يقفل على نفسه داخل المدينة. وذهب مع أسرته وأربعين رجلاً من أتباعه إلى بيت في بستان كان قد حصّنه على بعد ساعة من تلك المدينة وتما أخذت المدينة استسلم على شرط الأمان له ولأسرته ولأتباعه الذين معه ، والاحتفاظ بأمتعتهم . وهيىء لسكناه بيت في ضاحية المدينة حيث وضع أسرته وأشياءه لكن حينما استسلمت القلعة ، ودبح أكثر رجال الحامية نهب الأتراك بيته وقتلوا أبناءه ورجاله ، وقيدوه بالسلاسل ، وأرسلوه إلى ينبع

وفي أثناء مروره عبر بدر تمكن من الهروب تحت جنح الظلام إلى الجبال، ونجا إلى بدو من قبيلة حرب. لكن ذهب الأتراك أغرى هؤلاء، فسلّموه إليهم بعد ثلاثة أيام. ثم أرسل من ينبع إلى القاهرة، ومن ثم إلى القسطنطينية حيث قطعت رأسه. وكان زميله في المغامرة في تلك المناسبة حسن القلعي، المذكور سابقاً، والذي اغتصب حكم المدينة قبل أن يأخذها الوهابيون.

وكان تصرف الأتراك الغادر في المدينة جزءاً غير حكيم. ذلك أنهم كانوا يتحاربون مع عدو مشهور بتمسكه الشديد بنسبة لطيفة في تنفيذ وعده بالأمان متى ما وعد به. وقد ثار ذلك التصرف اشمئزاز كل بدو كما وصفه، مع تصرفات أخرى مشابهة له والتي سنذكرها فيما بعد، اسم الأتراك بالعار في كل الحجاز. وجمع أحمد بونابرت، أسلوب نابليون الحقيقي، جماجم كل الوهابيين الذين قتلوا في المدينة، فكوّن منها برجاً في الطريق الرئيسية إلى ينبع، ووضع حرساً قربه. ومع ذلك نجح العرب، وحتى سكان المدينة، من وقت إلى آخر في إزالة ذلك التذكار المرعب. وحين وصلت إلى المدينة في سنة ١٨١٥ م لم يكن قد بقي منه إلا القليل.

وبعد أخذ المدينة تقدّمت حملة مكونة من ألف فارس وخمسمائة جندي من المشاة عن طريق ينبع صوب جدة ومكة. وكانت بقيادة مصطفى بك، صهر محمد علي. وكان مثل أحمد بونابرت قد ميّز نفسه بقسوته البربرية تجاه المصريين الثائرين الذين حاربهم محمد علي في مناسبات عدة. وقد عيّن حاكماً للمنطقة الشرقية حيث قضى هناك

على فريق كامل من الجنود، وأحرق كثيراً من القرى. وكثيراً ما افتخر قائلاً: «إن من سيموتون تحت عصيّ جلاده سيكونون أكثر ممن يموتون في إحدى زوجاته تحت بأ كل يوم من أيام السنة».

وكان سقوط الطائف مثيراً للشريف غالب. ولعله كان يرغب في التخلص من الوهابيين. وكان يعتقد، حينئذ على الأقل، أن العثمانيين عليهم. وقد بعث رسلاً إلى مصطفى بك يدعوه إلى الطائف تابعة له وإن مصطفى بصحبة مئات من الرجال إلى جدة في حين تقدمت الفيالق الرئيسية صوب مكة، التي كان يوجد فيها قوات وهابية مقيدة لمصطفى لكن هذا الأخير وجد نفسه لا يملك قوة كافية لخوض معركة. فانسحب إلى الطائف قبل ساعات قليلة من دخول مصطفى إلى مكة، وذلك في يناير سنة ١٨١٣ م. وقد احترمت ممتلكات المكيين، كما احترمها الوهابيون قبل ذلك. والصعم عاث عندئذ إلى الأتراك لأكثر من ألف رجل من العرب والعثمانيين السود. وبعد أسبوعين من تحرير مكة هوجمت الطائف؛ على بعد ثلاثة أيام شرقاً. وحدثت بعض المناوشات أمامها. فهرب منها المضايفي، ودخل الشريف غالب ومصطفى بك هذه البلدة التي احتفظ بها الوهابيون عشر سنوات، والتي عانت أكثر مما عانته أية بلدة أخرى في الحجاز

في نشوة الانتصار ونشوة سيد عسير الطائف عدّ مصطفى بك نفسه قادراً وحده على إخضاع الوهابيين. وكانت بلدة تُربة، التي تبعد عن الطائف حوالي سبعين أو ثمانين ميلاً باتجاه الشرق، أحد المراكز الرئيسية التي تصل الوهابيين في نجد بالوهابيين في الجبال اليمنية وكان يسكنها عرب البُقوم. ومنذ حروب الوهابيين مع الشريف غالب حصنوا مدينتهم بسور وخندق. وزاد من حصانتها غابة الأشجار النخيل الكثيفة التي تحيط بها. وقد اتجه إليها مصطفى بك، لكنه وجد مقاومة في المناطق المحمية، واضطر إلى العودة إلى الطائف بعد أن خسر أربعمائة أو خمسمائة رجل من جيشه. وفي غضون ذلك لم يكن عثمان المضايفي مع فرسانه حقيقي الحركة يقف موقفاً سلبياً. فقد كان يتحرك في المنطقة من كل جهة، ويقضي على كثير من الأتراك التائهين، وغدا ما قطع المواصلات مع مكة. وكان خلال صيف عام ١٨١٢ م كله يضايق حامية الطائف كثيراً[2]. وقد وعد الشريف غالب، الذي كان

(١) يقصد المؤلف تحت حدث منطقة عسير وما بينها مما دخل تحت الحكم السعودي، لا الجبال التابعة لحكومة اليمن

(٢) من الواضح أن هناك خطأ في ذكر سنة ذلك. دخول مصطفى بك مكة كان في يناير سنة ١٨١٣ م. وما حدث من نشاط عثمان ضد حامية الطائف كان بعد ذلك الدخول. فلا يمكن أن يكون حدث سنة ١٨١٢ م. بل المرجح أنه حدث في السنة التالية لها

مثل عثمان لديه فرسان من البدو ، بخمسة آلاف دولار جائزة للقبض على المضايفي . وكانت عداوته الشخصية لصهره ، الذي كان السبب الأساسي لكل متاعبه مع الوهابيين ، هي التي طغت ، هنا ، على ما اتخذه من قرار . ولم يدرك أن البدو قرب مكة إذا فقدوا دعم الزعيم فإن الأتراك سيجدون من السهل عليهم أن يوطّدوا مركزهم في البلاد ، ويحرموه هو من سلطته .

وقد توقّف المضايفي في إحدى جولاته عند بسْل ، وهي قلعة صغيرة سبق أن ساهم في الجدال ، وتبعد عن الطائف أربع أو خمس ساعات شرقاً . ولما علم الشريف بوجوده هناك بعث إليه من الطائف جماعة قوية من الجنود ، فأحاطوا بالقلعة . وبعد ذلك بقليل أشعلوا فيها النار . واندفع المضايفي مع حوالي ثلاثين رجلاً ؛ مرتدين ثياباً تشبه ثياب الطبقة الدنيا من البدو ، إلى أفراد العدوّ ، فشقوا طريقهم من بينهم . لكن فرسه أصيبت ، ولم تقدر على حمله بعيداً . فسار حينئذ على قدميه ، وهرب من متعقّبيه . ولجأ في اليوم التالي إلى خيمة بدوي من عتيبة . لكن هذا البدوي قبض عليه ، وحمله إلى الشريف ، الذي دفع الجائزة التي وعد بها إلى البدوي ، وأثقل أسيره بالقيود . ثم بعث المضايفي إلى جدة فالقاهرة ، ومن ثم إلى القسطنطينية حيث قدّم أصغر أبناء محمد علي هذا الأسير النبيل إلى مولاه مع مفاتيح المدينتين المقدّستين وكثير من الأشياء الثمينة . وقد قتل المضايفي فور وصوله إلى هناك . وبذلك فقد الوهابيون

نشطوا وحرضوا الموالين لهم في الحجاز. وكان أسره في سبتمبر سنة ١٨١٢ م.

وأصبحت الحجاز حينذاك على الطاعة، واستعيدت المدينتان المقدستان. ووصلت قافلة الحجاج من القاهرة إلى مكة في نوفمبر سنة ١٨١٢ م (١) بكل أبهتها المعتادة، وأدت الحج بشعائره الواجبة. وتحولت قافلة الحجاج السورية بعد أن تعذر السفر، لأن القلاع التي في الطريق [illegible] تابعة لهم [illegible] الصلح. كما أن محاربيهم [illegible] بعد [illegible]. وقد عاد أحمد بونابرت إلى القاهرة، أما طوسون بك فبقي حتى عين [illegible] حجة. فلما أتى إلى مكة حج في شتاء سنة ١٨١٢ م (٢) وترك ديوان [illegible]. [illegible] موظفي باشا محمد علي، حاكماً للمدينة.

ومع أن مدن الحجاز الخمس (٣) أصبحت حينئذ في أيدي الأتراك وبين قوة الوهابيين لم تحطم، فكل القبائل شرق الحجاز التي تخترق بلادهم القوافل إلى الجنوب الشرقي محاذية للبحر، لا تزال تعترف بسيادة سعود. وكانت قوى الأتراك تبدو في أرض مكشوفة عرضة لهجمات تصرف الشريف المقيم إطلاقاً في نفوس حلفائه. وفي ظل هذه الظروف اعتقد محمد علي أنه من الضروري أن يزور شخصياً أرض المعركة. وبضربة صارمة يمكن أن تنهي سلطته في الحجاز على قدم

---

(١) الصحيح أن هذا حدث كان في سبتمبر سنة ١٨١٣ م. كما هو واضح من سياق الكلام. وقد [illegible] من نص [illegible] في العاشر من رمضان سنة ١٢٢٨ هـ. انظر **عنوان المجد**، ج [illegible] ص ٢٦٨ ورمضان من السنة المذكورة يوافق شهر سبتمبر سنة ١٨١٣ م

(٢) والصحيح أن ذلك في سنة ١٨١٣ م، لأنه [illegible]

(٣) مدن الحجاز الخمس هي: مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف

راسخة ، وتمكّنه من أن يضيف إلى نفسه كل فضيلة فتحها . ومن المعلوم أن سيّده أمره بشكل حاسم أن يضع نفسه على رأس القوات في تلك البلاد . وبما أن مصر قد أصبحت منذ سنة ١٨١١ م خاضعة له تماماً فإنه لم يبق له عذر في عصيان الأوامر . وقد طردت بقية المماليك الضعيفة من الصعيد ، واستقرت في دنقلة . وكان أحمد آغا لاظ ؛ وهو زعيم أرناؤطي مشهور وحاكم لمدة قنا ، الرجل الوحيد الذي له نفوذ بين الجنود ، والذي يشك الباشا في مخططاته . فاستدرجه إلى القاهرة . وكان قتله له دليلاً آخر ، إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل ، على مدى قسوة حزم محمد علي لما يصحبه من وعود بالأمان . وعند مغادرة الباشا القاهرة جعل حسين بك حاكماً لها ولوجهه البحري ، كما جعل ابنه الأكبر ، إبراهيم بك ، حاكماً للصعيد . وكان كل من الرجلين ذا مواهب كبيرة ؛ حسين بك في الأمور العسكرية ، وإبراهيم باشا في الإدارة المدنية .

وأبحر محمد علي من السويس مع ألفين من المشاة بينما سار ، في الوقت نفسه تقريباً ، جيش من الفرسان مساوٍ لذلك العدد ومعهم ثمانية آلاف بعير . وكان طوسون بك مشغولاً بجمع قوته في مكة حينما وصل أبوه إلى جدة في سبتمبر سنة ١٨١٣ م . وقد حدث أن الشريف غالباً كان هناك ، فصعد إلى سفينة الباشا يستقبله قبل نزوله منها . وفي تلك المناسبة تعاهدا على القرآن ألّا يحاول أحدهما القيام بأي شيء مضاد لمصلحة الآخر أو سلامته أو حياته . وقد جدّدا ذلك العهد علناً في الكعبة بعد أسابيع ؛ وذلك برغبة خاصة من الشريف ، الذي لم يتعلم

بعدُ أنه لا يوجد عهد يمكن أن يقال عنه إنه مقدّس بدرجة كافية تلزم عثمانيا بالتقيّد به . وحلّ الشريف ، أيضاً ، مع الباشا بعض المشكلات التي كانت قائمة بينه وبين حاكم جدة التركي . ذلك أنه منذ فتح الأتراك للحجاز في القرن السادس عشر الميلادي كان قانوناً ثابتاً أن تقسم جمارك جدة بين باشا تلك البلدة وبين حاكم مكة . فاحتفظها على كلها لاستعماله الخاص ، ووعده محمد علي ألّا يتدخل بحيرته لها

وبعد أن وصل محمد علي إلى مكة خلع هدايا على علماء ، ووزّع صدقات على الفقراء وبدأ يرمم الكعبة المشرّفة ، ورصد مبلغ صائلة لخدمتها وزخرفتها . لكن شغله الأول والأهم في ذلك الوقت كان تأمين نقل الإمدادات الضرورية من جدة إلى مكة والطائف . فقد أصبحت جدة المستودع الكبير لمؤن الجيش التركي وذخائره وكان شحن كله إلى ذلك الميناء وإلى ينبع يكون مقصوراً على نقل تلك الإمدادات والذخائر واتفق محمد علي مع إمام مسقط على استئجار عشرين سفينة عمانية خلال سنة واحدة لذلك الغرض .

وقد رغب الباشا إلى الحكومة الانجليزية أن تسمح له بإحضار سفينته الحربية الصغيرة ، التي كانت في الاسكندرية ، إلى البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح . لكن تلك الحكومة لم تسمح له بذلك ؛ إذ كانت تعلم أن السفينة ، التي لم يكن طاقمها جيداً ، قد تضيع في بحار غير معروفة للبحّارة الأتراك ، ثم يعزو الأتراك المرتابون ضياعها إلى الأوامر السرّية الانجليزية . وقد اقترح انجليزي كان ساكناً في مصر بعض الوقت أن تنقل السفينة عند فيضان النيل إلى القاهرة ، ومن ثَمّ تنقل على

عجلات عبر الصحراء إلى السويس . وبدا واثقاً من أن العملية يمكن تمهيدها . لكن كان من البعيد جداً أن يتسنى الأتراك حطته بسبب رتابة إدارتهم المعتادة .

ولقد اتضح أن نقل المؤن عبر مسافة قصيرة من جدة إلى مكة أكثر صعوبة من نقلها من مصر إلى جدة . فمعظم الإبل التي جاءت مع الحملة إلى الحجاز تلفت فور وصولها . ذلك أن الأعشاب التي في الطريق مرعاها قد انتهت بمرور القوافل المستمر ، ولم تجد الإبل ما تأكله سوى كمية قليلة من العشب في المساء . بل إن سائقيها من الفلاحين المصريين ، الذين أخذوا قسراً من بيوتهم ، كانوا يختلسون جزءاً من تلك الكمية القليلة ويبيعونه على بدو الحجاز . وبعد ثلاثة شهور من وصول الحملة آلاف بعير إلى هذه البلاد لم يبق حياً منها إلا خمسمائة بعير فقط . وكان تفتيش محمد علي لتفصيلات خطة تزويد جيشه عبر حدود كرامته . من لم يكن قادراً على عمل ترتيبات معقدة إلا بتغيير إدارة جيشه كله . فقد كان كل فرد فيها — من أدنى رتبة إلى أعلاها — معرضاً للاختلاس . ولكن البدو الذين ناصروا العصبة التركية فقراء في الإبل ، شأنهم شأن كل أولئك الذين يعيشون في المناطق الجبلية . ولم يحرؤ إلا قليل منهم على عرض إبلهم لخدمة الجيش . وفي خلال الحرب التركية كلها لم يصل عدد الإبل الحجازية التي جمعت إلى خمسمائة بعير في أي وقت . وفي ظل هذه الظروف وجد الباشا نفسه مشلول الحركة . وكان العدد الفعلي للإبل يكاد لا يكفي لتزويد القوات الموجودة في مكة والطائف حاجاتها اليومية . وكان ما عرضه الباشا على البدو من نقود قليلاً بحيث لم يضع إلا عدد قليل منهم إبلهم في خدمته .

وإدراكاً من محمد علي لخطورة الموقف ضغط على الشريف غالب أن يستخدم نفوذه لدى العرب المجاورين، ويقنعهم بتزويده بكل ما يستطيعون من الإبل. وأخرج من أجل ذلك مبالغ كبيرة من المال لتوزيعها على مشايخ البدو. لكن زعيم البدو ليس له نفوذ مستبد في قبيلته، ولا ليس قادراً على أن يأخذ بالقوة بعير أقرب عربه إليه. ووعد كل من الشريف والمشايخ الباشا خيراً. ووضعت مبالغ مالية أخرى معه فحسب. ولكن الإبل لم تصل إليه بعد.

وكان الباشا يرغب في بداية إقامته بمكة بطريقة ودية فأصبح بعد ذلك يرتاب في صدق مودته. وشكا الشريف من جانبه من أن حامية جدة قد سحبت من موضعها رغم وعود محمد علي. واتهم كل واحد منهم الآخر بأنه يحيط به مكائد خفية. وكانت علاقة الشريف وطيدة بكل القبائل المجاورة، التي أصبحت تنظر إليه منذ نقض على المصريين على أنه حاميها ضد كل من الوهابيين والعثمانيين. وهذا ما زاد شكوك الباشا فيه حتى اقتنع بأنه لن تكون هناك فرصة لتنفيذ عملياته بنجاح ما دام الشريف غالب في الحكم. وقد تلقى محمد علي فرماناً من السلطان يسمح له بأن يتصرّف تجاه الشريف بما يراه مناسباً، إما أن يتركه على رأس الحكومة أو يعزله عنها وينفيه. وهذا على الأقل ما أعلنه الباشا بعد نفيه للشريف غالب.

وحينئذ أصبح هدف محمد علي الأكبر أن يقبض على الشريف وينفيه. لكن ذلك كان أمراً صعباً. فقد كان لدى غالب حوالي ألف وخمسمائة محارب في مكة، كما كانت لديه قوات في الطائف وجدة.

وكان من المرجح أن يفضّل كل العرب المجاورين لمكة الشريف على الباشا ، وأن يستثاروا ضد هذا الأخير بسهولة . وكان الشريف يسكن في مكة قصراً قويّ البنيان في منحدر جبل عليه قلعة تتصل بالقصر عبر طريق سرّي . وكان أخوه الأكبر ، سرور ، هو الذي بنى تلك القلعة ثم حصّنها هو عندما سمع باستعدادات محمد علي لغزو الجزيرة العربية . وقد جهّزت جيداً بالمؤن ، وكان الماء كثيراً في صهاريجها . وكان فيها حامية من ثمانمائة رجل لديهم اثنا عشر مدفعاً للدفاع عنها . وهي تشرف على كل البلدة ؛ مما يجعل من المعتقد أن تكون حصينة بالنسبة للوسائل التي يمكن أن يستخدمها محمد علي لاحتلالها بحصار عاديّ . وقد أبقى غالب كثيراً من قوّاته الأخرى ، مثل تلك التي لأشراف مكة والحجاز وعدد من المماليك المسلّحين والجنود المرتزقة من اليمن ، موزّعين في مناطق البلدة نفسها ، أو جعلهم حرساً خاصاً له . ويعرف عنه أن محمد علي كان يضمر بعض الحقد لعداوة ضده

ومن المؤكد أن الشريف لو نقض عهده المقدّس ، وهاجم الباشا ، الذي لم يكن معه في مكة حينذاك سوى ألف ومائتي رجل ، لأمكنه بمساعدة البدو أن يطرده من البلدة . لكن مهما كانت الاتهامات ضد غالب بالاستناد على أعدائه الألدّاء لم يستطيعوا إدانته بقطع عهد رغم أن الأتراك يدّعون أنه قد وضع خطة ضد شخص محمد علي .

ولم يعد غالب يزور الباشا بطريقة عادية ، كما كان يفعل من قبل ، بل كلما ذهب لزيارته في سكنه ؛ وهو بيت مدرسة كبير قرب الحرم ، اصطحب معه عدة مئات من الجنود . وفي آخر الأمر أوقف

زيادة كبيرة. ولم يعد يخرج أبداً من قصره إلا يوم الجمعة، وذلك حين يذهب لأداء الصلاة في الحرم. وقد حاول محمد علي سدى أن يبعده عن حرسه، وأراد مرتين برفقة عدد قليل من الضباط، فكان يزوره بطريقة مشابهة. ثم إنه فكر في حبس غالب في المسجد الحرام، ولكن القاضي، الذي وصل من القسطنطينية حديثاً، والذي حافظ بقوة على حرمة ذلك المكان المقدس، أقنعه بألا يتخذ إجراء قوياً كهذا. وقد اعتمدت فيما أقوله عن هذا الحادث على أوثق المصادر.

ومضى حوالي أسبوعين ومحمد علي يبذل يومياً جهوداً متعبة حصلت دون جدوى. وأخيراً دبّر حيلة برهنت على تجربة العصمة التي يتصف بها في هذه المعمورة. فأمر ابنه طوسون باشا، الذي كان في جدة، أن يأتي إلى مكة في ساعة متأخرة من إحدى الليالي. وقد حتّم العرف الرسمي أن يذهب الشريف للسلام عليه؛ إذ أن عدم تقديم مثل هذا سوف يكون بمثابة إعلان الحرب حسب المفاهيم التركية. ورغبة من غالب في أن يقوم بزيارته لطوسون قبل أن تتخذ ضده أية خطط جديدة ذهب إلى بيته في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي لوصوله ولم يكن معه إلا جماعة قليلة العدد. وكان هذا متوقعاً. وقد سبق أن أمر محمد علي — قبل وصول ابنه بيوم واحد — حوالي مائة جندي أن يختفوا في حجرات مختلفة مجاورة لساحة البيت الذي سينزله ذلك الابن. وقام هؤلاء بذلك بطريقة لا تثير أي انتباه. وحين وصل غالب إلى ذلك البيت وجهه المستقبلون إلى الطابق العلوي بحجة أن طوسون كان متعباً من السفر في حين وجهوا كثيراً ممن معه إلى البقاء في الطابق

الأرضي . ودخل الشريف غرفة الباشا ، وتحدث معه بعض الوقت لكن حينما همّ بالمغادرة أخبره عابدين بك ؛ وهو قائد أرناؤطي ، أن عليه أن يبقى سجيناً لديهم . ولم تكن هناك جدوى للمقاومة . فقد اندفع الجنود المحتشدون من مكامنهم . وأرغم عابدين بك مع طوسون باشا الشريف على أن يطل من إحدى النوافذ ويأمر أتباعه الموجودين في الطابق الأرضي أن يعودوا إلى منازلهم ، موضحاً أنه لم يقصد أيّ ضرر به .

وحين علم الناس بذلك لجأ ابنا الشريف غالب مع جنودهما إلى القلعة ، واستعدا للدفاع عنها . ولقد أظهر الشريف رباطة جأش عظيمة إذ قال لطوسون في حضور ضباطه : « لو كنت أنا خائناً لما حدث هذا » . وحينما عرض عليه فرمان لم تتأكد صحته أو عدمها يطلب منه الحضور إلى القسطنطينية أجاب قائلاً : « إرادة الله نافذة . لقد أمضيت حياتي كلها في حروب مع أعداء السلطان . ولست لي أخاف من المثول أمامه » . على أنه من الواضح أن القلعة ما دامت في أيدي بني غالب فإنه لم يتم من عمل الباشا إلا نصفه . وبناء على ذلك أجبر الشريف أن يكتب ورقة إلى ابنيه يأمرهما بتسليم القلعة لمحمد علي . لكنه لم يوقع ذلك الأمر حتى هُدّد بقطع رأسه .

وفي اليوم التالي دخل الأتراك القلعة ، وتفرّق رجال الحامية بين سكان المجاورين لمكة أو ذهبوا للانضمام إلى الوهابيين . وعيّن القاضي مع موظفين ؛ أحدهما من موظفي الباشا ، وثانيهما من موظفي الشريف ، لجرد كل ثروة هذا الأخير . ولهذا الغرض فتشت قصوره المختلفة في مكة . وقد قدّرت كمية كل ما وجدوه فيها بحوالى ستة عشر كيساً أو مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني .

وبعد اعتقال الشريف في مكة بأيام قليلة أرسل في نوفمبر إلى جدة حيث أبقي على ظهر سفينته في الميناء ، ثم أرسل إلى القصير وكنت في قنا في صعيد مصر حين وصل إلى هناك من السدة الأخيرة . فكانت فرصة لي أن أراه . وكانت معنويته تبدو غير محطمة ؛ إذ كان يتكلم بشجاعة ووقار عظيم . لكنه لم يذكر أبداً اسم محمد علي ولا اسم ابنه . وكان معه اثنا عشر محظياً وعدد قليل من الخدم العرب وأبناء بلاد الشحف به صوعية في جدة . وقد رأيت من بين أمتعته قطعة صافية شطرنج جميلة . ويقال إنه كان يقضي ساعات كل يوم في لعبه مع المفضلين لديه من المحظيين .

وحين وصل غالب إلى القاهرة انتقى نساءه الثلاث اللاتي أرسلن إلى هناك عن طريق السويس مع كل ثروته التي وجدت في قصوره بمكة . ذلك أن محمد علي تسلم أوامر بألا يمس أي شيء منها . وقد توفي أحد ابنيه في الإسكندرية . أما الثاني فتبعه إلى سالونيك التي جعلها الباب العالي مقراً له . وهناك بدأ يستلم مرتباً شهرياً مناسباً لمقامه . وقد بقي في مكة بعض مملوكاته وأخته وأحد أبنائه الصغار . وتوفي الشريف نفسه وكل أفراد أسرته بالطاعون في سالونيكا في صيف عام ١٨١٦ م . وقد قبض على عبد الله بن سرور ، ابن عم الشريف غالب[1] ، في مكة في اليوم التالي لسجن ذلك الشريف ، وبعث به ، أيضاً ، إلى القاهرة . ونجح في الهروب منها لكن بدو السويس قبضوا عليه . وبما أنه دائماً في عداوة مع

---

(١) عبد الله بن سرور هو ابن أخي الشريف غالب ، لا ابن عمه

غالب فإنه لا يوجد أي هدف للقبض عليه سوى أنه كانت لديه جماعة قوية في مكة . وسرعان ما أفرج عنه بأوامر من الباب العالي

ولقد أبدى الشريف غالب خلال حكمه لمكة شجاعة قوية في قتال الوهابيين وفي قتال أقاربه على حد سواء . وأهّلته براعته العميقة ، ومعرفته الدقيقة بالبدو وسياستهم ، وفصاحته ، وبعد نظرته ، لحكومة تلك البلدة بجدارة . لكنه كان جشعاً وظالماً في ضاته لمال وفرضه ضرائب كبيرة على صغار الأحظاء وقد جعله بحبه غير محبوب بصفة عامة وخلال عهد مستمر ثمانية وعشرين عاماً لابد أنه جمع ثروة طائلة في مكة حيث عاش حياة فيها المصاريف . وبما أنه لم يوجد عند عوته من الثروة إلا ما سبق أن ذكر فإن كثيراً من الناس يشكون بأنه قد حقق سرّ مبالغ كبيرة من النقود أو الأشياء الثمينة إلى شرقي الهند ، خاصة بومبي التي كان له ارتباط تجاري بمينائها زمناً طويلاً وقد نُمي لمحمد علي إلى أن الشريف عزم على أن يلجأ إلى بومبي وعلى أية حال فإن العناية التي حصن وزوّد بها القلعة في مكة توضح أنه كان مصمماً على أن يقاوم ؛ بل ويقاتل ، الأتراك في دائرة تلك المدينة المقدّسة

وقد بثّ نشر خبر القبض على الشريف الرعب بين كل من المكيين والبدو فهرب من مكة عدد من زعماء البادية ، الذين عرّف ذلك الشريف بهم محمد علي والذين بدأ هذا الباشا مفاوضات معهم ، وذهبوا إلى تُرَبة التابعة للوهابيين . وترك مكة ، أيضاً ، كل أصدقاء غالب وعدد من أفراد الأشراف الأقوياء مع رجالهم ، ولجأوا إلى خيام جيرانهم ظانين أن الباشا قد خطط للقضاء على كل الأشراف . ومن بين هؤلاء

الشريف راجح ، الذي كان أحد أقارب غالب وأبرز رجل في الحجاز شجاعة ورأياً وكرماً . وكان محمد علي قد ولاّه قيادة مئات قليلة من البدو ، وكلّفه بإقناع الآخرين لينخرطوا في خدمته . وفي اليوم التالي لاعتقال غالب ترك راجح مكة ، ومضى لكي ينضم إلى الدرعية . فرجع سعود أن يلتحق به رجل في مثل نفوذ ذلك الشريف ومواهبه ، وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، وعيّنه في مكان المضايفي ليصبح أمير أمراء بادية الحجاز .

ولقد سبّب سجن الشريف غالب ركوداً في كل الشؤون السياسية للبلاد . فعزل ذلك الغدر الصريح عن الأتراك حتى أولئك الذين كانوا أشد الناس معارضة للوهابيين . وأصبح موقف محمد علي حرجاً . واعتقد النقاد أنه كان يجب عليه قبل أن يقبض على الشريف أن ينتظر حتى ينضم إليه بعض زعماء البدو الأقوياء ، ويتفق معهم على أن يقوموا بحرب حقيقية ضد الوهابيين مما يجعل من الصعب عليهم ، أو من المستحيل ، أن يتركوه بعد ذلك . ولا شك أن محمد علي نظر إلى الشريف من خلال نواياه الخاصة . فخاف أن يقع هو ضحية الغدر إن هو أعطى غالباً وقتاً لتنفيذ مخططاته . لكنه كان مخطئاً في ذلك . فمن المؤكد أن الشريف لم يكن يودّ العثمانيين . غير أنه كان ، أيضاً ، لا يحب سيادة الوهابيين على بلاده . وكانت خطته أن يضعف كلا الفريقين . لكنه لم يفكر أبداً بخيانة الباشا ذاته ، وقد سبق أن قطع على نفسه عهداً بالمحافظة على سلامته

وقد عيّن محمد علي الشريف يحيى ، وهو أحد أقارب غالب

العبدين ، وأحد خصومه سابقاً ، حاكماً لمكة . وكان الباشا يعلم أن يحيى لا يتمتّع بمواهب أو سمعة جيدة . لكنه أراد بتعيينه ألّا يكون أكثر من موظف تافه . واستولى الباشا على كل دخل الشريف غالب في مكة وجدة . وبدأ يعطي ليحيى مرتباً شهرياً مقداره ثلاثون كيساً بحيث أصبح ، في الواقع ، واحداً من موظفيه الخاصين .

وفي ذلك الوقت لم يكن لدى محمد علي هدف آخر أهم من جلب المؤن من جدة إلى مكة والطائف . وحين جمع كمية قليلة منها في المدة الأخيرة عزم على القيام بضربة حاسمة ضد أعدائه الذين كان عدم نشاطه فترة طويلة قد شجعهم على نهب الإبل التابعة له من عند أبواب مكة والطائف . وبدأ البدو يظهرون احتقاراً لقوة جيش الباشا الذي سبق أن كرهوه لغدره . على أن أعداء الأتراك حول مكة لم يبدوا تصميماً على محاربتهم مثلما فعل عرب البقوم الذين يسكنون في تُربة ، والذين هزموا في وقت سابق مصطفى بك . وقد لجأ معظم جنود غالب إلى تُربة بعد اعتقال سيدهم وجعل الشريف راجح مركز قيادته هناك ولحق به علي مضايفي ، أخو عثمان المتحدث عنه سابقاً . وكان علي ذا نفوذ في البلاد . وهكذا أصبحت تُربة نقطة ارتكاز لكل الوهابيين الحجازيين كما كانت الدرعية مركزاً للشماليين منهم .

كان يتزعم عرب سبيع . الذين يعيش معظمهم في رنية وبعضهم الآخر في تربة . أرملة تسمى غالية . وكان زوجها أحد زعماء تربة . وكانت لديها ثروة تفوق ما لدى أية سيدة عربية في منطقتها . فأخذت توزع النقود والمؤن على فقراء قبيلتها الذين كانوا على استعداد لقتال الأتراك . وكانت مائدتها دائما معدّة لكل الوهابيين المخلصين الذين يعقد زعماؤهم مجالسهم في بيتها . ومع أن هذه السيدة لكبيرة كانت مشهورة بسداد الرأي وبمعرفة دقيقة لأمور قبائل المحيطة بها فإن صوتها لم يكن مسموعاً في مجالس المحاربين فقط وإنما كان هو حتى بصفة عامة . وكانت في موقع تحكم القوم رغم أنه كان لهم زعيم رسمي اسمه ابن خرشان . وقد ذاع اسم غالية في كل البلاد منذ الهزيمة الأولى لمصطفى بك قرب تربة . وسرعان ما ضاعف مخاوف الجنود الأتراك منها نفوذها وأهميتها . وروّج سخف القصص عن قوتها بصفتها ساحرة تعدّ فرصها الشخصية على كل القادة الوهابيين الذين أصبحوا بوسائلها لا يُغلبون

وقد شجّعت مثل الروايات همم العثمانيين ، وزادت من ثقة الوهابيين بأنفسهم . وبذلك أسهمت كثيراً في إنزال الفشل بحملة طوسون باشا . وصمم محمد علي أخيراً على أن يحاول القيام بهجوم آخر . فأرسل طوسون من الطائف قرب نهاية أكتوبر أو بداية نوفمبر سنة ١٨١٣ م مع

ألفي رجل للاستيلاء على تُربة . وكانت البلاد الواقعة بين هذه البلدة وبين
الطائف في أيدي قبائل معادية ؛ بني سعد وناصرة وعتيبة . وكانت هذه
القبائل محايدة حين كان الشريف في الحكم ، بل إن عدداً من زعمائها
قدموا إلى مكة ليتفاوضوا مع الباشا . لكن ما أن قبض على الشريف حتى
هربوا جميعاً عائدين إلى جبالهم ، وبدأوا يغيرون على الطائف والجنود
الأتراك الذين لاموهم على خيانة الباشا . وحين سار طوسون من الطائف
أخذ معه مؤناً تكفيه ثلاثين يوماً . وقد قضى معظم هذه الأيام في قتال
مهلك ضد العتاب الذين طاردهم في جبالهم ، فأخضع بعض فروع
قبيلتهم . وعند وصوله إلى تُربة لم يكن معه من المؤن إلا ما يكفيه ثلاثة
أيام . فأمر جنوده بمهاجمة البلدة فوراً . لكن العرب دافعوا عن أسوارها
ببسالة ، تشجعهم جهود عليه . وكان سهلاً ردّ الأتراك الذين لم يتوقعوا
عدداً كبيرة ، وكانوا منهكين بالاشتباكات السابقة . وأمر طوسون بهجوم
آخر في اليوم التالي لكن جنوده رفضوا صراحة أن يحاربوا ثانية . وبدى
ضيقهم من وضع الجيش المنهك والحاجة إلى مؤن قائلين : إنه في حالة
صد هجومهم مرة ثانية سيموتون جميعاً من الجوع . ووجد جنوده عدم
تغيير أوامره بالهجوم إلى أوامر بالانسحاب إلى الطائف . وما أن بدأ
بالانسحاب حتى خرج العدو ، الذي علموا وضعه الحرج ، من البلدة
وضغطوا على جنوده ، واستولوا على الممرات التي في طريقهم ،
وهاجموهم بعنف لدرجة أن الأتراك بدأوا في نهاية الأمر يهربون تاركين
أمتعتهم وخيامهم ومؤنهم ومدافعهم .

وهنا برز توماس كيث ، الذي سبق الثناء عليه . ذلك أنه استطاع
مع عدد قليل من الفرسان أن يستعيد أحد المدافع . ثم صوّبه بمهارة ضد

العدوّ من أعلى المشتتين المهزومين وقتاً ليعبروا ممراً ضيقاً كان من المحتمل جداً تحطيمهم جميعاً فيه لو لم يقم بما قام به . وقد فقد في ذلك الانسحاب أكثر من سبعمائة رجل أغلبهم مات جوعاً وظمأً . ذلك أنه حتى قبل الوصول إلى تُربة ارتفع سعر رطل البسكويت إلى دولار . على أن حوالي مائة فارس من المرافقين لطوسون أنقذوا بقية الجيش من الهلاك . ولم يستطع العدو المشاة أن يصمدوا أمام هجوم سلاح الفرسان المصري بشكل جدي لم تتح له ، على أية حال ، إلا فرص قليلة ليقوم بعمل مؤثر في تلك المناطق الجبلية . وتوفرت لأبناء الصحراء الرشيقين الأشداء مزايا كبيرة على مشاة جنود الأتراك الذين كانوا غير قادرين على تحمّل كثير من التعب

وبعد أربعة أيام من المشقة العظيمة ، وكثير من المغامرات ، وصل طوسون مع من بقي من جيشه إلى الطائف . ومن الممكن أن يعزى فشل حملته إلى الحاجة إلى الإبل لنقل رجاله ومؤنه على حد سواء . ولم يكن قد ترك في الطائف أية إبل بعد إمدادات جديدة إليه . وبدون أية مرة أخرى عند التجربة المستمدة من النكسات الصغيرة محمد علي بعد هذه الهزيمة الكبيرة أن يعود إلى عمله الأول ؛ وهو إرسال القوافل ذهاباً وإياباً بين جدة ومكة والطائف . ذلك أنه اقتنع أن أية عمليات ضد أعدائه من الأحسن أن توجه من البلدة الأخيرة .

أما الوهابيون فبعد أن تعقبوا فلول الأتراك إلى مسافة تبعد عن الطائف يوماً واحداً فقط عادوا إلى تُربة ، واستأنفوا أسلوبهم في الهجوم على قوافل الباشا بغارات سريعة الحركة . وهذا ما جعل تلك القوافل لا

تعبر البلاد أبداً بدون حرس كثير العدد يستهلك ثلث الطعام الذي معها قبل وصولها إلى المكان الذي تريد . وقد أمضى محمد علي وقته في مكة وحدة .

وفي نوفمبر سنة ١٨١٣ م أُديت مناسك الحج بموكب عظيم . فقد أتى سليمان باشا ، حاكم دمشق ، مع القافلة السورية عبر الصحراء دون أية عقبات . لكن البدو الذين كانت أراضيهم في طريقه اضطروه إلى دفع إتاوة المرور . كل السنوات العشر الماضية التي توقف خلالها مجيء قافلة الحج السورية إلى الحجاز . وأتى عدد كبير من حجاج آسيا الصغرى والقسطنطينية إلى مكة عن طريق السويس وجدة . وابتهج سكان المدينة المقدسة بعودة الأرباح التي كانوا يجنونها من حضور الحجاج ، والتي كانوا محرومين منها جزئياً في عهد الوهابيين . وأرسلت عدة آلاف من الإبل مع قافلة الحج من القاهرة إلى الباشا . كما أرسلت إليه تعزيزات كبيرة من الجنود . وأمر مصطفى بك بالعودة إلى مصر لكي يحصل من هناك على خيول جديدة عوضاً عن الأعداد الكبيرة التي فقدها . وفي نهاية سنة ١٨١٣ م وبداية السنة التالية لم يبق الجيش التركي دون حركة على الإطلاق .

وبما أن كل حملة ضد العدو قد فشلت باستثناء تلك التي أخذت بها المدينة ، فإن الباشا اعتقد أنه من الضروري أن يكون حملة جديدة يقوم فيها بهجوم فرعي مضلل يمكن أن يبعث بجاحه الشجاعة في قواته ويحول أنظار الوهابيين عن نقطة الهجوم الأساسية . فجهز حملة بحرية من جدة عمادها ألف وخمسمائة جندي من المشاة وعدد كبير من

سقط القنفذة بسهولة وجعل قيادتها لحسين أغا ومساعده أوغلو .
وتقدمت الحملة إلى القنفذة ، وهي ميناء يبعد عن جدة سبعة أيام جنوباً
وكانت في السابق جزءاً من أراضي شريف عسير . لكنها أصبحت
خلال سنوات الحملة الأخيرة في يد طامي (بن شعيب) ، شيخ عرب
عسير أقوى القبائل المحبة جنوب مكة وأشد المتحمسين من الوهابيين
وبدا أن الاستيلاء على القنفذة مفيد جداً في توجيه الهجمات ضد
حسين المتحمس مع حماية الضعيف وبما أنه من السهل إمداده
بحراً ، وأن الاستيلاء عليها يعد خطوة نحو فتح اليمن ، فقد كان عهد
طوسون باشا قد أغرى محمد علي بمحاولة الاستيلاء عليها . وإن محققة لم
توضع بدون حكمة . ولم يكن طامي قد ترك في القنفذة إلا حامية
صغيرة وصلت مشاة عسير الأتراك دون إراقة دماء في مارس سنة
١٨١٤ ، لكن معظم سكانها هربوا منها وما أن علم بالاستيلاء عليها
حتى تحقق إليها من جديد فيلق مكوّن من ثمانمئة فارس . وكانت محصنة
بسور قادر على مقاومة عدو لا يملك مدفعية ، مثل الوهابيين لكنها
كانت تفتقر إلى المياه العذبة ضمن حدودها ، إذ تبعد الآبار التي ترويها
ثلاث ساعات عنها . وكان لابد من بناء تحصينات حول تلك الآبار ،
وحماية الطريق منها إلى البلدة بخط من الأبراج والبطاريات ؛ إذ كان مع
الأتراك كثير من سلاح المدفعية . لكن حيطة كهذه لم تكن لتحظى
ببال قائد عثماني على قصير النظر . ولذلك فإن آبار حمة التي تبعد
عن القنفذة مسافة نصف ساعة تركت دائماً بدون أدنى دفاع

وقد وضع مائة وخمسون جندياً من الأرناؤوط قرب آبار القنفذة
ولم يكن هدفهم حمايتها ضد العدو بقدر ما كان منع سكان البلاد

والعرب المحاويين لها من سقي ماشيتهم. وبعد أن بقي الأتراك في القنفذة حوالي شهر دون أية حركة على الإطلاق هوجموا في بداية شهر مايو بقبائل يتراوح عددها بين ثمانية وعشرة آلاف وهي بقيادة طامي شخصياً. وكان أول من هوجم الأرناؤوط الذين حول الآبار، وحارب بعض هؤلاء بشجاعة حتى الليل في حين هرب البعض الآخر إلى القلعة، وبثوا فيها رعباً عاماً. وهرع القائد التركي المذعور ومعظم جنوده إلى السفن الراسية في المساء دون أية محاولة للمقاومة من داخل الأسوار. ودخل الوهابيون القلعة. فقتلوا أعداداً من الجنود والخدام التابعين للجيش التركي الذين لم يستطيعوا أن ينقذوا أنفسهم بالقوارب. ولم يقدروا على السباحة، بل إن كثيراً منهم قتلوا في البحر قرب الشاطئ بأيدي الوهابيين الذين سبحوا وراءهم. وما أن بلغ القائد التركي نفسه الصعود إلى إحدى السفن حتى أمر بالإبحار سريعاً. وترك كل أولئك الذين لم يستطيعوا الهروب بالبحر لموت محقق.

ولم يحصل الوهابيون أبداً على غنائم كتلك التي حصلوا عليها في القنفذة مثل الأمتعة والمدافع الكبيرة. ولكن المدافع أصبحت ملكاً لهم ولم يحمل معظم الأتراك معهم إلا الملابس التي كانوا يرتدونها لكن أثمن جزء من الغنيمة كان أربعمائة من الخيل وعدد كبير من الإبل

وقد مات كثير من الجنود والبحارة الأتراك في طريقهم إلى جدة لأن إمداد السفن بالماء والمؤن كان سيئاً. ومع ذلك فإنه يشاع أن القائد سليم أوغلو كان يغسل يديه بماء عذب بانتظام بينما كان أتباعه التعساء

يموتون من الظمأ . وعني أية حال فإنه عُيّن حاكماً بحدة بعد وصول فلول الحملة إليها . أما الجنود القبليون الذين حاربوا خلال النهار في القنفدة فقد ستطاعوا الهروب ليلاً ، ووصل اثنا عشر رجلاً منهم إلى مكة حيث كافأهم محمد عيه ، وسمح لهم أن يصمموا إلى فيالق أخرى لأنهم قرروا ألا يحدموا مرة أحرى تحت قيادة سيم أوعلو .

وحوالي الوقت الدي سارت فيه الحملة إلى القنفذة دهب محمد علي إلى الطائف بسبب ساحها الصحي ، ولكي يكون أقرب إلى مسرح الأحداث وإلى مواضع البدو الدين رعب ثانية في أن يقيم معهم علاقات ودية وفي يونيو سنة ١٨١٤ م وصل من القاهرة ألف وخمسمائة جندي : هم حيرة المشاة في مصر ، بقيادة حسن باشا ، الذي كان زعيماً أرنؤوطياً مشهوراً ، ومخلصاً لمحمد علي ، وشريكاً له في مسرّاته من قبل أن يصبح باشا لمصر فقد أحضع هو وأخوه عابدين بك — المذكور سابقاً — صعيد مصر لذلك الباشا ، وتعاون معه في تنفيذ مذبحة المماليك في القاهرة ؛ وهي المذبحة التي قام بها جنود من الأرنؤوط . وأظهر أخيراً حماسه له خلال ثورة قصيرة الأمد حدثت في غياب الباشا عن القاهرة . وفي ديسمبر من سنة ١٨١٣ م أو يناير من السنة التالية لها ، قدم لطيف باشا بما يثير الشك فيه . فقد أرسل هذا الرجل ، الذي كان يوماً ما مملوكاً لمحمد علي ، مع إسماعيل باشا ليسلم مفاتيح مكة والمدينة إلى السلطان . فأكرمه السلطان ، وجعله باشا ذا طوقين تكريماً لسيّده محمد علي . وتواتر في القاهرة أن هذا الأخير قد مات وأعطى تصرّف لطيف باشا سبباً للشك في أنه ينوي الاستيلاء

على الحكم . وأشيع جماهيرياً أنه تسلّم مرسوماً من الباب العالي بأن يقوم بذلك متى ما وافت الفرصة للقيام به . واتخذ نائب الحاكم مع حسن باشا إجراءات فورية للقضاء على تلك الثورة . وحاصرا قصر لطيف باشا ثلاثة أيام . وبعد ذلك قبضا عليه في ثياب ملاّح ، وقتلاه وبهذا أعادا الهدوء إلى البلاد .

وبعد وصول حسن باشا إلى الحجاز أرسله محمد علي ليقيم مركز قيادته في كلاخ ؛ وهي قرية صغيرة تبعد ثماني أو تسع ساعات عن الطائف شرقاً ، وتقع في سهل حلف سلسلة الجبال العظيمة . وقد جعلت منها آبارها الكثيرة موضعاً مهماً وكانت محصنة إلى حد ما أما طوسون ، الذي كان قد أثار استياء أبيه بهجومه المتهوّر على تُربة ، فبقي معسكراً في مكة .

وفي ذلك الوقت تقريباً وصلت أنا من سواكن إلى جدة ولم تكن حالة الأتراك في الحجاز تبشر بنتيجة إيجابية للنزاع فقد كان عدد الرصا ، مع نوع من الدعر ، عاماً بين الجنود . وكانت انتصارات العدوّ المتكررة ، والموت المحقق الذي ينتظر كل الأسرى الأتراك ، وسم الوهابيين بحد ذاته ، أموراً مرعبة لأفراد قوات الباشا . وكان المرتّب الذي يدفع للجندي كافياً لرفاهيته في مصر ، لكنه يكاد لا يمكّنه من سدّ رمقه في الحجاز . فأسعار كل الأشياء الضرورية ارتفعت في الطائف والمدينة إلى درجة أن الجندي لم يكن يستطيع أن يشتري إلا حبزاً وبصلاً طعاماً وحيداً يقتات به . وكان دفع المرتّبات يتأخر ثلاثة أو أربعة شهور . بل كان ثمن كل شيء في مكة وجدة أعلى مرتين ونصفاً منه في مصر .

ولهذا فإن كل إنسان وفّر مبلغاً قليلاً من المال قبل قدومه إلى الحجاز اضطر إلى إنفاقه للحصول على ضروريات الحياة وحدها. وبالإضافة إلى ذلك كان يصرف للجنود بالعملة المصرية؛ وهي عملة رديئة وسعرها في الحجاز أقل من سعرها في القاهرة كثيراً بحيث فقدوا بسبب ذلك ثلث مرتّباتهم. وقد باع كثير منهم ذخائرهم وملابسهم، وعانوا جميعاً كثيراً من المحن التي لم يكلّف محمد علي نفسه أبداً إزالتها. وقد حسر كثير من الجنود والجمّالة والخدام المصريين مرتّباتهم، فأبحروا من جدة وينبع إلى القاهرة. لكن الباشا سرعان ما حرّم ذلك، ووضع عقوبات صارمة على من قام به. وتضايق هؤلاء من ذلك التحريم كثيراً. فالجندي التركي دائماً متطوع، وله أن يتقاعد عن الخدمة متى أراد. لكن الجنود وجدوا أنفسهم يعاملون في الحجاز معاملة المسجين. فترك كثير منهم قواعدهم في الطائف ومكة، وقدموا سرّاً إلى جدة آملين أن يستطيعوا الهروب على سفينة من السفن. وكان إذا عثر عليهم أعيدوا إلى مراكز قياداتهم مكبّلين بالأغلال. وقد قابلت بنفسي مرة في الطريق من جدة إلى مكة أكثر من ثلاثين منهم مربوطة أيدي بعضهم مع أيدي البعض الآخر بحبل طويل؛ وذلك عار لا يمكن أن ينساه أبداً أولئك الأتراك المتغطرسون.

ولابد أن يضاف إلى الأمور السابقة الهواء الضار والماء السيء اللذان جعلا ساحل تهامة من أسوأ المساحات التي عرفتها؛ إذ لم ينج من تأثيره إلا عدد قليل من الجنود، ولم يتمكّن بسببه من تأدية الواجب إلا ربعهم على أحسن تقدير. وأصبح البؤس الناتج من المرض عاماً دون أمل في

الشفاء . وأهمل محمد علي الوسائل الوحيدة التي لديه ؛ وهي تشجيعهم وبث الأمل في نفوسهم بزيادة مرتّباتهم ومنح الحوافز للقليلين الذين ميّزوا أنفسهم بأعمال جيدة . لكن مرتّباتهم لم تُزد ؛ بل وجدت فوضى كبيرة في القسم المالي للجيش لدرجة أن كل قائد كان قادراً على أن يقتطع جزءاً من مرتبات مرؤوسيه ، ولم يتحد الناشا أي عقاب لذلك الجور . ولقد المجندين الأتراك ألبس الضباط الفلاحين المصريين الذين كانوا حداماً معهم ثياب جنود ليسدوا الفراغ .

وربما كان محمد علي هو الرجل الوحيد في بلاطه وجيشه الذي لم ييأس من النجاح النهائي في تلك الظروف ؛ عالماً أنه من المؤكد أن يسقط ويطرد من مصر ما لم يحرز نجاحاً في جزيرة العرب . ومنذ وصوله إلى الطائف حاول جاهداً أن يبدأ اتصالات ودِّية جديدة مع البدو . وقد نجح في هذا المجال بالذات عن طريق المال والصبر . ففي أغسطس عام ١٨١٤ م دخلت قبائل هذيل وثقيف وبني سعد وحرب من عتيبة معه في حلف جديد . وتسكن القبائل الثلاث الأولى بين مكة والطائف في حين تسكن عتيبة شرقاً عنهما . وقد أتى مشائخ تلك القبائل إلى مراكز القيادة ، وتسوى حوالى خمسمائة من عربهم تحت لواء محمد علي الذي أعطاهم تقريباً ضعف المرتبات التي كان يتسلّمها جنوده . وفي أثناء إقامتي في الطائف في أغسطس سنة ١٨١٤ م كنت أرى مشائخ البدو يصلون إلى مراكز القيادة يومياً . وكانوا متأكدين من أنهم سيهدون طاقماً من الملابس . وكان كبارهم يتسلّمون نقوداً كلما أتوا إلى هناك . وكثير منهم كانوا يأخذون تلك النقود ، ويعودون إلى خيامهم ، فيخبرون

الوهابيين بكل ما رأوه في الطائف . لكن آخرين منهم بقوا على الحياد ولكي يكسب الباشا قسماً منهم اعتقد صحة مجاملة الجميع وإعطائهم هدايا ثمينة . فكان ينصت إلى أحاديث البدو وتأكيداتهم المخادعة ، أحياناً ، بدرجة كبيرة من الصبر ، ويبدو أمامهم طلق المحيّا ؛ وهو أمر غير عادي بالنسبة لعثماني من أية رتبة .

وكان أبناء الصحراء أولئك يخاطبون محمد علي بطريقة جافة غير رسمية ، إذ ينادونه باسمه — محمد علي — فقط . وفي أحد الأيام قدم إليه عتيبي ، فقبّل لحيته ، وأعلن قائلاً « أنا تركت دين المسلمين (أو الموحدين كما يسمّي الوهابيون أنفسهم) ، واتبعت دين المبتدعين (كما يسمّي الوهابيون كل المحمديين الذين لا يعتقدون عقيدتهم) ، أي اتبعت دين محمد علي » ، وأثار هذا المحض غير المقصود ضحكاً عاماً . لكن الباشا أجابه عن طريق مترجمه ؛ إذ لم يكن يتقن العربية ، . « أرجو أن تبقى دائماً مبتدعاً مخلصاً ».

على أن الباشا وكبار ضباطه ظلوا تقريباً جاهلين جهلاً تاماً بقوة القبائل المحيطة بهم ، وشؤونها وتاريخها الخاص . ولم تكن لديهم معرفة بأراضيهم . ولذلك فإن البدو لم يثقوا ثقة كبيرة في أية إجراءات يقوم بها حليفهم الجديد . ورغم هذا استمر الباشا يزداد قوة كل يوم . ووصل إسرافه في تبذير الدولارات من حوله إلى قلب الجيش الوهابي ذاته . ومع أني أشك فيما إذا كان أي بدوي قد انضم إلى جانبه بإخلاص فإن أعداداً من البدو تظاهروا بذلك . وتوقفوا على الأقل عن محاربته لكي يحصلوا على هباته . بل إن الشريف راجحاً ، الذي كان في مقدمة أعدائه وميّز

نفسه في الجانب الوهابي خلال هجوم طوسون باشا على تُربة ، اقترح حينذاك أن يعود إلى محمد علي ؛ إذ كان لديه سبب في عدم الرضا على إخوانه من الزعماء .

وقد أظهر تصرّف الباشا قبل ذلك أن الشريف غالباً كان الوحيد المكروه شخصياً لديه بين زعماء الحجاز . وكان في إمكان راجح أن يبرهن على أنه ترك محمد علي لمجرد خوفه من أن يكون مصيره مثل مصير غالب . وفي سبتمبر أتى إلى الطائف ، فاستقبله محمد علي بلطف عظيم ، وجعله مرة أخرى على رأس جنوده من البدو .

وبالإضافة إلى سياسة التواضع التي اتبعها محمد علي في علاقته بالبدو فإنه عمل كل ما في وسعه لاستمالة سكان الحجاز . فألغى كثيراً من الضرائب التي سنّها الشريف ، وخفّض جمارك حدة على مختلف البضائع ؛ خاصة القهوة . ووزّع مبالغ كبيرة من النقود وكميات من القمح على المحتاجين والفقراء من كل صنف وخلع هدايا على العلماء وموظفي المساجد والمدارس . ورمّم الأماكن المقدسة في مكة وخلال إقامته فيها حافظ بدقة على الشعائر المفصّلة التي وضعت نص بروز الكعبة ، والتي سيسخر منها لو كان في القاهرة بل إنه لم يحاول أبداً في المدينة الأخيرة أن يخفي مبادئه التشككية ، أو على الأصح الإلحادية . وقد أمر الجنود الأتراك في كل الحجاز أن يمتنعوا عن استعمال أية لغة بذيئة تجاه المواطنين . وكان يعاقبهم بشدة كلما وقعوا في تلك التصرّفات الطغيانية المستعملة كثيراً في مصر . ولم يكن لأي جندي أن يجرؤ على أخذ شيء بالقوة أو بنصف ثمنه من السوق ، إذ

كان المواطن دائماً هو المصدَّق في حالة الشكوى إلى الباشا أو ضباطه ولذلك بدأ تعصب العرب ضد كل الأجانب يضعف تدريجيا ، ونال الباشا سمعة طيبة لعدله وإحسانه ؛ وهما من الصفات التي لم يكن ليقوم بأي ادعاء لها في مصر .

وقد توفي سعود في مايو سنة ١٨١٤ م بالحمّى ؛ وهي وباء كثير جداً في نجد[1] وبذلك فقد الوهابيون قائداً لا يكلّ ولا يني لديه كل المواهب الضرورية للمنصب العظيم الذي احتله . ويقال : إن كلماته الأخيرة كانت موجهة إلى ابنه عبد الله ناصحاً إيّاه بقوله : « لا تقاتل الأتراك في أرض مكشوفة » وهذا مبدأ لو اتّبع بدقة لمكّن شعبه ، بدون شك ، من استعادة الحجاز . وأصبح عبد الله ، الذي سبق أن أصبح كبار زعماء الوهابيين في حياة أبيه ، وريثاً للسلطة العليا . لكن بعض الخلاف عليها حدث على أية حال . ذلك أنه كان لسعود عدد من الإخوة الذين طالبوا بنصيب من إرثه[2] وكان يساعد أحدهم ؛ وهو عبد الله ، فريق من علماء الدرعية . لكن بعد أعمال قصيرة اعترف بعبد الله بن سعود زعيماً للوهابيين . وكانت شهرته في الشجاعة والمهارة في الحروب تفوق شهرة أبيه ، لكنه لم يكن يعرف جيداً كيف يدير الأمور السياسية للقبائل مثله . وبذلك بدأ كبار مشائخها يمارسون أنواعاً

---

(1) كانت وفاة سعود ليلة الإثنين الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ هـ . وكانت « موته وقعت أسفل بطنه أصابته منها مثل حصر بول » انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ويُقال بأنه ميل القبائل إلى محمد علي كان من أسبابه موت الإمام سعود ، الذي يقدّره ويتحدثه على حد سواء .

(2) كان لسعود أخوان فقط هما عبد الله وعمر ، كما سبق أن ذكر .

من الاستقلال . وهذا ما أضعف القوة العامة لشعبه . ولم يجد الوهابيون الجنوبيون ، الذين كانوا حينذاك أكثر تعرّضا للهجمات ، عونا من القبائل الشمالية التي كان من الممكن أن يساعدهم فرسانها بشكل أساسي . بل إن المشائخ الجنوبيين أنفسهم كانوا مختلفين فيما بينهم . وأصبح الباشا يقاتل قبائل منفردة أكثر مما يقاتل قوة متّحدة . وربما عزي هذا الافتقار إلى الوحدة إلى الاحتقار الذي كان يضمره هؤلاء لجنود الأتراك .



كانت قوات الباشا في سبتمبر عام ١٨١٤ م موزعة كما يلي :

١ — حوالى مائتي رجل مع إبراهيم أغا ، حامل أختام محمد علي ، في مكة حيث يوجد ، أيضاً . مائة وخمسون جندي عربي بقيادة شريف يحيى .

٢ — ما بين ثلاثمائة وأربعمائة رجل بقيادة ديوان أفندي في المدينة

٣ — مائة رجل يكونون الحامية في ينبع .

٤ — مائتا رجال متمركزون في جدة .

٥ — ثلاثمائة وخمسون رجلا مع طوسون باشا الذي كان معسكراً بين ينبع والمدينة .

٦ — ثلاثمائة تركي ؛ بينهم حوالى مائة من الفرسان ، مع محمد علي في الطائف .

٧ — ألف جندي من الأرناؤوط مع حسن باشا في كلاخ .

٨ — الجيش المكوّن من ألف ومائتين من الأرناؤوط وأربعمائة من الفرسان في الخطوط الأمامية مع عابدين بك ، أخي حسن باشا .

وقد اندفعت هذه القوات الأمامية مسافة ثلاثة أو أربعة أيام جنوب الطائف إلى أراضي قبيلة ناصرة وإلى جهة زهران حيث كان الشيخ

بخروش ، زعيم عرب غامد ، الخصم الأساسي للأتراك[1] . ومما أفادهم أنهم كانوا معسكرين في بلاد خصبة تسدّ حاجتهم من القمح والشعير . وبذلك أصبحوا مستقلين عن المستودعات في الطائف .

وقد تبدو القوات التي ذكرت أعدادها تافهة جداً أمام القارىء . ومع ذلك فإني واثق بأنه قد بولغ في تقديرها أكثر مما أنقص . وطبقاً لتقارير الأتراك ؛ بل ولتقارير الباشا نفسه ، كان هناك في الواقع عشرون ألف رجل تحت قيادة محمد علي . فالأعداد الكبيرة من الذين يخدمون الجيش التركي ، والأعداد المتضاعفة من الحجاج والتجار الأتراك المنتشرين في الحجاز والذين يقلّدون في ملابسهم الجنود بحيث يندر أن يُميّزوا منهم ، والحشد الكبير من الحمّالة وسائسي الخيل وغيرهم من الخدام الذين في صحبة الجيش ؛ كل هؤلاء أسهموا في تكبير حجم أعداده الظاهرة . ومن المحتمل أنه لم تكن لدى الوهابيين أبداً فكرة واضحة عن القوة الحقيقية لأعدائهم . وكانت التعزيزات تصل يومياً من مصر ، لكنها نادراً ما كانت لسدّ المراتب التي ضعفت كثيراً بسبب الوباء والمجابهة غير الناجحة مع الوهابيين . وكان عدد الجنود الذين مع محمد علي في مصر صغيراً جدا بحيث لم يكن ليسمح بتكرار السحب منه إلى الحجاز . فيما كان مجموع عدد الجنود في هذه البلاد خمسة آلاف رجل لم يزد أولئك الذين في مصر أبداً على ستة أو سبعة آلاف جندي حقيقي . ولم يكن الباشا قادراً على إنقاص ذلك العدد دون

(١) كان بخروش بن علاس زعيماً لزهران . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٤٣ . وقد ذكر بوركهارت ، فيما بعد ، أنه زعيم غامد وزهران ، وبعض غامد حديث خمسة فقط أنه زعيم هم

تعريض تلك البلاد للهجمات التي كان يتوقعها من القسطنطينية ومن المماليك في دنقلة أو من انجلترا ؛ خاصة في ذلك الوقت

وحين أصبح معلوماً في الأقطار التي تسهم بقسط وافر من الجنود لمشتوات الأتراك ؛ وهي ألبانيا وروميليا وساحل آسيا الصغرى ، أن الحرب في الحجاز كانت مؤلمة جداً للجنود المشتركين فيها ، لم يأت إلى مصر إلا عدد قليل جداً ممن يريدون الالتحاق بالجندية. ومنذ سنة ١٨١٣ م اضطر محمد علي إلى أن يلغي في تلك الأقطار مكاتبه الخصوصية للتجنيد . ولم يستطع هؤلاء أن يحققوا هدفهم بدون صرف مبالغ كبيرة من المال . ولقد سمعت أن الباشا نفسه قال في الطائف إن جيشه يتكون من خمسة وثلاثين ألف رجل ؛ عشرون ألفاً منهم في الحجاز ، وخمسة عشر ألفاً في مصر. وهذا القول يعد ، بصفة عامة ، صحيحاً [1] .

وكانت القوة الصغيرة التي يتراوح عددها بين أربعة وخمسة آلاف كافية للدفاع عن المدينتين المقدستين وإرهاب القبائل المجاورة ؛ وذلك بمساعدة أربعمائة جندي بدوي جمعوا من قبائل مختلفة ، ودفعت لهم رواتب ضعف ما كان يدفع للأتراك . لكن لم يكن من المستطاع هزيمة الوهابيين بذلك الجيش . ومع ذلك فيبدو أن الباشا عند مغادرته القاهرة قد وعد مولاه السلطان أن يخضعهم. وبالرغم من كل جهود الباشا فإن الحاجة إلى الإبل لم تلبّ . وقد أوضحت جثث الإبل الميتة المنتشرة

---

(١) قد يبدو التناقض واضحاً بين ما يذكره المؤلف في موضع عن أعداد الجيش لدى محمد علي وما يذكره عنه في موضع آخر

على الطريق من الطائف إلى مكة ومن ثَمَّ إلى جدة أن التحديد المستمر لقوافل الأمتعة كان ضرورياً جداً . وفي ضاحية مكة المسمّاة المعابدة ؛ حيث تتوقف القوافل القادمة من جدة والطائف ، تنبعث رائحة كريهة جداً من مئات الإبل الميتة لدرجة أن أعداداً كبيرة من فقراء الحجاج الربوع استؤجروا ـــ بناء على طلب المواطنين ـــ ليجمعوا أعشاباً يابسة من الجبال المجاورة ، ثم وضعت كومة من هذه الأعشاب على جثة كل بعير ميت ، وأشعلت فيها النار حتى تحوّلت تلك الجثث إلى رماد . وقد تلف من إبل الجيش في الحجاز منذ بداية الحرب سنة ١٨١١ م حتى الآن ثلاثون ألف بعير حسب التقارير المعتدلة ولم يكن قد بقي في مصر إلا قليل منها فبحث عن إمدادات كبيرة من الأقطار الريفية حتى سنار . لكن نقل المؤن من قنا إلى القصير ومن القهرة إلى السويس تطلّب أعداداً كبيرة بحيث لم يتوفّر إلا عدد قليل نسبياً منها للخدمة في الحجاز وبعث الباشا ضابطاً إلى دمشق ليشتري إبلاً من البدو السوريين وكان يتوقّع وصولها إلى مكة مع قافلة الحجاج القادمة وقد عمل إبراهيم باشا كل ما في وسعه ليجمع من قبائل ليبيا ما أمكنه جمعه من الإبل ووعد بأن هذه الإبل سترسل ، أيضا ، مع الحجاج المصريين إلى الحجاز

ولم تُتخذ حتى وقت وصولي إلى الحجاز إلا إجراءات دفاعية وقد استؤجر حوالي خمسمائة بعير من عرب حرب لنقل مؤن من جدة إلى الطائف لكن أصحابها رفضوا كلية أن يتقدّموا بها خطوة واحدة نحو الشرق أو الجنوب من تلك البلدة لئلا يأخذها الوهابيون . وقد عدمت من

مصدر ثقة أن الحامية في الطائف لم يكن لديها من المؤن إلا ما يكفيها عشرة أيام . وكانت محنتها عظيمة جدا بعد أسابيع لدرجة أن القمح الذي أحضرته القوافل وزّع فوراً ، ولم يوضع في المستودعات أبداً . ولم تكن لدى القوات في المراكز الأمامية وزهران أية وسائل لطحن القمح . فكان كل جندي يتسلّم يومياً نصيبه من الحب ، ويقوم مضطراً بطحنه بين حجرين ويخبزه على الجمر

وفي أثناء ذلك قام الوهابيون بغارات متكررة على الطائف على أن القبائل التي مالت إلى جانب الباشا أرسلت ، مرة أخرى ، فئات صغيرة منها إليه ، فهاجم بدوره بلاد العدوّ وقاد الشريف يحيى مع عربه في أغسطس عام ١٨١٤ م حملة فوق الجبال باتجاه القنفدة ، ورجع بغنائم ثمينة من الإبل والغنم وما أن عاد إلى مكة حتى ثار ضابط لنفسه بإرسال فرقة من قبيلة قحطان على ستمائة بعير نحو جدة . وكدت بنفسي لا أنجو من أولئك القوم . وكنت أسافر من وقت إلى آخر بين مكة وجدة مع قافلة صغيرة من الإبل . فوصلت مرة حوالى منتصف الليل إلى مورد يسمّى بحرة في منتصف الطريق بين البلدتين المذكورتين حيث يعسكر فرسان في مخيّم صغير لحراسة ذلك الطريق . ووجدنا أولئك الرجال في حالة إنذار فقد أخبرهم بدو من الجنوب أن العدوّ يقترب منهم فاتجهت قافلتنا فوراً صوب الجبال الشمالية . وبطريق دائرية وصلنا إلى جدة في اليوم التالي . لكن ما أن غادرنا بحرة حتى اقتحمها الوهابيون . وقد سمعنا أصوات البنادق ، وأخبرنا بعد ذلك أن الغزاة قتلوا كل السكان الذين وجدوهم ، ونهبوا المخيّم والأمتعة ، وأخذوا قافلة صغيرة

كانت قد توقّفت في ذلك المورد قبل وصولنا إليه بقليل . وفي أثناء ذلك كله لم يبد الثمانون فارساً أبداً أية مقاومة ؛ بل عدوا بخيلهم متجهين إلى مكة حيث نشروا أعظم الرعب . وبذلك قُطع الاتصال بين جدة ومكة طيلة أسبوع . لكن الوهابيين بعد أن حققوا هدفهم انسحبوا إلى أوطانهم . فقد أتوا من مسافات تبعد خمسة عشر يوماً ، على الأقل ، للنهب على تلك الطريق . وقد مكنتهم معرفتهم الدقيقة بالبلاد من اتخاذ طريق أوصلتهم فجأة إلى فريستهم . وقد امتاز البدو دائماً بهذا النوع من الحروب . وأرعب نجاحهم المستمر في مثل تلك الهجمات الجنود الأتراك أكثر مما أخافتهم الهزيمة في معركة بطامية . ذلك أنهم بمجرد مغادرتهم حدود المدن لم يشعروا أبداً بأنهم آمنون لحظة واحدة .

ومنذ الاستيلاء على المدينة بقي الجنود الأتراك فيها دون حركة على الإطلاق ؛ إذ لم تكن الإمدادات المرسلة إليهم من يسع لتكفي الحاجة اليومية لهم ولسكان تلك البلدة . وظلت قبيلة حرب في علاقات ودّية مع الأتراك . وفي يونيو سنة ١٨١٤ م ذهب شيخهم جز ، الذي أسهم بشكل أساسي في الاستيلاء على المدينة ، في مهمة ما إلى ديوان أفندي القائد هناك . وجلس مع هذا القائد يوماً كاملاً . لكنه لم يستطع أن يتحمّل بجاحة ذلك التركي التافه . ولهذا رفع صوته على مسمع من كل الحاضرين قائلاً له : « اسكت يا ديوان أفندي لأن كل إنسان يعرف أني أنا الذي مهّدت الطريق لدخولك إلى هذه البلاد . ولولا هذا السيف (وهنا ضرب سيفه بكفه) لم يدخل تركي أبداً المدينة » . فسخط القائد التركي على تلك المخاطبة ، وسبّ الزعيم الحربي بأقذع العبارات ،

وقدم الباشا من الطائف ليشارك في موسم الحج ، وليقابل سليمان باشا ، حاكم دمشق ، الذي صحب قافلة سوريا مرة أخرى . وقد أتت زوجة محمد علي المفضّلة ، أم طوسون ، عن طريق البحر لتأدية الحج . وكانت حاشيتها من العظمة بمقدار ما لمصر من ثروة . فقد نقل أمتعتها أربعمائة بعير من جدة إلى مكة ، ونصبت خيمتها عند جبل عرفات مساوية في حجمها وعظمتها كل ما نقرأ في الحكايات الخيالية أو قصص الغرام العربية وقدمت عدة شخصيات ذات رتب عالية من القسطنطينية لزيارة الكعبة . وأدّى الحج تلك السنة ، التي شهدتها بنفسي ، حوالي ثمانين ألف إنسان من كل الأجناس والأمم . وكان رحال القافلة السورية يبقون ، عادة ، في مكة أياماً قليلة بعد انتهاء الحج وفي تلك المناسبة أرجأ محمد علي إقامتهم عشرة أيام زيادة على المدة المعتادة ؛ إذ طلب كل إبلهم ، التي يصل عددها إلى اثني عشر ألف بعير ، لحمل المؤن بين جدة ومكة لإمداد جنوده .

وحينما جمع محمد علي كل قوته القتالية بين مكة والطائف ، وبعث حالة مستودعاته وعدد معسكراته آماله في النجاح ضد العدوّ ، أعلن عزمه على أن يكون هو على رأس الجيش مما رفع إلى حد ما معنويات جنوده . وحددت تُربة ، مرة أخرى ، لتكون الهدف الأوّل للهجوم . وقد شحنت المدفعية حسنة التجهيز ، المكونة من اثني عشر مدفع ميدان ، الجنود على الاعتقاد بأن أسوار تُربة لن تبقى طويلاً واقفة أمامهم ، وأنه لن يحتاج إلى أي رجل ليتسلق على السور كما حدث حينما قام طوسون باشا بهجومه عليها . وقد أُعدت خمسمائة فأس لقطع النخيل التي تعيق الوصول إلى تُربة . ومدّ الجيش بعشرين بنّاء وكثير من

النجارين لعمل نفق يملأ بالألغام لتفجير مباني العدوّ فورا . ولكي يجعل الجنود متأكدين من النجاح أُحضر حمل من حب البطيخ من وادي فاطمة ، وحمل بأبهة عبر أسواق مكة على أساس أنه بعد التخريب الكامل لتُربة سيبذر ذلك الحب في الموضع الذي كانت تقع فيه . لكن تلك التجهيزات زادت قلق الجنود بدلاً من تهدئة أفكارهم . ذلك أنها برهنت على الأهمية الكبيرة التي عَلّقت على أخذ تلك البلدة وعلى صعوبة المهمة .

ولقد ضحكت العدوّ حينما قيل إن محمد علي يعدّ أخذ تُربة أمراً مؤكداً . وحوالى ذلك الوقت استلم الباشا من الشيخ بخروش رسالة مكتوبة بذلك الأسلوب التهكمي اللاذع الذي يحمل التوبيخ لعربي بكثير من أمثاله . وقد أخبره فيها أن لديه بالفعل براهين كافية عما يستطيع الوهابيون أن يفعلوه ؛ وأنه إذا رأى أن يحاربهم فيسعي أن يأتي بجنود أفضل من أولئك الذين يقودهم الآن . لكن أعقل خطة له هي أن يعود إلى مصر ، ويتمتّع بماء النيل . وقد كفّر بخروش عن إهانته هذه بكرامة الباشا التركي بأن عُذب تعذيبا شديداً حتى الموت فيما بعد

وتشجيعاً للجيش اعتقل محمد علي ثلاثة عشر بدوياً من قبيلة عتيبة في طريق جدة ، واتّهموا بأنهم لصوص وهابيون ؛ بالرغم من أنه اتضح فيما بعد أنهم كانوا ذاهبين إلى تلك البلدة لشراء بعض المؤن ، فأعدموا في سهل قرب مكة أمام حشد كبير من الناس . وقد قام أحد هؤلاء في اللحظة التي كانت فيه يداه مقيّدتين معاً ، والتي كان فيها الجندي التركي يستعد لإطلاق الرصاصة المميتة عليه بطرح ذلك

الحبدي أيضاً والهرب عبر المردحمين . وربما كان من الممكن أن ينقذ حياته في آخر الأمر لو بحث عن ملجأ في الجبال بدلاً من الاستمرار في الجري على صول لسهل حيث لحق به جنح تركي ، صادف أنه كان هناك على ظهر جواده ، وقتله . وفي تلك المسسة أظهرت الصفات الدنيا من المواطنين كرهها القوي للأتراك . فقد رفعت أصواتها بالصفير وسبّ الجنود الذين مثلوا بقسوة بضحاياهم التعساء ، وشجعت الهارب بالتصفيق ، كما شتمت الحاج الذي قتله بأقذع العبارات وأمطرته باللعنات .

وحين أصبح كل شيء معداً للعودة التي ستقرر مصير حملة محمد علي غادر أحمد بونابرت مكة مع الحرس الأكبر من المشاة في الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨١٥ م ، وتقدم فوراً إلى كلاخ . وكان الباشا قد عزم على أن يلحق به مع حوالي ألف ومائتين من الفرسان في الرابع والعشرين من ذلك الشهر . لكن معلومات وردت إليه تفيد بأن قوة وهابية كبيرة قد رؤيت في المناطق المجاورة للقنفذة متجهة إلى جدة . وأثارت هذه المعلومات ذعراً شديداً . فأرسل كشافة من البدو لتقصي الأخبار . وحدثت فوضى كبيرة في جدة لأن الناس هناك توقعوا أن الوهابيين إذ لم يهاجموا الجدة نفسها فإنهم سيقطعون مواصلاتها مع مكة . وكان الماء نادراً بعض الوقت في جدة . فملئت الصهاريج الحكومية حينذاك بسرعة بإجراءات تعسفية . واستخرج السكان حاجاتهم الضئيلة من الآبار التي تبعد عن المدينة ثلاث ساعات . وارتفع سعر كل نوع من المؤن في مكة بنسبة ثلاثين بالمائة عند الإشاعة الأولى للأخبار . لكن الناس شفوا من

الذعر حينما أصبح معلوما أن قوة صغيرة مكونة فقط من جنود طامي قد ضربت خيامها قرب القنفذة .

وبعد أيام قليلة وصلت أخبار تفيد بأن بخروشاً قام بغارة على أراضي عرب ناصرة ، حلفاء الباشا ، ونهب مركزهم الرئيسي ، قرية بجيلة المحصّنة ، حيث تتمركز حامية من الأرناؤوط . وكانت ذات مرة مركز قيادة عابدين بك . ووصلت أخبار ، أيضاً ، تذكر أن تُربة كانت في حالة تأهب كبير ، وأن إمدادات تتدفق عليها من كل جهة لتدافع عنها ضد الهجوم المهدّد لها .

وفي السادس والعشرين من محرّم سنة ١٢٣٠ هـ (السابع من يناير سنة ١٨١٥ م) سار محمد علي باشا من مكة مع كل الجنود والإبل التي استطاع أن يعدّ ، وتقدّم نحو كلاخ حيث اجتمع من قبل حسن باشا وعابدين بك وماهو بك وأحمد بونابرت وتوبوس أوغلو والشريف راجح وزعماء الجيش الآخرون ، وحيث جمعت مؤن تكفي لخمسين أو ستين يوماً . وحين وصل إلى الزيمة ، التي هي المحطة الثانية على الطريق الشمالية من مكة إلى الطائف ، أخبره الرسل الذين أرسلوا بسرعة من البلدة الأخيرة أن حشداً كبيراً للعدوّ قد احتل بسْل بين الطائف وكلاخ ؛ قاطعاً المواصلات بين هذين الموضعين في حين قامت فرق معادية أخرى بغارة شرق الموضع الأخير ضد بدو عتيبة المتحالفين مع الأتراك . فأسرع محمد علي بمسيره نحو كلاخ حيث وصل إليها يوم الأربعاء . وبعد أن أرسل الشريف راجحاً مع جنوده من البدو والفرسان الليبيين لمساعدة العتبان تقدّم هو وجميع فرسانه يوم الخميس إلى بسْل ، فوجد الوهابيين

محتمين على جوانب الجبال المواجهة لسهول كلاخ . وكانوا قد احتلوا عدداً من موارد المياه الجيدة في حين كان الجنود الأتراك يحملون الماء الذي يحتاجونه على ظهور الإبل من كلاخ ذاتها . وقد اختلف في تقدير القوة الوهابية . فطبقاً لأوثق المعلومات كانت تلك القوة تصل إلى خمسة وعشرين ألف رجل وقليل من الفرسان ، إذ الجبال هناك فقيرة في الخيل ، والوهابيون نادراً ما استعملوا عدداً كبيراً من الخيل إذا قاموا بغزوة بعيدة المسافة بل يعتمدون أساساً على راكبي الإبل ورماة الجنود المشاة

وكان مع جيش الوهابيين خمسة آلاف بعير ، لكنه كان يفتقر إلى المدفعية من كل نوع وكان يتكوّن من رجال مختارين من الجنوبيين وعدد قليل من الشماليين ؛ إذ كان الشماليون مشغولين حينذاك بمظاهر العداء التي يقوم بها طوسون باشا من المدينة وكان مع جيشهم كل زعماء الجبال اليمنية والسهول الجنوبية الشرقية ، كما كان معهم فيصل بن سعود ، أخو الحاكم الوهابي في ذلك الوقت . وقد احتلّ المكانة الأولى بين زعماء الجنوبيين طامي ، شيخ عسير ، وابن مدحة ، عقيد نعت القبيلة أو زعيمها الحربي ، وكان ثلث الجيش من عربها وفي ذلك الجيش ابن قطنان ، شيخ عرب سبيع ، وابن خرشان ، زعيم تُربة ، وابن شكبان ، زعيم بيشة ، وبحروش ، شيخ عرب غامد وزهران ، وابن دهمان ، شيخ عرب شمران ، وابن كتامل[1] زعيم جزء من عتيبة بقي موالياً للزعيم الوهابي ، وابن ماحي[2] ، زعيم عرب الدواسر الذين يسكنون

---

(١) هكذا ورد الاسم ولعلّه القثامي

(٢) هكذا ورد الاسم . ولعلّه ابن ماجي .

بعيداً في الجنوب الشرقي من البلاد باتجاه حضرموت ، وكثير من القادة الآخرين الذين لا يقلّون عن هؤلاء شهرة وقوة ، والذين يقودون مجموعات مجتمعة من ذلك الجيش . وكان هجومهم المضلّل على القعدة محاولة لتحويل نظر الباشا عن الهدف الأساسي للهجوم . ثم هجموا دون توقع على بسل حيث احتلوا موقعاً قوياً في وسط خطوط الجيش التركي ذاته وحين اقترب فرسان الباشا بقوا في جبالهم ، وصدّوا هجوماً حدث على الوادي حيث أراد محمد علي أن يضع أحد مدافع الميدان . وانقضى يوم الخميس كله في محاولات غير مثمرة قام بها فرسان الأتراك الذين قتل منهم في آخر صفعة لهم حوالى عشرين فارساً برماح لفرسان الوهابيين .

ومع أن الأتراك لم يفقدوا إلا عدداً قليلاً من الصحاب ذلك اليوم فإنهم بدأوا يفقدون الأمل في النجاح . أما الوهابيون فكانت لديهم آمال متفائلة في إنهاك العدوّ بهزائم متكررة ، ثم تحطيمه في نهاية الأمر وخوفاً من مثل هذه النتيجة فرّ من الجيش عدد من الجنود الأتراك والبدو الذين كانوا في خدمة الباشا ، وأسرعوا عائدين إلى مكة . فوصلوا إليها ليلة يوم السبت التالي ، وبشروا فيها أخباراً عن هزيمة كاملة للجيش ، وموت الباشا ، وغير ذلك من المصائب .

ومن الممكن تصوّر مدى الرعب الذي تركته تلك الأخبار في مكة . وكنت أسكن هناك في ذلك الوقت . ولهذا فإني أستطيع أن أتحدث عن الحالة بصفتي شاهد عيان . لقد أخذ عدد كبير من المشرّدين التابعين للجيش والحجاج الأتراك يستعدون للعودة إلى أوطانهم . وكذلك فعل التجار الأتراك والجنود الذين كانوا في تلك

البلدة ؛ إذ توقع الجميع أن يقتلوا بمجرد وصول الوهابيين المنتصرين إليها . وكان يدفع أربعمائة قرش لاستئجار البعير الواحد لنقل الإنسان إلى جدة . لكن البدو القليلين الذين لديهم إبل أبعدوها إلى الجبال عند أول إشاعة للهزيمة . فغادرت مكة أعداد من الناس على أقدامهم ذلك المساء، وحاولوا أن يصلوا إلى جدة في صباح اليوم التالي . والتحق بالحامية في القلعة أناس آخرون يرتدون ملابس بدوية لكي يُظن أنهم ينسبون أحاسب لكن لم يستعد إنسان للدفاع . أما الشريف يحيى نفسه فمع أنه لم يتسلم أيّ تقرير رسمي فإنه كان مستعداً للهروب في أية لحظة إلى جدة . وأما أنا فكنت مقتنعاً بأنه إذا كان أساسنا قد انهار فإن جنود الوهابيين الخفيفة المتحركة سوف تتعقب كل الهاربين على طريق جدة ، وتمنع أية إمكانية للهرب . ولذلك رأيت أن آمن ملجأ لي هو المسجد الحرام الذي كان الوهابيون دائماً يحترمونه بصفته حرماً لا ينتهك . وبعد أن وضعت قليلاً من الأشياء الثمينة التي أملكها مع كمية لا بأس بها من البسكويت في حقيبة ذهبت مع مملوكي إلى الحرم وأقمت هناك . وقد لجأ إليه كثير من الحجاج الفقراء للسبب نفسه . وكان ذلك البسكويت مع ماء زمزم الموجود في الحرم كافياً لإعاشتي عدة أسابيع . أما أن حشد الأتراك كله لم يفعلوا ما فعلته فقد يكون سببه فكرتهم الخاصة عن الوهابيين ؛ إذ لم يفكروا أبداً أن جندياً في ساعة الانتصار سيعدّ أيّ مكان مقدساً .

على أنه ثبت أن مخاوفنا كانت مبنية على كوارث وهمية . فبعد ليلة من القلق الشديد فوجئنا وسررنا في صباح اليوم التالي بالتقرير الرسمي الذي يفيد بالهزيمة الكلية للوهابيين المحيمين . وقد اتضح أن محمد

علي رأى خلال المناوشات التي دارت يوم الخميس أنه لن تكون أمامه فرصة للنجاح ما بقي العدوّ مقيماً فوق الجبال . وعرف ، أيضاً ، أنه لو نجح في اليوم التالي فإن من المحتمل جداً أن تنتهي مشكلاته في كل من الحجاز ومصر إلى الأبد . وبذلك أرسل في أثناء الليل لإحضار تعزيزات من كلاخ ، وأمر ألفين من مشاته مع المدفعية أن يأخذوا موقعاً في جناح الوهابيين . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي جدّد الهجوم بالمدفعية ، لكنه صُدّ مرة أخرى . وحينئذ جمع ضباطه وأمرهم أن يتقدّموا ويقتربوا من موقع الوهابيين أكثر مما فعلوا قبل ذلك . وبعد أن يطلقوا نيران المدافع عليهم أن ينسحبوا بطريقة تبدو فوضوية . ونفذت هذه الخطة بدقة . ورأى الوهابيون الأعداء يهربون ، فظنوا أن اللحظة السعيدة لسحقهم تماماً قد حلّت . فتركوا مواقعهم الحصينة على جوانب الجبال ، وتعقّبوا الأتراك الهاربين فوق السهل . وحدث كل شيء كما توقع الباشا وحينما اعتقد أن العدوّ ابتعد عن الجبال مسافة كافية حشد فرسانه وواجه المتعقّبين بجيشه ، وتقرر مصير المعركة فوراً لصالحه .

وحينئذ اتخذ مشاة الأتراك مواقع العرب . وانضم الشريف راجح ، الذي كان قد وصل لتوّه مع أتباعه بعد أن اشترك في صدّ هجوم العدوّ على العتبان ، إلى محمد علي ، فأحاط بالوادي الذي سينسحب عبره الوهابيون وبدءت أجبرهم على أن يهربوا في أشد ما تكون الفوضى . وكان جنود الأتراك مؤهلين جداً لتعقّب عدوّ منهزم . وما أن رأى محمد علي العدوّ يجري هارباً حتى أعلن لجنوده أنه سيعطي ستة دولارات مقابل كل رأس من رؤوس الوهابيين . وفي ساعات قليلة كوّمت خمسة آلاف رأس أمامه . وأحيط بألف وخمسمائة وهابي في واد ضيّق فمزّقوا إرباً وأصبح

كل محبيهم وأمتعتهم وأكثر إبلهم فريسة للأتراك . وهرب طامي نفسه مع عدد قليل فقط من أتباعه

وقد أخذ حوالي ثلاثمائة وهابي أحياء ساء على أمر مستعجل من محمد علي ، الذي أمر رجاله أن يمنحوهم مأوى ؛ إذ لم يتناول لصب الرحمة من الأعداء إلا عدد قليل جداً . وأرسل الشريف راجح مع بعض الفرسان لتعقّب الهاربين والتحق به كثير من عرب المحاورين الذين ربما أظهروا مثل ذلك الحماس ضد الأتراك لو كان الوهابيون هم المنتصرين

وقد حرب الباشا شخصياً في تلك المعركة ، وذلك في محفظة التي أمر فيه فرسانه أن يعضوها ويواجهوا متعقبيهم . وهو جدير بالثناء عصبه بتصرفه في أثناء اسبعة التي سبقت ذلك الهجوم ، ومعرفته كيف يحافظ على روح المقاومة لدى جنوده الذين سبق أن فقدوا كل أمل في النجاح وبالإضافة إليه نه يميّز نفسه أي إنسان أكثر مما فعل الشريف راجح فقد امتطى فرساً مشهورة ومعه رمحه ، وعدا بعيداً أمام الجيش ووسط حشود من الأعداء نحو خيمة فيصل ، أمر ما في الجميّة كله من حيام وبعد أن ركز رمحه في الأرض أمامها دافع عن نفسه ضد عدد من الوهابيين حتى وصل إليه أصدقاؤه وأنقذوه وحين مر محمد علي بهذا لموضع بعد ذلك بقليل سأل راجحاً :

« لمن تلك الخيمة ؟ »

فأجابه :

« لفيصل »

قال له الباشا :

« إذن خذها وكل ما فيها » .

وباستثناء الإبل لم يأخذ الجيش غنائم ذات قيمة . ولم يجد رابح في خيمة فيصل إلا حوالى ألفي دولار فقط . وقد حدث كثير من النزاع بين الجنود الأتراك وبين حلفائهم من البدو الذين برفقة الشريف راجح حول تقسيم ما نهب . وبدا أن الباشا يميل إلى تفضيل البدو . فكان أكثر الإبل من نصيبهم . وقد قيل : إن الأتراك فقدوا في ذلك اليوم بين أربعمائة وخمسمائة رجل .

وربما كان سبب هزيمة الوهابيين نزولهم من الجبال إلى السهل ، إذ لم تكن لديهم أية وسائل لمقاومة لفرسان الأتراك . وكان سعود قد حذر ابنه في كلمته الأخيرة التي وجهها إليه من القيام بمثل ذلك العمل . لكن احتقارهم لجنود الأتراك ، ورغبتهم في إنهاء الحملة ، وربما رغبتهم في اعتقال محمد علي شخصياً ، من الأمور التي جعلتهم ينسون الأسلوب الحكيم الذي اتبعوه في الحرب من قبل . وكانت دهشتهم حين وجدوا أنفسهم مغلوبين فجأة هي التي جعلتهم غير قادرين على المقاومة

وعلى أية حال فإن قصصاً تروى عما أبداه الوهابيون من شجاعة رائعة . فقد شق ابن شكبان مع بضع مئات من الرجال طريقهم عبر مشاة الأتراك جميعاً ، وهربوا وقتل بخروش ، الذي كان أغلظ زعماء الوهابيين ، اثنين من ضباط الباشا . وحين قتل حصانه احتفظ بالفرسان الأتراك حتى وجد فرصة جذب بها أحدهم من فوق ظهر حصانه ، ثم امتطاه ، وهرب . وقد وجدت مجموعات بكاملها من عرب عسير فوق

الجمال وقد ربطوا أرجلهم بحبل واحد . وكانوا عند مغادرتهم لأسرهم قد أقسموا جميعاً بالطلاق (وهو حلف شائع بين البدو يحافظون عليه بدقة) ألا يفروا أمام الأتراك ، وأن يعودوا — إذا أمكن أن يعودوا — منتصرين. ولأنهم لم ينتصروا في المعركة قرروا ، على الأقل ، أن يمنع بعضهم البعض الآخر من الهروب. وقد قاتلوا حتى نفدت ذخيرتهم . ثم مزّقوا إرباً بعد ذلك

(١) قال ابن بشر من كان مع فيصل بن سعود في بسل ثلاثين ألف رجل . وهذا العدد مقارب لما ذكره بوركهارت . لكن ذكر أن عدد القتلى من جيش فيصل كان قليلاً جداً بحيث لم يتجاوز المائة انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ص ٢٤٤—٢٤٥
وسواء كان ما ذكره بوركهارت دقيقاً أم لا فإن عدد القتلى الذي أورده ابن بشر يبدو غير صحيح ذلك أن المتتبع للأحداث يرى أن معركة بسل كانت من المعارك الفاصلة المؤثرة في الحرب بين الطرفين . ومن المستبعد أن يكون عدد القتلى من الجانب المهزوم الذي يبلغ عدد أفراده ثلاثين ألف مائة رجل فقط

نتائج الانتصارات الأولى

بعد انتصار محمد علي في بسل مباشرة بعث رسلاً إلى القسطنطينية والقاهرة بنبأ ذلك الانتصار . وابتهج الأتراك في كل بقاع الحجاز ، واستعادوا عطرستهم القومية التي تركوها جانباً إلى حد ما في الفترة الأخيرة . ومع أن مواطني الحجاز كانوا مسرورين أن أصبحوا محميين من فتح وهابي آخر فإنهم حربوا أن يروا الأتراك يهرمون العرب ، ويتعدون من فظاعة الأعمال الوحشية التي ارتكبها المنتصرون خلال المعركة وبعدها على حد سواء . وقد أرسل محمد علي الثلاثمائة أسير الذين منحهم مأوى ، إلى مكة واحتفل بانتصاره على الطريقة الحقيقية للتركي الفاتح فقتل على الخوازيق خمسين رجلاً منه أمام أبواب مكة ولاقى كل اثني عشر منهم موتاً مروّعاً مثل ذلك عند كل واحد من المقاهي العشرة ، أو محلات الاستراحة ، بين مكة وجدة أما بقيتهم فقد بهم كما فعل بإخوانهم في مكة عند باب جدة وتركوا هناك حتى افترست الكلاب والنسور جثثهم وإذا كان الأتراك قد ابتهجوا في ذلك العمل الوحشي الكريه ، الذي عدّوه نصراً حربياً ، فإن كل حلفائهم من البدو عبّروا بصوت عال عن أشد نقمتهم ، واحتج الشريف راجح لدى محمد علي ، لكن بدون جدوى .

وبعد المعركة بأربعة أيام وصل الباشا بحيوية ساسية إلى تربة . وعند اقترابه منها هرب فيصل بن سعود . ولم يكن أمام سكانها ، الذين تركهم

حلفاؤهم ، إلا أن يستسلموا . ووضع محمد علي مركز قيادته في ذلك المكان بعض الوقت . وقد نهب الأتراك الذين معه قليلاً من المنازل ، واحتفظوا عدداً من النساء العربيات الجميلات ، اللاتي أرجعن بعد ذلك إلى أسرهن بأمر منه ولحقت غالبية إلى البدو . وكان من المحتمل أن ترسل إلى القسطنطينية تذكاراً للانتصار . لكن لم تستطع أية اقتراحات أن تقنعها بالعودة إلى بلدتها أو تجعلها تثق بما عرضه الأتراك عليها من وعود. وبعد الانتصار في بسْل مباشرة وجه الباشا الشريف يحيى أن يتقدّم مع عربه براً إلى القنفدة ، وعزّز قواته بجنود ماهو بك وأصدر ، أيضاً ، أوامره إلى جدة بأن ترسل إلى القنفدة عدة سفن محمّلة بالمؤن وبما أن قوة أعدائه تتمثل في الجهات الجنوبية من البلاد فإنه رأى أن ينقل الحرب إلى أراضيهم الخاصة ، ويقضي عليهم جميعاً . وحمل كل ما في كلاخ من مؤن على الخمسة أو الستة آلاف بعير ، التي كانت مع الجيش عند مسيره من مكة ، وعلى ما يقرب من ذلك العدد مما غنم في معركة بسْل .

وتقدّم الجيش من تُربة عبر أراضي عرب أكلب في اتجاه جنوبي نحو رَنْية وسار فوق أرض مستوية تمتد مسافة يومين ، ويسكنها عرب سبيع ، الذي كان شيخهم ابن قطنان قد حصن هناك قلعة صغيرة ، فاستسلمت . وبعد مسافة أربعة أيام من ذلك المكان وصل إلى منطقة بيشة ؛ وهي بلاد خصبة لقبيلة بني سالم القوية التي كان شيخها ابن شكبان أحد زعماء الوهابيين . وقد بنيت هناك قلعتان صغيرتان بأمر سعود ، الذي كان قد قوّى كل المواقع الرئيسية في تلك الجهات بمثل

هذه القلاع . وكان ابن شكبان قد لجأ بعد معركة بِسْل إلى خيام بعض البدو المحاورين من قبيلة قحطان . وفتحت إحدى القلعتين أبوابها لجيش محمد علي . وكان في الثانية ابن شعلان[1] ، الزعيم الآخر لبني سالم ، فدافع عن نفسه أربعة أيام ضد كل المشاة الأتراك بقيادة حسن باشا . أما محمد علي فقد اتحد مع فرسانه موقعاً في مزارع النخيل في الجانب الجنوبي لبيشة .

وعرضت اقتراحات على ابن شعلان ليستسلم بأمان . ولسوء حظه قبل تلك الاقتراحات . وخرج مع حاميته المكوّنة من حوالى ستين رجلاً من القلعة ، واستلم إبلاً لنقل أمتعته . لكن حينما ذهب إلى خيمة حسن باشا ليؤدي احتراماته له أنّبه ذلك التركي المتعصب على امتناعه . فدافع ابن شعلان بشجاعة عن آرائه ، وردّ على المتّهم له ، فغضب التركي عليه غضباً شديداً لدرجة أنه لما خرج هو وأتباعه من الخيمة أمر جنوده أن ينقضوا عليهم ، فمزقوهم إرباً . ولم يلتفت الحكم الأتراك أبداً إلى مثل تلك الأعمال المحزنة التي كثيراً ما حدثت .

وبقي الجيش حوالى أسبوعين في بيشة ، أهم موقع في البلاد شرقي الجبال اليمنية ، والتي يسمّيها البدو الشماليون مفتاح اليمن . وهناك التحق بالباشا كثير من البدو . فقد أتى إليه كل من كانوا ساخطين على الوهابيين ، وكل أقارب أولئك المشائخ الذين عزلهم حكامهم من مناصبهم بحثاً عن تعويض منه . وقلّد محمد علي أسلوب سعود ، فعيّر زعماء

---

(١) في الأصل ابن شنان (أو شعبان) . لكن ابن بشر ذكر اسمه شعلان . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ٢٤٦ . ولعله هو الصحيح .

القبائل في كل مكان بحيث كوّن له فيها حزباً قوياً . وقد وصلت إليه أخبار تفيد أن طامي (بن شعيب) جمع مرة أخرى جيشاً كبيراً في حمايته ، ودبر أن يحرّب حصنه في معركة ثانية . وحينئذ وجّه محمد علي زحفه نحو أراضيه متخذاً طريقاً عرب بيشة .

وفي ذلك الزحف عانى جيش الباشا أشد الجوع والتعب . وكان نصف الإبل قد تعب قبل وصول القوات إلى بيشة ، كما تعب كثير من الخيل . وقد نظّفت طبيعة الجيش الطريق من كل جذور الزروع وأوراق الحشائش حتى لا يجد من يأتون إليها بعده إلا صحراء قاحلة . وكان العرب يهربون عند اقتراب الأتراك مهم في كل اتجاه آخذين معهم مواشيهم ومؤنهم في حين انتهز البدو الذين اتّبعوا الجيش فرصة الفوضى العامة ، واختلسوا حمولاً كثيرة . وكان يسقط في كل توقف عدد من الإبل ، فيفترس الجنود لحمها بهم . وقد وزّع آخر السكويت في بيشة ، وبعد ذلك ترك كل فرد منهم ليمدّ نفسه بما استطاع . ووجد الباشا أنه من الضروري أن يسمح بزيادة إضافية على مرتّبات الجنود مقدارها قرش في اليوم . لكن تلك النقود كانت قليلة الفائدة في مكان لا يشبع الرجل فيه رغيته من الخبز مرة واحدة إلا بتكلفة مقدارها اثنا عشر قرشاً .

وبعد مسير محمد علي ومن معه يومين من بيشة دخل البلاد الجبلية التي كان كل أهلها تقريباً قد هجروها . وتمتع الأتراك عدة أيام بالهدوء بين عرب شمران . وقد أعاد محمد علي حسن السلسان إلى رئاسة هذه القبيلة بناء على حقوق أسرته القديمة . وينتمي حسن إلى رجل

جُعِل رئيساً للقبيلة المذكورة حينما فتح الباشا العثماني اليمن في عهد السلطان سليم منذ ثلاثة قرون . وقد مات هناك مائة من الخيل في يوم واحد . وأصبح الجنود مستائين . لكن لأنهم رأوا بوضوح أن الانسحاب سيؤدي حتماً إلى تحطيمهم ظلوا يتقدّمون . وأمر الباشا كل قادته أن ينزلوا عما يركبون ويسيروا على الأقدام في مقدمة طوابيرهم المعنية . ووعد جنوده بغنائم عظيمة ، وذلك بنهب مدن اليمن ؛ محاولاً المحافظة على معنوياتهم . وكانت تقام سوق في كل استراحة أمام خيمة الباشا حيث يبيع البدو الحلفاء على الجنود كل ما استطاعوا جمعه من العرب الذين في طريقهم وقد أشرف الباشا بنفسه على النظام ، ونفذه بدقّة .

وقد شكّلت الجبال الوعرة قرب أراضي عسير عقبات كثيرة أمام مرور المدفعية . وكان الجيش التركي قد دخل هذه الأراضي بعد اثني عشر أو أربعة عشر يوماً من مغادرته بيشة . وتوقّف عند قلعة تسمّى الطور تقع على أرض مرتفعة محاطة بالجبال . وقد بناها أبو نقطة ، سلف طامي ، واعتقد أنها قوية جداً بحيث يستحيل على قوة عربية أن تستولي عليها . وكان طامي قد جمع ، هنا ، ما بين ثمانية وعشرة آلاف رجل . فهاجمهم الباشا . وكما حدث في بِسْل رُدَّ الجنود الأتراك على أعقابهم في اليوم الأول . فقد أطلق العسيريون النار على نحو متواصل ، وقتلوا ثلاثمائة تركي وقد رؤي طامي على ظهر جواده أمام رجاله يشجعهم بأغاني الحرب . وحينما استعملت المدافع في اليوم الثاني تراجع الوهابيون . وهرب طامي نفسه ، لكنه كان آخر من ترك الميدان . وكان الدفاع في هذه المعركة أفضل منه في بِسْل . وكان الأتراك بفضل البدو المرافقين

لهم أكثر قوة من أعدائهم . وقد وجد في القلعة مخازن كبيرة من المؤن ، التي كانت مفيدة جداً للجيش ، كما وجدت ذخائر ، ومستودع كبير من بنادق الفتيل ، ودبابات فارسية قديمة يقدّرها العرب غاية التقدير ؛ إضافة إلى المدافع التي أخذها طامي من القنفذة في السنة الماضية .

وبعد أن أرسل محمد علي الشريف راجحاً في إثر طامي ، وعيّن شيخاً جديداً لعسير اسمه ابن مدري[1] ، نزل من الجبال عبر ممرات شديدة الانحدار إلى ساحل البحر ويبدو أنه كان يريد أن يتقدّم إلى اليمن عن طريق البلاد الأقل ارتفاعاً في السفح العربي من سلسلة الجبال العالية وكان الشريف حمود ، ولقبه أبو مسمار ، يسيطر على الساحل . وقد انضم في السابق إلى الوهابيين بعد كثير من الحروب معهم . لكن حينما وصل الأتراك إلى الحجاز أرسل مندوباً إلى الباشا يحمل هدايا ثمينة ؛ مؤكداً له استعداده لمساعدته . على أن هزائم الأتراك المتكررة جعلت حماسه لهم يخبو فبدأ اتصالات بطامي ، ووجد المندوب الذي أرسله محمد علي إليه أنه مشغول باستعدادات نشطة للحرب . ولعلّ خطته أن ينضم إلى الوهابيين إن فشلت الحملة التركية . وكان الباشا قد تطلّع منذ مدة طويلة إلى أن يعم بثروة اليمن المشهورة جداً ، والتي يحتمل أنها مبالغ فيها في الشرق على أية حال . ولعله رغب ، أيضاً ، في أن يهيمن على المبالغ الكبيرة من الدولارات التي ترسل سنوياً من القاهرة

---

(١) لعله أحد أفراد أبي مدره الذين كانوا شيوخاً لبحرم وعطّاب على أن المصادر التي تناولت تاريخ المنطقة في تلك الفترة لم تذكر ما يؤيد رواية بوركهارت ومن المحتمل أن من عيّنه محمد علي لم يكن حاكماً إلا لمنطقة صغيرة جداً .

لشراء القهوة . ويقال في الحجاز : إنه قد قرر مهاجمة حمود في حالة محاصرته صد الوهابيين . ولذلك السبب بدأ اتصالات مع إمام صنعاء الذي أرسل إليه هدايا ، وكان مهتماً جداً بالموقف الإيجابي لحمايته ؛ إذ ستخلصه من جارين خطيرين : الوهابيين وحمود .

وعلى أية حال فإن رجال الجيش بعد ذلك المسير الطويل الشاق المحفوف بالمخاطر أبدوا علامات قوية من التذمر ، وأعلنوا بصراحة رغبتهم في العودة إلى مكة . ومن المؤكد أن محمد علي اضطر في محاولة لتهدئتهم إلى أن يعدهم بأنهم سيرسلون قريباً إلى مصر ، ويحل محلهم قوات جديدة . وبدلاً من التقدم جنوباً وجه مسيره حينئذ نحو القنفذة وكان طامي بعد أن خسر المعركة قد اتخذ ملجأ قرب أبي عريش عند أحد أصدقائه من الأشراف القريبين من حمود . ورأى هذا الشريف في لجوء طامي فرصة مناسبة لتفادي عنف عدائي وإظهار خضوعه وتوبته . فقيد طامياً بالسلاسل ، وبعث رسولاً إلى مركز قيادة الأتراك ومعه رسالة من حمود لقب فيها نفسه « عبد محمد علي » وسأل عما يفعل بأسيره . وتلقى الشريف الجواب ، الذي كان حينئذ يتجوّل في الحال بحثاً عن طامي ، أمراً بأن يأخذه إلى القنفذة[1] . وكان الجيش قد وصل إليها في ذلك الوقت ، ووجد فيها كثيراً من إمدادات المؤن التي جلبت من جدة عن طريق البحر .

---

(١) يقول ابن بشر عن هذا الموضوع : « أرسل محمد علي طلباً في ساقة طامي فأدركوه موجهاً إلى حصن في تهامة يسمّى مُسْلية فيها له مال وسلاح وعدّة . فلما وصلهم أرسل إليه حسن بن خالد (وهو وزير لحمود) يستقدمه إلى صبيا . فلما قدمها مسكه ، وبعثوا به إلى محمد علي » انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ٢٤٧ــ٢٤٨ .

وأرسل محمد علي فرقة من الجنود من رتبة لغزو وهران عن طريق الشرق في حين صعد ماهو بك إلى الجبال من الغرب وبمناورة بارعة وضع عرب بحروش بين نارين. وبذلك هزموا، وقبض على بحروش نفسه، فحمل إلى القمعدة. وهناك بقي الباشا عدة أيام وأسيراه النبيلان موضوعان في خيمتين قريبتين من خيمته الخاصة. وكان تصرّف طامي يبعث الاحترام لدى الجيش كله. وغالباً ما تحدث معه الباشا للتسلية، كما يلعب النمر بفريسته قبل أن يمسكها بقبضته. لكن تصرّف طامي النبيل خفف وحشية هذا التركي، فوعد أن يكتب لصالحه إلى اسطنبول ويلتمس منه أن يسمح له بأن يعيش متقاعداً في جبال روميبيا. وكان طامي رجلاً ذا قوى خلقية عظيمة؛ كان قصير القامة، له لحية بيضاء طويلة، يطلق الشرر من عينيه، ساخراً بصمة عامة، لكنه مؤدب تجاه الزعيم التركي. وعلى العكس من ذلك لزم بحروش الصمت العابس؛ إذ كان مقتنعاً بأن محمد علي لن يغفر له عما قاله في الرسالة التي وجهها إليه سابقاً ولم يرغب الباشا أبداً في أن يراه. وذات ليلة وجد حراسه نائمين فالتقط حجراً، واحتال في فك قيوده ثم هرب من المخيّم. لكنه اعتقل بعد أن قتل رجلين وجرح ثالثا وسأله محمد علي في اليوم التالي:

« بأيّ حق قتلت الجنديين ؟ »

فأجاب:

« إذا كنت غير مقيّد أفعل ما أريد »

فقال الباشا:

« وسوف أتصرّف أنا بالطريقة نفسها ».

ولكي يسلّي أتراكه ، ويرضي شعوره بالثأر معاً ، أمر أن يوضع الأسير التعيس ؛ مقيداً بالسلاسل كما كان ، وسط حراسه الحاصبين الذين أمروا أن يحرجوه بعطء بسيوفهم كي يطيل تعذيبه . وفي آخر الأمر توفي دون أن يبس بشكوى واحدة . وأرسلت رأسه إلى القاهرة ومن ثَمّ إلى القسطنطينية مع طامي ، الذي قتل بعد وصوله إلى المدينة الأخيرة مباشرة(*) .

وتقدّم الباشا من القنفذة إلى مكة ، فوصل إليها بعد خمسة عشر يوماً ؛ وذلك في الحادي والعشرين من مارس . وسيدرك القارىء طبيعة حملته حينما أقول له : إنه لم يعد إلى مكة إلا ثلاثمائة بعير مما يزيد عن عشرة آلاف بعير كانت أساساً مع الجيش ومما أحد في بيشل . أما بقية الإبل فهلكت في الطريق . وأتلف كثير من الأمتعة والدخائر لأنه لم تكن هناك وسائل لنقلها . ولم يعد من الخيل إلا ثلاثمائة ، كما لم يعد من الأربعة آلاف تركي ، الذين أرسلوا من مكة ، إلا ألف وخمسمائة كنهم — من أربع رتبة إلى أصغرها — كانوا منهكين من التعب ، وبدون ملابس أو نقود .

وطبقاً للوعد الذي وعد به محمد علي أفراد جيشه في القعدة سمح لهم جميعاً أن يبحروا من جدة باستثناء حسن باشا الذي أبقاه في الحجاز مع بضع مئات من الأرناؤوط . وبعد ذلك بقليل وصلت إمدادات جديدة من مصر .

(*) وخلافاً لوعد الأمان الذي قطعه على نفسه محمد علي طُوّق عنق طامي بسلاسل ثقيلة حينما وصل إلى القاهرة ، ووضع على جمل طاف به الأسواق ورأس محروش تتدلّى في كيس من كتفه . (المؤلف)

وكانت قوة الوهابيين حينذاك قد أضعفت بدرجة كبيرة ؛ خاصة في الحروب . وحين وقعت معركة بِسْل كان عبد الله بن سعود مع حشد من قواته في منطقة القصيم مستعداً لمقاومة تقدم طوسون باشا من جهة المدينة . لكنه عاد إلى الدرعية بعد علمه بهزيمة أتباعه متوقعاً هجوماً من محمد علي الذي قد يتقدم بسهولة من تُربة إلى نجد .

وبعد وصول الباشا إلى مكة بقليل جمع كل كبارها وعلمائها ، وقرأ عليهم رسالة وجهها إلى عبد الله بن سعود طالباً منه أن يستسلم وعرضاً عليه شروطه للصلح . وقد طلب منه أن يعيد الكنوز التي سبق أن أخذها أبوه من ضريح النبي (صلى الله عليه وسلم) في المدينة إن هو أراد ألّا يلقى المصير الذي لقيه أصدقاؤه في الحروب . وقد بعثت هذه الرسالة إلى الدرعية مع جندي تركي وبرفقته عدد من البدو .

وبعد إقامة محمد علي في مكة مدة قصيرة ، وتعيينه حسن باشا حاكماً لها ترك حسين بك ، أحد قادة الفرسان ، والشريف راجحاً على رأس حاميتين في تُربة وبيشة . ثم سافر إلى المدينة براً مع ثلاثين أو أربعين رحلاً من مرافقيه ممتطين حميراً . ووصل إليها دون توقف في الرابع عشر من أبريل . وكان طوسون باشا قد غادرها فعلاً . وفي أثناء ذلك كان توماس كيث ، أو إبراهيم أغا ، المذكور سابقاً يقوم بحكمها .

وحينما أصبحت أخبار نجاح محمد علي معلومة لدى القبائل الشمالية اتصل كثير من مشائخها بطوسون باشا ، وعرضوا عليه أن يلتحقوا به ضد الوهابيين ، الذين كانت قوتهم محسوسة في الشمال أكثر مما هي بين القبائل الجنوبية . وفي شهر مارس أتى إلى المدينة أكثر

زعماء القصيم ؛ واحداً بعد آخر ، وأكّدوا لطوسون باشا استعدادهم لمساعدته[1] . فخلع عليهم هدايا ، وأرسل أربعمائة فارس ليحموا قراهم . وتكوّنت لديه حينذاك آمال في فتح نجد . وبالرغم من شجاعته الشخصية العظيمة التي كثيراً ما برزت في المواقف الحرجة فإنه كان دائماً قليل الحظ في حملات الحجاز . وقد أصبح توّاقاً إلى أن يشارك أباه في المجد الذي حققه في حملته الأخيرة . لكنه ؛ مثل غالب الأتراك ، لم يحسب حساب موارده . فأبوه لم يخصص له مبالغ كبيرة من المال لعلمه بكرمه ونزعته السخية ، وربما لأنه غير راغب في أن يرى أيّ إنسان بجانبه هو يحصل على شهرة في الحجاز . وكان طوسون في حاجة ماسة إلى الإبل والأطعمة للقبائل المجاورة . وكانت أسعار جميع المواد أغلى في المدينة منها في مكة . وعلى أية حال فإنه رأى أن يجرّب حظه ، فغادر المدينة في نهاية مارس متجهاً إلى الحناكية ؛ وهي قرية خربة ذات أسوار تبعد عن المدينة يومين أو ثلاثة أيام على طريق القصيم وكان معه حوالي أربعمائة بعير تحمل المؤن ، وما بين مائتين وثلاثمائة فارس ، وأربعمائة من الجنود المشاة . وقد لحق به بضع مئات من البدو ، أغلبهم من قبيلتي حرب ومطير .

وبقي طوسون في الحناكية بعض الوقت . وبينما كان هناك وصل أبوه إلى المدينة . وربما كان سبب زيارته لهذه البلدة المقدّسة رغبته في الحصول على معلومات عن أمور شمالي الحجاز ، والصلاة عند قبر النبي

(١) المعروف أن بلدان قليلة جداً من بلدان القصيم هي التي حدث اتصال بين زعمائها وبين طوسون أما أكثر بلدان المنطقة فبقيت مخلصة لآل سعود

(صلى الله عليه وسلم) . وقد أرسل فور وصوله إليها أمراً إلى ابنه طوسون باشا طالباً منه أن يعود من الحاكية لكي يتشاور معه حول الإجراءات التي يمكن أن تتخذ مستقبلاً لكن طوسون كان ، على أية حال ، مصمماً على الغزو . وما أن تسلّم أمر أبيه حتى انطلق نحو القصيم بدلاً من إطاعة ذلك الأمر والعودة إلى المدينة . وبما أنه كان مساوياً لأبيه في الرتبة ، إذ كان مثله باشا ذا ثلاثة أطواق ، فإن ذلك الأب ربما كان محظوظاً في حجه بشعر شعوراً قوياً بدرجة استقلاله ولا داعي للبحث عن أي شيء يشبه المشاعر الطبيعية بين النبلاء الأتراك . وقد حوّلت حماقة جدة ، التي كانت من حق طوسون ، بأمر من الباب العالي إلى محمد علي ؛ وذلك للإنفاق على الحرب ولم يكن طوسون باشا يستلم إلا مكافأة معيّنة يومياً ؛ مثل كل قادة الجيش الآخرين . وبوضع شعبان الحجار تحت قيادة محمد علي أشرك هذا معه رجلاً من حاشيته الخاصة ، اسمه قدري أفندي ، تمّ عن طريقه كل الأعمال . وبصح طوسون أن يستشيره في كل المناسبات ، كما لو كان قد اعتقد بأن ابنه غير مؤهل للمكانة العليا التي احتلها .

وبعد وصول طوسون وقدري أفندي إلى المدينة بقليل جعل الأخير نفسه ، كما هو واضح ، مكروهاً لدى تلميذه . فقام هذا التلميذ في فورة غضب بقتله . وعندئذ حدثت فوضى كبيرة في إدارة الأمور . فعلاقات الأتراك بالعرب المجاورين كانت تدار بسوء . وكان الجنود يرتكبون أعمال

سلب ونهب* . ولحاجة طوسون إلى الإبل أخذ كل تلك التي استطاع أن يجدها لدى البدو . وبدلاً من أن يقوم محمد علي عند وصوله إلى المدينة بإجراءات هجومية ضد العدوّ أصبح مشغولاً تماماً في إصلاح النتائج السيئة لأخطاء ابنه . وأرسل مائتين وخمسين فارساً بقيادة توماس كيث ، أو إبراهيم أغا ، إلى طوسون ، كما أرسل إليه كتيبة من المشاة الذين وصلوا من ينبع بقيادة أحمد بونابرت ، الذي عاد لتوّه من القاهرة . وبعد مسيرة دامت عشرة أيام أو أحد عشر يوماً وصل طوسون إلى منطقة القصيم ؛ وذلك في أوائل مايو . وقد هاجم خلال مسيره بادية هتيم وأخذ من إبنهم خمسمائة بعير . فأرسلها إلى المدينة لنقل المؤن من ينبع وعند وصوله إلى الرّس ؛ إحدى بلدان القصيم الرئيسية أو قراها الكبيرة المحصّنة بسور ، انضم إليه الفرسان الذين سبقوه في الوصول إلى هناك وقدم إليه مشائخ الجهات المختلفة في القصيم ليبحثوا معه الإجراءات التي يجب اتخاذها لكن زعيم القصيم الكبير ، حجيلان ، لم يأت إليه . ذلك أنه كان دائماً مخلصاً لسعود ثم لابنه عبد الله ؛ إذ جمع لمساعدته أتباعه من العرب في بلدة تسمّى بريدة

---

* في يناير سنة ١٨١٥ م وصلت إلى المدينة وبعد ذلك بقليل ترك العرائش من مصر وفي ذلك الوقت كان مملوكي يأتي إلى البيت بانتظام باكياً وشاكياً من أن الجنود الأتراك قد أخذوا منه اللحم الذي حصل عليه لي ، وضربوه لأنه حاول أن يقاومهم (المؤلف)

وفي أثناء ذلك لم يهمل عبد الله بن سعود واجبه . فقد دخل منطقة القصيم ، أيضاً ، بجيش من حاضرة نجد وباديتها ، وجعل مركز قيادته في الشبانة التي لا تبعد إلا خمس ساعات عن الخَبْراء حيث يخيّم طوسون باشا[1] . لكن طوسون وجد نفسه في موقف حرج . فقد سمع أن حارن ماله ، إبراهيم أغا ، أو توماس كيث ، قد أحيط به في الطريق ، وأنه رغم مقاومته الباسلة قد مزّق هو وكل فرسانه إرباً . وكان من الممكن أن تمدّ منطقة القصيم الخصبة جيشاً أكبر بكثير من جيشه . لكن عدد قوات الوهابيين حقيقة الحركة كان ، على أية حال ، حوى عدد الأتراك الذين كان كل اعتمادهم على قريتين أو ثلاث قرى في طعامهم اليومي مما جعلهم يتنبأون بأنه سيصبح حتماً شحيحاً جداً[2] .

وكان العدو يحتلّ الطريق إلى المدينة . ولم يكن من الممكن الحصول على أخبار الخطوات التي اتخذها محمد علي .

(١) لم يتخذ عبد الله بن سعود الشبانة مركزاً لقيادته وإن كانت من بلدان القصيم التي ظلت مخلصة له . وحين دارت المفاوضات بينه وبين طوسون كان مركز قيادته في الحجناوي بين عنيزة والرس ، حيث استقام حوالي شهرين ، في حين كان طوسون في الرس . انظر عنوان المجد ، ج ١ ، ص ص ٢٤٩–٢٥٠ .

(٢) وهذا يؤيد ما سبق أن أشير إليه في التعليق (ص١٨٦) من أنه لم ينضم إلى طوسون إلا بلدان قليلة من بلدان القصيم .

ولم يكن في استطاعة طوسون باشا أن يضع ثقة كبيرة في البدو الذين كانوا معه لأنه كان يعلم أنهم مستعدون للانضمام إلى الجانب الآخر في أول نكسة للأتراك. وقد رغب في أن ينهي كل حساباته المعلقة بمعركة، لكن ضباطه وجنوده لم يكونوا على استعداد لذلك. فقد أخافهم الوهابيون الذين يفوقونهم عدداً. واقتنعوا بأنهم لو هزموا فلن يستطيع أيّ واحد منهم الهرب. فرأوا من الحكمة أن يصلوا إلى حلّ مع العدوّ بدلاً من محاربته. والأكثر من هذا أن محمد علي كان قد خوّله بأن يعقد صلحاً إذا استطاع أن يصل إلى ذلك وفق شروط مفضّلة. وقد استخدم بعض البدو لاستطلاع رأي زعيم العدوّ. وحين علم عبد الله بن سعود بالوضع أرسل حبّاباً، أحد رجاله، ليكتشف نوايا طوسون الحقيقية، وأعطى أماناً لأيّ إنسان قد يرسل إلى المخيّم الوهابي. ومهما بدت هذه الأمور مشجعة لعبد الله فقد تنبأ أنه لو حطّم كل قوة طوسون المكوّنة من ألف ومائتي رجل فسيكون ذلك قليل الفائدة بالنسبة له؛ إذ سيضطر محمد علي إلى أن يوجه كل قوته ضد هذه المنطقة. وسيكون ذلك النصر الجزئي أكثر ضرراً بالقضية الوهابية العامة. وبالإضافة إلى هذا فقد علم أن موارد مصر من الكثرة بحيث ستمكّن محمد علي من إطالة الحرب في الحجاز لأي وقت شاء. لقد عانى الأتراك كثيراً من الهزائم، لكنهم كانوا دائماً يعوّضون خسائرهم ويصبحون أقوى من ذي قبل. وكانوا، أيضاً، يملكون وسائل الرشوة. والزعيم الوهابي يعلم جيداً أن بعضاً من رفاقه الحاضرين كانوا أعداءه في قلوبهم. وبتوصّله إلى صلح يستطيع أن يضمن تبعية تلك القبائل التي لم تنضم بعد إلى الجانب التركي.

واستقبل طوسون حبَّاباً استقبالاً طيبا . وأرسل فوراً طبيبه السوري ، يحيى أفندي ، الذي يتكلّم العربية أفضل من أيّ تركي ، ليتفاوض مع عبد الله . وحمّله بعض الهدايا إليه . وبقي يحيى ثلاثة أيام في المخيّم الوهابي . وبما أن كلا الطرفين كان راغباً في الصلح فإن المفاوضات سرعان ما انتهت إلى نتيجة إيجابية . وذهب أحد رجال حاشية عبد الله إلى طوسون منتظراً توقيعه على الاتفاق الذي تضمّن تخلّي عبد الله عن كل مطالبه في امتلاك البلاد المقدّسة ، وتعهّد بأن يسمّي نفسه تابع السلطان المطيع . وحصوله على حرية كل أتباعه في المرور عبر الأراضي التركية مما سيمكّنه من تأدية الحج متى شاء . وتخلّى طوسون لعبد الله ابن سعود عن كل البلدان التي استولى عليها في القصيم ، وتعهد عنه كل زعماء تلك البلاد الذين سبق أن انضموا إليه ، كما تخلّى له عن كل تلك القبائل البدوية التي تقع مراعيها خلف الحناكية ، محتفظاً لنفسه فقط بتلك التي تسكن بين هذا المكان وبين المدينة وفي أراضي البلاد المقدّسة . ولم يُقل شيء عن الوهابيين الحجازيين . ونتيجة لذلك قام عبد الله بعد ذهاب طوسون مباشرة بمعاقبة البدو ؛ خاصة قبيلة مطير ، الذين سبق أن انضموا إلى أعدائه . وبما أن كل فريق توقّع خيانة من الآخر قامت بعض الصعوبات بالنسبة لأولوية المغادرة . وقبل عبد الله في نهاية الأمر أن يغادر المكان ، لكنه أصرّ على أن يصحبه أربعة من كبار ضباط الباشا رهائن لديه حتى يصل إلى مكان آمن ثم يعيدهم إليه وتلكأ طوسون بعض الوقت تجاه هذه المسألة ربما ليغطي ضعفه . وتراسل الطرفان . وفي حوزتي الآن عدد من رسائل عبد الله الأصلية . وأكثرها توضح صراحة وشجاعة اللغة التي امتاز بها البدو دائماً ؛ إذ تختلف

كثيراً عن الأسلوب الرسمي التسجيلي المعتاد بين الأمم الشرقية الأخرى في مثل تلك الظروف . وكلها مكتوبة بإملاء مباشر من عبد الله نفسه معبّرة عن المشاعر الصادقة التي يحس بها تلك اللحظة . ويوضح الحط الذي كتبت به أنه لم يُستغرق إلا وقت قصير في وضع تلك المشاعر على الورق .

وبعد ذلك عاد طوسون من الخبراء إلى الرَّس . ثم غادر منطقة القصيم بعد أن أقام فيها ثمانية وعشرين يوماً . ووصل إلى المدينة قرب نهاية يونيو سنة ١٨١٥ م وكان معه مبعوثان وهابيان من عبد الله إلى محمد علي يحملان بنود الاتفاق على الصلح ، كما يحملان رسالتين إحداهما إلى الباشا والثانية إلى السلطان العثماني .

ولم يجد طوسون أباه في المدينة ذلك بأن الأب اقتنع بأن الموارد والوسائل الفعلية لحرب في الأنحاء الشمالية من الحجاز كانت غير كافية لإمداده بالآمال في النجاح فرأى أن يترك الفرصة المشكوك فيها لابنه بدلاً من إقدامه هو على مخاطرة قد تقلّص السمعة التي سبق أن حصل عليها وبهذه المناسبة أبدى افتقاره العظيم إلى الشعور الأبوي . وحينما كان طوسون غائباً لم يبعث إليه أبداً أي رسول . ولذلك بقي جاهلاً بكل ما كان يحدث في المدينة وغيرها من الأماكن[1] . وبالإضافة إلى ذلك لم يفكر محمد علي إلا قليلاً في احتياجات ابنه لدرجة أنه تركه بدون قرش واحد . وحين وصل طوسون إلى المدينة اضطر إلى أن يستدين مالاً لمصاريفه اليومية . وربما كان هناك سبب مقنع لمغادرة محمد علي المدينة ، وبالتالي الحجاز . ففي فبراير ومارس من سنة ١٨١٥ م كانت

في مصر توقعات لهجوم على الاسكندرية يقوم به الكابتن باشا ، القائد الأعلى الذي وصل من بحر مرمرة بأسطول قويّ . وكان يطوف في الأرخبيل . وقد عززت كل من الاسكندرية ورشيد بقوات كبيرة . وأرسل كيخيا بك ، حاكم القاهرة ، رسلاً بسرعة براً ليخبر محمد علي بتلك الظروف .

وفي التاسع عشر من مايو — بعد عدة أسابيع من معاودتي لينبع عائداً إلى القاهرة — تلقى سليم أغا ، حاكم البلدة الأولى ، رسالة مستعجلة من المدينة يأمره فيها محمد علي أن يعدّ سفينة للإبحار في ذلك المساء نفسه ، ويهدّده بالموت إن لم يفعل ذلك . وفي اليوم التالي وصل إلى هناك مع عدد قليل من حاشيته على ظهور الإبل . وبدون أن ينتظروا بعضاً من الوقت لتناول المرطبات على الساحل أسرعوا إلى السفينة ، وأبحروا فوراً . ولم يسمح الباشا لقائد تلك السفينة أن يسير بمحاذاة الساحل ، كما هي العادة ، رغم أنه يعلم أن السفينة لم تكن محمّلة بالماء إلا قليلاً ؛ بل أمره أن يبحر بعيداً عنه متجهاً مباشرة إلى القصير .

وعند نزول محمد علي إلى القصير لم يحصل على حصان أو بعير . ولئلا يضيع الوقت ركب حمارة ، وسار عليها عبر الصحراء إلى قنا . وكان يريد أن يذهب من هناك بسرعة إلى القاهرة عن طريق نهر النيل . لكن الخوف من هجوم على الاسكندرية توقّف خلال ذلك .

(١) ما ذكره المؤلف ، هنا ، يبدو متناقضاً نوعاً ما مع ما ذكر سابقاً (ص٨٨) من إرسال قوة إليه بقيادة إبراهيم أغا .

وحين سمع بتوقّفه سافر على مهل نحو عاصمته . ووصل إليها في الحامس والعشرين من يونيو سنة ١٨١٥ م ؛ وذلك بعد غياب دام سنتين تقريباً عادت صحته خلالها الشيء الكثير من مناخ جزيرة العرب . ولم يكن يعلم حينذاك أن صلحاً قد تمّ مع الوهابيين . لكن لكي يحيط وصوله بأبهة السماح الباهر أعلن أن طوسون قد أخذ الدرعية ، وقضى تماماً على الوهابيين .

وفي شهر أغسطس ـــ بعد عودة محمد علي إلى مصر ـــ أظهر أكثر أولئك الجنود الذين صحبوا ذلك الباشا في حملته على الجزيرة العربية علامات من العصيان المسلّح . فبدأ فيلق ماهو بك وغيره بنهب العاصمة . ورأى الباشا من الضروري أن يغلق على نفسه أبواب قلعته هناك . فقد وجد أولئك الجنود ، الذين وعدوا وعوداً جميلة في الحجاز ، أن القوانين المقترحة حينذاك ستخفض مرتّباتهم كثيراً ، وتزيد متاعبهم . ذلك أن الباشا رغب في أن يدخل «النظام الجديد» على الجيش ؛ وهو الإجراء الذي كان حاسماً بالنسبة للسلطان سليم . لكن العصيان المسلّح لم يستمر في تقدّمه ، ولم يجرؤ محمد علي على معاقبة الثائرين . وقد لوحظ أن الشهرة التي حصل عليها في الحجاز قد أحدثت تغيّراً في شخصيته . فالدماثة التي ميّز بها نفسه عن الباشوات الآخرين تحولّت إلى عطرسة . وبدلاً من اتّباع إدارة بسيطة شبه عسكرية بدأ ينغمس في الأبهة والتفاخر ، وسخّر كل الصادرات والواردات لمنفعته الخاصة مما أضرّ مالياً بكل من العمّال وأرباب العمل .

وقد وصل المندوبان اللذان أرسلهما عبد الله بن سعود مع طوسون

باشا إلى القاهرة في أغسطس خلال عصيان الجنود المذكور سابقاً . وكان أحدهما ، واسمه عبد العزيز ، من أقارب مؤسس المذهب الوهابي محمد بن عبد الوهاب[1] . أما الآخر فأحد موظفي سعود الكبار[2] . وقدّما إلى محمد علي بنود الصلح الذي توصل إليه عبد الله بن سعود مع ابنه طوسون ، والرسالتين المشار إليهما من قبل . وكان عبد العزيز غزير المعرفة . وقد أمر الباشا عدداً من أقدر علماء القاهرة أن يناقشوه في أمور العقيدة . وكان يسأل عن كل شيء يتعلق بإدارة مصر المدنية والعسكرية ، وعن مواردها وتجارتها . وقد اشترى عدة كتب عربية . وأثار في آخر الأمر حسد محمد علي ، فأمر جنديين أو ثلاثة جنود بملازمة المندوبين طيلة الوقت أينما ذهبا . وقد جعل هذا التصرّف إقامتهما غير سارّة ، فطلبا الإذن لهما بمغادرة البلاد . وقد أعطي كل منهما هدية مكوّنة من طاقم ملابس وثلاثمائة دولار . وبعث الباشا معهما رسالة إلى عبد الله بن سعود تتعلق بالسلم والحرب مكتوبة بطريقة غامضة جداً . وقد ذكر فيها استعداده لتأكيد الصلح الذي سبق أن توصل إليه عبد الله مع ابنه بشرط أن يتخلى له الوهابيون عن منطقة الأحساء ، وهي من أهم مناطقهم وأخصبها ، وتقع على الخليج العربي .

وقد أصبح الآن واضحاً أن المسألة لا تخلو من أمرين : إما أن طوسون باشا قد خدع الوهابيين في القصيم ، أو أن محمد علي قد أعطى

---

(١) انظر ترجمة عبد العزيز ص **٢٣ هـ ١**.

(٢) واسمه عبد الله بن محمد بن بنيان وهو من أهل الدرعية . انظر **عنوان المجد** ، ج ١ ، ص ٢٥١

دليلاً جديداً لإدراكه كل الارتباطات التي يرتبط بها . فطوسون ، المساوي لأبيه رتبة ، قد توصل إلى صلح يلزم فريقه كله ، وتمتّع بمزايا ذلك الصلح كاملة ؛ وذلك بالسماح له أن يقذ نفسه وجيشه من الهلاك . لكن أباه ، على أية حال ، بدا حريصاً على أن يظهر الأمر بطريقة مختلفة لقسطنطينية . وبما أنه قد قطع على نفسه عهداً بأن يقضي على الوهابيين بأخذ الدرعية فقد كان من الضروري أن يقنع مولاه السلطان بأنه لم يتحوّل بعدُ عن ذلك الهدف ، وأن الصلح الذي توصل إليه ابنه يجب أن يعدّ مجرد هدنة مؤقتة .

وفي سبتمبر عام ١٨١٥ م أُتي بالشريف راجح ، البطل العربي ، إلى القاهرة مكبّلاً بالأغلال . وقد قيل : إنه بإيعاز حسن باشا ، حاكم مكة ، الذي شكّ في أنه على اتصال خيابي مع العدوّ . لكن الحقيقة هي أن كل قادة الجانب العثماني كانوا يطرون إليه بعين الحسد بسبب الشهرة التي نالها ، والرأي السائد بأن النصر في بسْل كان قد تحقق بجهوده . وخلال الشهور الأولى من سجنه في القاهرة كان يعامل معاملة محترم من عامة الناس . لكن حينما بدأت التجهيزات لغزو جديد ضد الوهابيين في ربيع عام ١٨١٦ م أطلق سراحه ، وعمل محمد علي أن يريه علامات من الاحترام .

وفي السابع من نوفمبر عام ١٨١٥ م وصل طوسون إلى القاهرة مع عدة مئات من الجنود . وكانت العلاقات مع الوهابيين قد أعيدت بعد رجوعه إلى المدينة . فقدمت القوافل من نجد إلى المدينتين المقدستين في الحجاز . وأدى الحج كثير من الوهابيين في ذلك العام . ولم يجهد

أيّ قائد تركي نفسه كما فعل طوسون ، كما لم يبد أيّ واحد منهم شجاعة شخصية أكثر منه . لكن جهوده كانت دائماً غير موفّقة . وقد استقبل في القاهرة بكل التكريم المناسب لمكانته وشجاعته . لكن عند زيارته لأبيه في الاسكندرية استقبل ببرود كبير*.

وقرب نهاية عام ١٨١٥ م قدم من الحجاز إلى القاهرة عدد من مشائخ العرب مطالبين بحماية الباشا . وكانوا أقارب لابن مدري الذي عيّنه محمد علي زعيماً لعرب عسير بدلاً من طامي (بن شعيب) . لكن حين عاد الباشا إلى القاهرة أجبر أنصار طامي المشائخ الجدد على الهروب . وبما أن حسن باشا لم يتمكن من مساعدتهم استقبلهم محمد علي بلطف في القاهرة ، وأعطاهم بعض الهدايا ، وأعادهم إلى مكة . لكنه لم يستطع حينذاك أن يوفر أية قوات للحجاز ؛ إذ كان مشغولاً جداً في استعدادات للدفاع عن ساحل البحر الأبيض المتوسط ضد هجوم وردت التقارير بأن الانجليز ينوون القيام به . وكان قد سمع وهو في الحجاز بمعاهدة باريس الأولى وسقوط بونابرت ، وأصبح خائفاً من أن ترسل انجلترا جيشاً كبيراً من جنوب فرنسا إلى مصر التي كان يفترض أنها هي الهدف العزيز لكل القوى الأوربية . وتجدّدت هذه المخاوف بمعاهدة

* في سبتمبر عام ١٨١٦ م توفي طوسون باشا بالوباء في بلدة رشيد حيث كان يقود قطاعاً كبيراً من القوات المتمركزة هناك للدفاع عن الساحل . وقد حُزن على موته لأنه كان رجلاً أبدى إخلاصاً عظيماً لأصدقائه ، وكان مسرفاً في إنفاق المال . (المؤلف)

باريس الثانية[1] . وازدادت أكثر من ذي قبل حينما احتلّ الانجليز الجزر السبع ، التي كان يعدّها مطلق الخطوات الأولى نحو أراضيه الخاصة وقد أكّدت له رأيه تقارير جواسيسه السحيقة ، وهمسات الفرنسيين المذهبين المذللين ، أو الأوربيين الكذّابين ، الذين كانوا جميعاً ضد العنصر الانجليزي . وبعد شهور توقّف الخطر ، فوجه نظره مرة ثانية إلى الحجاز ، وعزم على إرسال حملة قوية إلى تلك البلاد بقيادة ابنه إبراهيم باشا . وفي يناير سنة ١٨١٦ م كتب رسائل إلى مشائخ العرب في الحجاز يخبرهم بمسير إبراهيم السريع ، ويحثّهم على مساعدته ، ويؤكّد لهم أنه قد عزم على أن يزور أراضيهم بنفسه في المستقبل القريب فيتوّج انتصاره السابق بأخذ الدرعية . ولم يرد ذكر في هذه الرسائل للصلح الذي توصل إليه طوسون مع عبد الله بن سعود ، كما لم ترد أية إجابة من هذا الأخير عن مطلب محمد علي الخاص بالأحساء .

وفي مارس عام ١٨١٦ م وصلت إلى القاهرة معلومات تفيد بأن مصادمات وقعت جنوب مكة . وقد انسحب الفرسان الأتراك المتمركزون في بيشة ورنية وتربة . وبقي بعض البدو الذين في خدمة الباشا حامية في البلدة الأخيرة . وقد اتضح أن الوهابيين يزدادون قوة كل يوم في تلك

(١) معاهدة باريس الأولى هي المعاهدة التي وقعت في ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ م بين فرنسا المهزومة وبين الدول الأوربية المنتصرة عليها . وكان بنودها (عادلة) ، إذ سمح لفرنسا أن تحتفظ بحدودها القديمة السابقة للثورة .
أما معاهدة باريس الثانية فهي المعاهدة التي وقعت في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ م بين فرنسا وبين الحكومات الأوربية . وكانت أكثر تشدداً من الأولى ضد فرنسا ، إذ فرضت عليها أن تدفع غرامة حربية تبلغ أربعين مليوناً من الجنيهات عقاباً لها على مناصرة نابليون بعد هروبه من جزيرة إلبا ، وأبقي فيها جيش احتلال عدده مائة وخمسون ألف جندي لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات .

الربوع . ولم يبد أن المناطق الحيوية قد دخلت أبداً في الصلح الذي عمل مع عبد الله بن سعود .

وفي أغسطس عام ١٨١٦ م غادر إبراهيم باشا القاهرة ، موصلاً إلى المدينة ، ومن ثمّ إلى القصيم . وكان برفقته حوالي ألفين من المشاة ، الذين قدموا عن طريق القصير إلى ينبع ، وألف وخمسمائة فارس من البدو الليبيين الذين قدموا عن طريق البر . وقد اختار إبراهيم بنفسه هؤلاء الفرسان من بين أكثر قبائل بادية الصعيد ولعاً بالحرب[1] . وكان في حاشيته ضابطان فرنسيان كان أحدهما ؛ وهو قائد سرية ، مع بونابرت في روتشيفورت ، لكنه لجأ إلى مصر في أعقاب أوامر بمغادرته فرنسا . وهنا قام محمد علي باستقباله هو وعدد من الفرنسيين الآخرين المهاجرين سنة ١٨١٥ م بطريقة ودّية جداً .

(١) أدت حملة إبراهيم ضد الإمام عبد الله بن سعود إلى نهاية الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) بعد أن أبدى أنصار ذلك الإمام كثيراً من الشجاعة والتضحية

الملحق الأول

رسالة محمد علي إلى كبار أهل المدينة يخبرهم فيها بتفاصيل انتصاره العظيم على الوهابيين في بسل (يناير سنة ١٨١٥ م)* .

بفضل الله الأعلى إلى وجهاء شعبنا سكان المدينة المنورة . إلى الزعماء النبلاء الأجلاء . جيران نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، الأوائل بين الأشراف والعلماء . الحديرين باشاء ، الأفاضل ، وجهاء المدينة سلمهم الله ورعاهم ، وأغدق عليهم نعمه الكبرى ، آمين .

نهديكم أحسن سلامنا وتحياتنا ، ونخبركم أن الله ، الذي تقدس مجده وقوته ، قد أتاح لنا أن ننجز آمال سلطان سلاطين الإسلام ، بحثنا على أن نحرك جيش المؤمنين حقاً من مكة ؛ مجهزاً بكل الإمدادات الضرورية من المؤن والأمتعة والذخائر ، لكي ننقل مركز قيادتنا من هناك إلى كلاخ . ولهذا الغرض سرنا من مكة يوم السبت السادس والعشرين من شهر محرّم ، ووصلنا إلى كلاخ يوم الأربعاء آخر يوم من ذلك الشهر . وكانت خطتنا أن ننطلق بسرعة إلى تُربة لنتصدى هناك لقوات الخوارج المتحدة بقيادة زعيمهم فيصل بن سعود ومعه ابن شكبان وابن دهمان وابن قطنان وابن ماضي ، إضافة إلى بخروش وابن كتامل ، وكل رؤساء عرب

* هذه الرسالة مثل لأسلوب الكتابة باللغة العربية وقد قرئت أمام اجتماع عام في مسجد المدينة الكبير وأصبحها نصه لدى السيد بوركهارت (المعلق على النص بالانجليزية)

بيشة والدواسر والمقوم وعرب العتبان ، والذين هم من أقطار الحجاز وصبيا والعارض . وإلى جانب ذلك كانوا معززين بطامي وعشرة آلاف من عرب عسير ، الذين زادوا قوتهم حتى وصل عددهم إلى أربعين ألف رجل .
وعقد الشياطين حينئذ مجالسهم ، فقرروا أن يهاجمونا . وغادروا تُرَبة ، فوصلوا إلى حوالي قرب قرية بِسَل المشهورة . وزحفنا عليهم بألف وخمسمائة من فرساننا المختارين من بين المؤمنين ، ومدفعي ميدان ، للاستطلاع . وبعد اقترابنا منهم انتشروا فوق الجبال ، وأبدوا مقاومة صامدة . لكن جنودنا بذروا أنفسهم لمواجهتهم . وبعد قتال عنيف أعادوهم إلى مراكزهم الحصينة* . وحينئذ بقينا نهاجمهم تحت نيران متصلة ، ونحاول أن نستدرجهم إلى السهل وكان جنودنا منهمكين في ذلك من شروق الشمس حتى الغروب « إلى أن حال بيننا الليل . ولزمنا دروب فرارهم وبالله القوة والحيل »[1] . وبعد ذلك طلبنا من كلاح مدد الفين من الجنود المشاة مع مدافعهم ثم هاجمنا العدوّ أخيراً عند الصباح لليوم الثاني** . فلم يصمدوا أمام هجومنا الأول ، بل هربوا . وأتاح الله لسيوفنا أن ترتوي من دمائهم . فتركوا مخيمهم ، ووقع ما يزيد على خمسمائة خيمة ، وخمسة آلاف بعير « ركائب ورواحل ، مع كل الأمتعة والمؤن ، غنيمة لجنودنا الذين أصبحوا مالكين لكل « عَرْضِيّهم وعرضهم »[2] . ثم تعقّبوا

* الحقيقة أن عدنا أدرك مُتَّدِنَا في اليوم الأوّل . (المؤلف)
(1) ما بين القوسين أورد في هامش النص الانجليزي بنصه العربي ويُلاحظ أنه يستعمل كلمة « تحيل » وهذا مصر عديّ والصحيح « الحول » .
** لم يذكر ، هنا ، شيء عن نُبعد الذين في خدمة الترك ، والذين كانوا فعّالين جداً بين المشاة (المؤلف)
(2) ما بين القوسين أورد في هامش النص الانجليزي بالنص العربي والعرضي هو الصحيح

الهاربين ، الذين وقعت أعداد منهم قتلا أو أسرا . وانقضّ عليهم كذلك حلفاؤنا من عرب الحجاز في ممرات ضيّقة . وهرب طامي بنفسه مع خمسة فرسان وخمسة من راكبي الإبل فقط . وهكذا قضى الله عليهم بحوله وقوته . وغادرنا كلاخ يوم الأحد مسرعين في أعقاب العدو ، فوصلنا إلى من يحوز تُربة يوم الخميس . وكان فيصل قد لجأ إلى هناك مع خمسين خيّالا ومائة من راكبي الإبل الباقين من جنوده . لكن حينما علم باقتراب جيوشنا هرب فورا . وخرج أهل تُربة ومن بقي من حاميتها ليقابلونا ، ويطلبوا منا الأمان فوعدناهم بذلك . وأقمنا مركز قيادتنا في بلدتهم . والتحق بنا عرب المجاورون لها . وبذلك أتاح الله لنا أن تتحقق آمالنا في تطهير تلك الجهات من مضطهديها المجرمين الظالمين . فنرفع إلى الله أعظم شكرنا القلبي على النعمة التي أنعم بها علينا ، والشرف الذي أسبغه على جنودنا . وسوف نغادر هذا المكان ، إن شاء الله ، بعد ثلاثة أو أربعة أيام إلى رنية وبيشة ، ثم نوجه مسيرنا ضد باقي عرب عسير لكي نقيم السلام في البلاد كلها ، ونقضي على كل المتمردين .

نودّ أن نعلن هذه الأخبار السارة ، ونفيدكم كيف أن العلي القدير قد أتاح لنا بفضله كل آمالنا . ونرجوه أن يكمل نعمته ، فيطهر كل بلاد الحجاز من خامس الشياطين بالقضاء عليهم . فنسألكم أن تدعوا لنا عند قبر سيّدنا محمد أدام الله رعايته لكم بعونه الكريم[٣] . هذا ما أردنا إخباركم به .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد وآله وصحبه

حرر في السابع من شهر صفر ١٢٣٠ للهجرة .

---

(٣) ما ورد في هذه الفقرة أمر لا يستغرب من محمد علي وأمثاله

الملحق الثاني

رسالة من عبد الله بن سعود إلى طوسون باشا بمناسبة مغادرة الأخير القصيم إلى المدينة(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام التام على سيد الأنام محمد ورحمة الله وبركاته عليه . ثم إلى النبيل أحمد طوسون باشا ، وفقه الله لصالح الأعمال .

وبعد فقد وصلت رسالتكم أوصلكم الله إلى المكانة الرفيعة وسرّ نلكم في خير وعافية . وما ذكرتم عن تبرير مصالحكم فإنه لديكم فهم ومعرفة . ولابد أنكم تعلمون أن مصالحكم غير مقبولة ، وأنها مجانبة للصلح ولو لم نرغب في المحافظة على الصداقة المخلصة الدائمة ، والوفاء بالوعود التي وعدنا بها من قبل لأجبنا مطالبكم . لكننا أهل صدق وإيمان ، ولا نتخلى عن العهود ؛ بل نمدّها حتى ولو اقتنعنا بأننا قد

---

(١) لعل هذه الرسالة الأصلي باللغة العربية موجود لدى بوركهارت . انظر صفحة من هذا الكتاب .

وقد نقل خحلاني نصها الانجليزي ، الذي ترجمه بوركهارت من دون الأصل ، إلى اللغة العربية مختصرة إلى حد ما . انظر كتابه ، **تاريخ البلاد العربية السعودية عهد عبد الله بن سعود** ، دون ذكر مكان الطباعة وتاريخها ، ص ص ٦٢ـ٦٣ .

ونجد أن بوركهارت قد أشار إلى أن رسائل عبد الله بن سعود إلى طوسون كتبت بأسلوب من إملاء عبد الله مباشرة وقد حاولت ترجمة النص الانجليزي بأسلوب يجمع بين الفصحى وبين العامية النجدية ما أمكن .

خدعنا . ومن جهة معاذرتكم فنحن نثق بأنكم لن تشكوا فينا ، ولن تعيروا أسماعكم لأقوال أعدائنا ومكائد المخادعين . واسألوا البدو الذين عندكم ، وسيخبرونكم ، إن أرادوا أن يقولوا الحق ، أنهم لو كانوا قد قتلوا واحداً من آل سعود ، وأعطيتهم الأمان فإنهم لن يشكوا فيه أبداً ؛ بل سيثقون بكلامي . نحن هنا على أرضنا الخاصة ؛ فهذه بلادنا نحن ونحن نصححكم ألا تشكوا في نوايانا ، وأن تثقوا بإخلاصنا . وإني أعاهدكم بالله ، وبالعهد لدي أعطاه للأمام ، ألا أتعرضكم أنتم ولا جيشكم بأية طريقة لا ترضونها . فأنتم في أمان الله ثم في أماني . وإنه الآن تستعدون للمغادرة ، وسوف أسعد أنا ، أيضاً ، وانسحب بجيشي إلى عنيزة . لكن إن صدقتم أقوال أعدائكم ، وشككتم بإخلاصنا فسوف نتوجه الآن حالاً صوب عنيزة « كرامة لخاطركم ولخاطر ولي أمركم »[1] . لكن نطلب منكم أن ترسلوا لنا كتاباً تتعهدون فيه بأمان الله ثم أمان السلطان وأمانكم لكل العرب الذين معنا ، حاضرة وبادية . وكتاباً آخر بالأمان لسكان الشنانة والبطاح والبهدية ، الذين سوف نتوجه إليهم حالاً . وإن شاء الله ستسلم جوابكم اليسيرة . ولهذا لا تحتفوا رحالنا يتأخر عندكم[2] . وإذا تحتفون برسل أهل ركائب لمسألة التي ذكر لنا أحمد فلا مانع لدينا . نعطيكم على كل هذا عهدنا أمام الله

(١) من بين هوس موضوع بخطه عربي في الهامش ويتضح منه أن أسلوب رسالة أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى . كلمة « نبي » « حبي » « الذي » أو « الذين » . هذا ويعود نص طوسون أبيه أو أخيه والسلطان العثماني .

(٢) « برغل » الرحل الذي يكشف ناداء مهمة ما في مثل ما ورد في ترجمته

وحين يتم الوصول إلى اتفاق ودي فلا شيء يطمئن قلوب المسلمين ويريحها بالنسبة لهم كلهم مثل إرسال الرهائن [1] ويسكونون تحت حمايتي وإذا وصلتم إلى الدائث أعدناهم إليكم وسوف نعاملكم بلطف وشرف . وسيخبركم إبراهيم بأسماء هؤلاء الرهائن . وهم محمد والي باشا وعثمان الصلحدار وإسماعيل خوجدار ومحمد آغا وهم عهد الله ثم عهدي بالأمان وسنرسل معهم مرافقين من [illegible] حتى يصلوا إلى مركز قيادتكم فإذا أرسلتموهم إليه فسنسد خلالاً [illegible] أما إذا كنتم تحبون أن ترحلوا قبلنا فسنرسل إليكم رهائن من صوب يشعوبث والآن لكم الخيار ؛ إما أن ترسلوا إلينا رهائنكم ونرحل ، أو تشاؤوا أنتم بالرحيل وتأخذوا معكم رهائن منا . أعطونا جوابكم بيوم ونرجو الله أن يكون الأمر كذلك حتى نسر . وثقوا أن الرهائن سيكونون تحت عنايتي وحمايته وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

من عبد الله بن سعود

---

[1] يحدد [illegible] (المسلمين) فالوهابيون لا يعتبرون أنفسهم إلا المسلمين ويميزون بين أنفسهم وبين الأتراك وقد تشير مرة أخرى هنا بالمسلمين وكأنهم يقولون لبعث تعبير [illegible] غير مسلمين وربما كان ذلك خطأ من الكاتب ؛ إذ الرسالة بأصلها تحمل دلائل ويصححه على النسخة التي كتبت بها (المعلّق على النص بالانجليزية)

وما ذكره المعلّق في كلامه السابق على رسالة عبد الله ليس من المسلَّم به بل الذي يبدو أنه لم يقصد بكلمة « المسلمين » هنا إلا كلمة العدد أو الناس ، ولم يقصد أي تلميح بأن خصومه ومن معه غير مسلمين ؛ خاصة أن الموقف يستدعي التفاهم

المصادر

١ ــ مصادر باللغة العربية :

البسام ، عبد الله بن عبد الرحمن
علماء نجد خلال ستة قرون ، مكتبة النهضة الحديثة بمكة ، ١٣٩٨ هـ .

ابن بشر ، عثمان بن عبد الله
عنوان المجد في تاريخ نجد ، الطبعة الثانية من قِبَل وزارة المعارف السعودية ، ١٣٩١ هـ .

الهكلي ، عبد الرحمن بن أحمد
نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود ، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢ هـ .

الجاسر ، حمد
معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، دار اليمامة ، ١٤٠١ هـ .

السهيلي ، عبد الرحمن

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، دون ذكر لسنة الطباعة .

آل الشيخ ، عبد الرحمن بن عبد اللطيف
آل سعود ، دون ذكر مكان الطباعة وتاريخها .

ابن عبد الوهاب ، محمد
مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٣٩٨ هـ .

العثيمين ، عبد الله
بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية ، دار الهلال للأوفست بالرياض ، ١٤٠٤ هـ .
الشيخ محمد بن عبد الوهاب : حياته وفكره ، دار العلوم بالرياض ، ١٣٩٩ هـ .
نشأة إمارة آل رشيد ، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود ، ١٤٠١ هـ .

العجلاني ، منير
تاريخ البلاد العربية السعودية : عهد سعود الكبير ، دون ذكر لمكان الطباعة وتاريخها .
تاريخ البلاد العربية السعودية : عهد عبد الله بن سعود ، دون ذكر لمكان الطباعة وتاريخها .

العيسى ، ميّ

المخلاف السليماني في عهد الدولة السعودية الأولى ،
رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة الملك سعود ،
١٤٠٣ هـ .
ابن غنام ، حسين
روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام ، طبعة أبي بطين ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ .
مؤلف مجهول ،
كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ،
تحقيق عبد الله العثيمين ، دارة الملك عبد العزيز ،
١٤٠٣ هـ .
مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ، مطبعة المنار بمصر ،
١٣٤٤ هـ .

٢ ــ مصادر بغير اللغة العربية :

Bidwell , Robin
Travelers in Arabia , London , 1976 .
Burckhardt, J. L.
Notes on the Bedouins and Wahabys , London , 1831 .
Travels in Arabia , London , 1828 .
Niebuhr , C.
Travels Through Arabia and Other Countries in the East ,
translated into English by R. Heron , Edinburgh , 1792 .

المحتويات